معًا نرتقي

(٢٨) شمعة
لحياة أرقى

د. منير لطفي

معًا نرتقِي

(٢٨) شمعة لحياةٍ أرقى

د. منير لطفي

- الكتاب		معًا نرتقي
- المؤلف		منير لطفي
- مقاس الكتاب	١٤x٢٠
- عدد الصفحات	٣٠٣

جميع حقوق الطبع محفوظة لدى

٤٨ ش العروبة – المعادي الجديدة – القاهرة – جمهورية مصر العربية
٠٠٢٠١٠٢٢٢٣٣٩٣٥ – ٠٠٢٠١١١٥٩١٩٢٥٩
Alwan_book@hotmail.com

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ-٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٢٥١٨٨

الترقيم الدولي ISBN: ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٥٧٦ - ٦٨ - ١

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

[العلق: ٥]

الإهداء

إلى أبجديّة حياتي مِن أَلِفِها إلى يائِها ..

«أُمّي»

المقدّمة

مع كلّ ما في الحياة من جماليّات تغمرنا بها صباح مساء، إلّا أنّ أجمل ما فيها أنها تخلو من الأسرار، لا أسرار في النجاح، ولا أسرار في التفوّق، ولا أسرار في التميُّز؛ فدرب النجاح ليس سوى حزمة من السلوكيّات الإيجابيّة، والوصول إلى التفوّق لا يتطلّب سوى الإرادة والمثابرة، والصعود إلى منصة التميّز لا يكون إلّا من خلال البذل والعطاء ونكران الذات، وإن شئتَ مفتاحا لكلّ هذا فما عليك سوى اقتفاء الأثر النبوي الشريف: «قل آمنتُ بالله ثمّ استقِم».

أين الخلل إذَن؟

لماذا أَخفق مَن أَخفق؟

ولماذا تَخلّف مَن تخلّف؟

ولماذا أصبحنا عبرةً لمَن يعتبر وعظةً لمَن يتّعظ؟

إنه الوعْي الذي نفتقده، الوعْي بإمكاناتنا الذاتية، الوعي بمفردات الحياة من حولنا، الوعي بالآخَرين الذي يشاركونا الهواء والعيْش ويقاسمونا السقف والأرض، ثمّ التفاعل مع هذا كلّه بيقظة الوعْي وروحه التنويريّة، لنصنع كعكة النجاح ونجلس إلى مائدة التفوّق ونحتفل معًا بالتميّز.

والوعي مرحلة متقدّمة على الوجود؛ فللنبات وجود وللحيوان وجود بل للجماد أيضا وجود، ووحده الإنسان هو صاحب الوعي، ومَن يفرّط فيه يفقد الأهليّة التي حمل بها الأمانة واستحقّ السيادة والخلافة، ويَقبل لنفسه أن تكون نبْتة في أرض أو صخرة في جبل أو زرافة في غابة! ويكفي أنّ الوعيَ يحصّننا ضد التضليل القائم على إثارة الشكوك وصناعة الحيرة وبثّ الخوف، ويمنحنا القوّة للسيطرة على ردود أفعالنا، ويضع اللبنة الأساس في جدار انعتاقنا وتَحرُّرنا، على اعتبار أنّ الإنسان بذاته -كما قال الفيلسوف الألماني هيجل- حرٌّ في ماهيته وجوهره، ولكن في حالة عدم وعيه بأنه في ماهيته وجوهره حرّ، يكون غيرَ موجود كإنسان حرّ. بمعنى أنّ الإنسان لا يكون حرّا إلّا إذا عرف أو وعى أنّ طبيعته الجوهرية هي الحريّة، فالوعْي وحده هو الذي يحرّر الإنسان. ولهذا عندما سُئل

(بيريانذروس)، وهو أحد حكماء اليونان السبعة، عن الحريّة؟ قال هي الوعْي النّزيه.

مِن هنا كانت الأهمية القصوى للوعي الذي يُوضع في موازين القوى جنبا إلى جنب مع المال والسلاح، وكانت الفكرة المُوحِية لهذا الكتاب الذي جاء في ثمانٍ وعشرين مقالة منوَّعة بتَنوُّع مسارب الوعي وتَعدُّد مساراته، رتّبتُها على حروف الهجاء فارتبطَت معها بوشيجة لن تخفى على لبّ القارئ؛ وقصدتُ من خلالها فتح مظلّة عقولنا على فضاء معرفيّ، نسبر به غوْرنا وغوْر محيطنا، ونمنح أنفسَنا من خلاله دهشةً حقيقية تقوِّم السلوك وتُنعش الروحَ وتبهج الفؤاد.

سنتعرّف على جوهر الثقافة وأدوات الإبداع، ونشير إلى مخاطر التسويف والتّواكُل، ونحذّر من منهجيّة الشكوى على حساب الشكر والكمّ على حساب الكيْف، ونجرّم البخل والظلم والمحسوبيّة، ونُعلي مِن رياضة الروح والعمل الجماعي وعاطفة الحبّ، وغيرها من الموضوعات التي تأخذ بيدنا إلى نور اليقين ونحقّق بها التوازن المرجوّ بين الدنيا والدِّين.

ولا يفوتني أن أستميح القارئ عذرا لخلوّ الكتاب من فهرس مكتمِل، يضمّ بين جوانحه المصادرَ والمراجعَ التي اتّكأْتُ عليها،

إذْ إنّ الكتاب سُطّر على هيئة مقالات متفرِّقة باعدَت بينها الأيام ومزّقتْها خير ممزَّق، وكان لكلّ مقال مراجعه ومصادره الخاصّة، ولم تكن النيّة مبيَّتة آنئذ لرصفها كحبّ الرمّان في جوف كتاب. ومع هذا فقد استدركْت وضمَّنتُ الكثير من المراجع ضمن المتْن وفي ثنايا الهامش؛ آملا أن لا يَضيع حقّ ولا يُغبَن فضل ولا تُضيَّع أمانة، فبِئْست الحياة إنْ خلت من نور الحقّ والفضل والأمانة.

والله مِن وراء القصْد وهو يَهدِي السّبيل.

د. منير لطفي
كُتب في سلطنة عمان
٢٠١٩م

[أ]

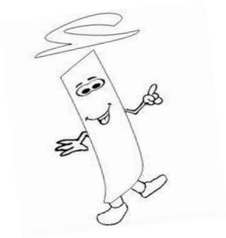

أَلِف باء الإبداع

لا أَجْدَر بالإبداع مِن حرْف الألف ولا أَلْيَق بالإبداع إلّاه، إذْ أتَى في مقدّمة الرَّكْب كأكْثر الحروف ترددا في القرآن العظيم بعدد مرات تكرار بلغَتْ اثنان وتسعون وسبعمائة وأربعون ألفا (٤٠٧٩٢)، ومتقدِّما في ذلك الإحصاء العجيب على حرف الشِّين الذي تلاه في الترتيب فتكَرَّر ثلاثة وثلاثين ومائة وخمسة وعشرين ألف مَرّة (٢٥١٣٣)، كما تُوِّج على قِمّة منصّة الحروف وجاء مُنتصِب القامة شامِخ الأنف مُزيِّنا رأسَه بهمزةٍ بدَتْ كرِيشة المُلْك وتاج الإمارة. وفي هذا السياق ورد أنَّ القومَ تباحثوا بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأَجمعوا على أنَّ حرف الألف هو أكثر حروف الهجاء تداولا في الكلمات، فما كان منه إلّا أنْ خطب فيهم خطبةً عصماء خلَت مِن حرف الألف تماما! ليدلِّل بذلك على أنه أمير مِن أُمراء البيان.

وقد حَفَل المُعجم الوجيز الذي أصْدره مَجمع اللغة العربية وضَمَّنه خمسة آلاف مادة لغويّة، بمشتقّات عديدة للفعل بَدَعَ، وذلك بعد أن عرّف الإبداع بأنّه «الإنشاء على غير مثال سابق». على أنّ الاحتفال بالشيء أو الإسهاب في الحديث عنه، لا يعني بالضرورة حيازته وامتلاكه، بل ربّما يؤشِّر على الحرمان منه ويُدلِّل على التَّوْق والشَّوْق إليه؛ فأحاديثُ الجائعين مَلْأَى بأطايب الطعام، وأسمار الفقراء مُترَعة بالذهب والمال، وهمسات المعتقَلين تَضجّ بالحريّة والانعتاق .. وكأنّ ما لا يُسعفنا به الواقعُ الضنين ولو حَبْوًا، يَأتينا في أضْغاث الأحلام عدْوا، أو في أحلام اليقظة هرْولةً. وهو ما رصده الياباني نوبوأكي نوتوهارا في كتابه (العرب وجهة نظر يابانية) بقوله: أستغرب باستمرار لماذا يستعملون كلمة الديمقراطية كثيرا في المجتمع العربي؟! ولماذا صارت تميمة يردّدها ويحملها الجميع بمَن فيهم رجال السلطة الحاكمة ووسائل الإعلام الرسمية؟!إنّ ظروف الواقع العربي لا تسمح باستعمالها لأنّ ما يجري فعلا هو عكسها تماما، وهذا الشبع الزائد الزائف يدلّ بوضوح على غيابها.

وما قِيل في حقّ الديمقراطية يُقال في حقّ الإبداع؛ فما أكثرَ ما نَقرأ في كُتُبنا ونَسمع في أحاديثِنا ونَرى على شاشاتِنا مَن يُنظِّر للإبداع ويُترجِم للمُبدِعين، حتى يَحسب وافدُنا وغريبُنا أنّ الإبداع لدينا عادة كالنّوم وعبادة كالصّلاة وعقيدة كالتوحيد، وهو ما يُكذِّبه الواقع وتُنكره الحقيقة وتنفيه الدراسات والأبحاث، وليس ذلك لأنّ الله-جلّ علاه- فطَرنا مِن جينات رديئة أو مِن طينة حمِئة غير مسنونة، ولا لأنّنا ضعاف الخيال كما افترى علينا المستشرقُ الفرنسيّ الشّعوبيّ الحَقود (أوليري)؛ بل لأنَّ لبنات الإبداع لدينا لم تكتمل وأدواته لم تتوفّر وبيئته لم تنضج، وهذا ما يفسِّر عدم عودة نصف الدارسين المُبتَعَثين إلى الجامعات الأجنبية بعد أن قرّ فيها قرارُهم وحطّوا بها رحالَهم ووجدوا لديها بغيتَهم.

فالإبداع هو قمّةٌ في هرم ورأسٌ في مثلّث وأعلى درجة في سلّم، أمّا قاعدة ذاك الهرم وأوّل حرف في مُعجمه وأُولى درجات سلّمه؛ فهي التحرُّر مِن الفقر والجهل والمرض، إذْ لا مجال لإبداع في مجتمعٍ فقير تصرخ أمعاؤه، ولا حاجة لإبداع في مجتمعٍ عليل

لا يَستطيع التقاط أنفاسه، ولا قيمة لإبداع في مجتمعٍ يُعشِّش فيه الجهل وتفترسه الأُمِيّة؛ فمَن عَدم القوتَ نظر إلى الرغيف ولم ينظر إلى باقة الزهْر على حدِّ قول الأستاذ أحمد أمين في كتابه (فيضُ الخاطر). علاوة على أنَّ ثقافة التلقين والتقليد تصبغ المجتمعاتِ الجاهلة الفقيرة الضعيفة، خلافا لثقافة الاستنباط والابتكار والإبداع التي لا تملكها إلّا الأممُ القوية العَفيّة، وشتّان بين التقليد الذي يُجيبك عن كيف تفعل الشيء، وبين الإبداع الذي يُجيبك عن كيف تفعله ولماذا تفعله. بما يعني أنّ التقليدَ لا يلد الإبداع والعادةَ تقتله، ولا إبداع إذا تركْنا زمامَنا لعاداتنا تتحكّم فينا وتتلاعب بنا.

أما الدّرجة الثانية في سلّم الإبداع والضلع الثاني في مُثلّثه؛ فهو التحرّر مِن الاستبداد الذي يكتم الأنفاس ويشلّ العقول، وكسْر طوق[١] الطغيان الذي يقطع الألسنة ويخرس الأصوات، وقطْع دابر الظلم الذي يُطفئ كلَّ ومْضة فكر ويَخنق كلّ نبضة أمل فيئِد

(١) يقول الأستاذ أحمد أمين: «مَن قُيِّد القيدَ الثقيلَ طمح إلى فكِّ أغلالِه قبل أن ينظر إلى العالَمِ وجمالِه».

المُبدِعين ويلِد الأقزام[١]، ليرفرف بعدها عَلَمُ الحريَّة التي هي أوّل المطالب الإنسانية وأقدم الحقوق القانونية وأسْمى المبادئ الشرعية؛ حتّى عدَّها بعضُ المفكِّرين الإسلامِيِّين المجتهِدين -من أمثال الطاهر بن عاشور وعلّال الفاسي- مقصدا جديدا سادسا إلى جوار المقاصِد الضرورية الخمس التي أمَر الشرْع الحنيف بالحفاظ عليها (الدِّين - النّفْس - النّسْل - العقْل - المال)، ولكن في الإطار الذي رسمه الرافعي حين قال: «الدِّين حريّة القيْد لا حريّة الحريّة، فأنتَ بعد أن تقيّد رذائلَك وضراوتَك وشَرِّك وحيوانيّتك، حرٌّ ما وسعتْك الأرضُ والسماءُ والفِكر»، وكما كانت الحاجةُ أُمًّا للاختراع فالحريةُ أُمٌّ للإبداع.

وبعد نيْل هذيْن التحرُّريْن، واجتياز هاتيك الدّرجتيْن، وتحقيق شروط المعادلة الإبداعية التي قعّد لها المنصف المرزوقي ضمن كتابه (دَعْ وطني يستيقظ)، يمكننا التحليق في سماء الإبداع واللحاق

(١) في كتابه (٢٠٠ فكرة) يقول مصطفى أمين: «إذا فتحنا كلّ النوافذ في بلادنا، فسنرى الإبداع والخلق والابتكار في كل ميدان، أما الظلام فلا يلد إلّا الأقزام».

بِرَكْب الأوائل أو حتى قيادته، أمَّا الحديث عنه كظاهرة فردية ذاتيّة تنحصر مقوِّماتها في شعلة الذكاء وعلوّ الهمّة ورحابة الخيال ومهارة الابتكار ومرونة الفكر وعمق التفكير وسعة الاطّلاع؛ فهو حديثٌ مَبتور وجنينٌ مُبتَسَر، إذْ إنّ الإبداع حالة مُجتمَعيّة بامتياز واقتدار، تماما كالنّبْتة التي لا تَنمو ولا تُثمر إلّا وسط تربة خصبة وشمس ساطعة وهواء عليل وماء نَمير، وكالسمكة الشهيّة التي لا يمكن اصطيادها إلّا بشباك مُحكَمة يَرميها صيّادٌ ماهر في الزمان والمكان المُناسبَيْن، وفي هذا قيل إنّ الإبداعَ «طاقةٌ عقليّة هائلة؛ فِطريّة في أساسها، اجتماعيّة في نمائها، إنسانيّة في انتمائها».

وبالنظر إلى هرَم الاحتياجات الإنسانية الذي وضَعه عالمُ النّفس الأمريكي إبراهام ماسلو في منتصف القرن الماضي، نجده لم يبتعد عن ذات الطرح، وذلك حين وضع تحقيقَ الذات عبر إفراغ الطاقات والابتكار والإبداع على قمّة الهرم، وبنى قاعدتَه على حتْميّةِ إشباعِ الحاجات العضويّة والتوفُّر على الإحساس بالأمان، وأكّد في وسَطه على ضرورة ملء خزانات الحبّ والانتماء والتقدير.

وفي هذا سجّل علماءُ الاجتماع أنَّ أمريكا لم تتمكّنْ مِن امتلاك زمام قيادة العالم رغم عمرها القصير الذي يدور حول الخَمسمائة

عام، إلّا بتهيئة بيئة جاذبة وحاضنة للعقول المهاجرة، ولعلّنا نذكر أن المهندس الأوّل في برنامج الفضاء الأمريكي، والذي انطلق في ستينيات القرن الماضي، كان ألمانيا. كما أنّ هجرة العقول العربية صوب الشمال ونزوحها تجاه الغرب، لم تكن إلّا أملًا في شريانٍ تتدفَّق فيه دماء الحُلم وأوكسجين الخيال والابتكار، وبحثًا عن تلك البيئة التي نعمتْ بالتحرُّرَيْن الأوّل والثاني؛ ليتسنّى لها التغريد ضمن ما أسماه المرزوقي بالتحرّر الثالث الذي هو الإبداع، ولتنجو بأدمغتها مِن مصيرٍ محتوم كان على أهبة الاستعداد ليصوغ منها ترسا في آلة عتيقة أو لَبنة في حائطٍ متهدِّم، دون أن تشفع لها ألْمعيّةُ الفكر أو أسْبقيّة الذكاء.

وبهذا فإنَّ حديثا مُجْتَزَءا عن الإبداع، مع إغفال باقي المُعطَيات والمُدخَلات، لهو حديثُ إفْك واقترافُ إثْم؛ لأنّه هروب للأمام وتغييب لفقه الأولويّات، تماما كمَا يَأثَم المتحدِّث عن غُسل الجنابة وطهارة الحيْض والنفاس في وقتٍ تُراق فيه الدماء وتُنتَهك الحُرمات وتُسلَب الديار، وهذا يعني أننا في حاجة إلى إعادة صياغة لمفهومنا عن الإبداع، وفي حاجة إلى الكثير مِن الحديث عن

الصحّة والتعليم والاقتصاد، وفي حاجة ماسّة إلى الحديث أكثر وأكثر عن الأمن والحريّة والكرامة والعدالة.

وجدير بالذكر أنَّ المقوّمات العقليّة الأساسيّة للعمليّة الإبداعيّة، وهي الطّلاقة والمرونة والأصالة، متوفّرة لدى أغلب البشر ولكن بدرجاتٍ مختلفة ومستوياتٍ متفاوتة، بما يَعني أنّ الفعلَ الإبداعي ليس امتيازا حصريًّا لفئة العباقرة والعلماء والمفكِّرين والفنّانين[1]؛ تلك الفئة التي لا تنام على وسادة الرضا، ولا تكفّ عن الحُلم بإعادة هندسة العالم، ولا تفتر عن التغيير بل وتغيير التغيير، فتخاصِم النظرةَ المُسطَّحة، وتسلك الطرق المهجورة، وتمشي على يديْها لا قدميْها، وتبهر الحياةَ مع كلِّ إشراقة شمس وإطلالة فجر...

وإنّما يَمتدّ هذا الفعل الإبداعي ذات اليمين وذات الشمال؛ ليشمل كلَّ ربّةِ بيتٍ في منزل، وكلّ معلِّمٍ في فصل، وكلّ طالبٍ في مدرسة، وكلّ صانعٍ في مصنع، وكلّ زارعٍ في حقل؛ طالما أنّه امتلك

(١) في هذا يقول الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش: «كلّ الناس فنانون بشكل أو بآخَر».

الرغبة والإرادة، وابتكَر فكرةً زاوجَتْ بين المعرفة والخيال؛ فوفَّرت وقتا وجُهدا، أو رَفَعتْ كفاءَةً وحَلَّتْ مُعضِلة، أو حسَّنَت رديئا وصحَّحَت خطأ، أو نثَرتْ للجمال بذرة وغرسَت للمُتعة شجرة.

وللتدليل على ذلك، نجد أنَّ الإبداعَ على مرّ التاريخ الإنساني؛ لم يستقطب إلّا نسبة قليلة مِن الأذكياء، بينما كان جلّ المبدعين مِن ذوي الذكاء المتوسّط أو حتي العادي. كما يدلِّل عليه مقولة كبير المبدعين (توماس أديسون)، الذي قال في تصريحه الأشْهر مِن فنار في ميناء: «العبقرية ٩٠٪ عرق والباقي إلهام». ولعلّك تدهش عزيزي القارئ حين تعلم أنّ (مارلين فوس) صاحبة أعلى معدل ذكاء في وقتها (٢٢٨)، لم تُسجَّل ضمن صفوف المبدعين، وهو أكبر دليل على هشاشة العلاقة بين الذكاء وحده والإبداع. ومن الجيّد هنا العلم بأن مراكز الحركة ومقار الحواس لا تشغل سوى ثلث أدمغة البشر، بينما الثلثان الباقيان هما منصات لتوليد الأفكار وحفْز الخيال والتحليق في عوالم الإبداع والابتكار!

وهنا تأتي أهمية التنشئة في الطفولة، والتعليم في المدارس والجامعات، إذْ يُمكننا مِن خلالهما -أي التنشئة والتعليم- تنمية

الذكاء الفطري وتعليم المهارات الإبداعية، فعقْل الطفل ابن الخامسة -كما يقول أحد المنشغلين بقضية الإبداع- يُشبه بركانا له فوّهتان؛ واحدة هدّامة وأخرى مبدِعة، ونحن بمقدار ما نُوسِّع مدى الفوّهة المبدِعة، نُوقف نموّ الفوّهة الهدّامة، وفي هذا تشير الخبيرة النفسية ليندا بلير في كتابها (كلام في الصميم) إلى ما يُعرَف باللعب الإبداعي، فتقول بأنّ اللعب أمْتع طريقة للفهم وأفضل سبيل للإبداع، وتُنوِّه إلى أنَّ أغلب اكتشافاتنا المُفيدة والمُهمّة تَمّ التوصّل إليها عندما عبث (لعب) بعضُهم بالأفكار ونظَّروا للأشياء مِن منظور جديد.

بقيت إشارةٌ؛ إلى أنَّ الإبداعَ بمعنى الاستحداث والتطوير، هو فعلٌ محمودٌ وعملٌ مرغوبٌ في كلِّ مناحي الحياة، غير أنَّه في الدِّين بدعةٌ مذمومة وابتداعٌ مرفوض، إلّا ما كان منه في سياق الوسائل والآليّات؛ وذلك عملًا بالقاعدة الشرعية التي تقرّر أنّ الحظر أصلٌ في العقائد والعبادات. وإشارة ثانية إلى أنَّ الإبداع الإلهي ﴿بديع السموات والأرض﴾[(١)] خلْق بلا مادّة ولا آلة ولا زمان ولا مكان

(١) البقرة١١٧، الأنعام١٠١

﴿ليس كمثله شيء ﴾(١)، بما يعني أنّه الإبداع الحقيقي، بينما الإبداع الإنساني -الذي نحن بصدَده- هو إيجادٌ يَلزمه مادّةٌ وآلة، كما يَحدّه زمانٌ ويَحتويه مكان، وهو بذلك إبداع على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة، وهو ما يُؤكِّده التعريف الشائع للإبداع؛ والذي يقول بأنّه: «النظر للمألوف بطريقة أو مِن زاوية غير مألوفة، ثمّ تطوير هذا النظر ليتحوّل إلى فكرة، ثمّ إلى تصميم، ثمّ إلى إبداع قابل للتطبيق والاستعمال».

برايت ماكفيل

(١) الشورى: ١١.

[ب]

بُخلاء لهم العجَب

الحياة مدرسة، ولكنها ليست ككل مدرسة، في رحابها نتقمّص دور الطالب تارة؛ فنَتعثّر ونَنهض، نَبحث ونَسأل، نُخطئ ونُصيب، ونَقرأ ونَفهم. ثمّ نتقمّص دور المعلِّم تارة أخرى؛ فننصح، ونرشد، ونوجّه، ونعلّم.. وهكذا تُعمَر الدنيا، ويَسير ركب الحياة، وتَتواصل الأجيال، وتُتوارَث المعارف.

بيْد أَنّ هناك صِنفًا مِن النّاس دَأَبَ على الأخْذِ والكَنْز، ولا يَعرف للعطاءِ نافذة ولا للبذْل بابا، فتراه ضَنينًا بعِلمه وشحيحًا بخبراته، إذْ يعضّ عليهما بنواجذه كأنهما -أي علمه وخبرته- قطعةٌ مِن لحمه ونزفٌ مِن دمه وبعضٌ مِن نخاعه، فيَطلب لهما الذهبَ ثمنا[1] والدولار عِوَضا والأنَفة والكبرياء مَنًّا ... ...

(١) هُنا يَصدق فيه المثل الشعبي الذي يُضرب للمُغالِي في أشيائه فيُقال: «إبْرتُه ثمنُها فّدان».

وأذى[١]، وهُو في هذا يَخلط بين قانون المال القائم على الكنْز والجمْع والاستحواذ، وقانون العِلْم القائم على البَذْل والمَنْح والعَطاء، فيَضرب عرضَ الحائط بما قاله صاحب الظلال مِن أنَّ «التُّجّارَ وحدَهم هم الذين يَحرصون على وضع علامات تجاريّة على بضائعهم كي لا يَستغلّها الآخَرون ويَسلبونهم حقّهم مِن الربح، وذلك على خلاف المفكِّرين وأصحاب العقائد الذين يَسعدون حين يَتقاسم الناسُ أفكارَهم وعقائدَهم فيؤمنون بها إلى حدّ أنهم يَنسبونها لأنفسهم لا إلى أصحابها الأوّلين». ويصمّ آذانه عن نصيحة علّامة الأندلس ابن حزم حين قال: «إنّ الحظّ لِمن آثر العِلم وعرف فضله؛ أن يُسهّله جهده ويقرّبه طاقته ويحفظه ما أمكن. بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارّة، ويدعو إليه في شوارع السابلة، وينادي عليه في مجامع السيّارة. بل لو تيسَّر له أن يهب المال لطلّابه، ويجزي الأجور لِمقتنيه، ويعظم الأحمال عليه للباحثين عنه ... لكان ذلك حظًّا جزيلا وعملًا جيّدا وسعيًا مشكورا».

---

(١) معلوم أنَّ المنَّ والأذى يُبطِل الصّدَقة حيث قِيل «المِنَّة تهدِم الصّنيعَة»، وهو في وقْعه على المُحتاج أكثر ألما وأشدّ قساوة من حاجته، حتى ضُرِب به المثَل في القُبح فقِيل: «أقْبحُ مِن مَنٍّ على نَيْل».

والحقّ أنّ هؤلاء البُخلاء حاضرون على مقاعِد كلِّ الفِئات؛ حرفيين ومهنيين وأكاديميين، وهُم بذلك المَسلَك أنْكى بُخْلا مِن مادِر[١] وكَسَع وأبي حُباحِب وكلْبة يَزيد، الذين وصلوا في البُخل شأْوًا عاليا وصاروا مضرِب الأمْثال. علاوة على أنّهم بصنيعهم هذا حجرُ عثرةٍ في تقدّم الأمَم، وعارٌ في جبين العِلْم ورسالته السامية، ومُضيِّعون للحقيقة لا مُتلمِّسون لها؛ إذْ إنَّ مُتلمِّسَ الحقيقة يجب أنْ يكونَ أكثر تواضعًا مِن التراب على حدِّ وصْف الزعيم والفيلسوف الهندي (غاندي). أضِف إلى ذلك أنهم بفعالهم هذه قد باؤوا بالقِدح الأَخْيب ولم يكن لهم في الطّيِّب نصيب؛ إذْ حَرموا أنفسهم مِن أن يكونوا يدَ خيْر ومشروعَ بِرّ يَمتد ظلُّه إلى مَن حولهم ويتناقله جيلٌ وراء جيل، حتى لتُكتب أسماؤُهم بحروف مِن نور ومدادٍ مِن ذهب، وسْط الفحول والأعلام الذين خلَّدهم التاريخ ومجَّدهم الشرَف.

---

(١) (مادِرٌ) هو ذلك الأعرابي الذي كان إذا سقى إبلَه عكّر الحوضَ حتى لا يَسقِي أحدٌ بعده، أمّا (كلْبة يزيد) فهي التي سأل سائلٌ أصحابَها، فلمّا منحوه رغيفا تبعَتْه حتى أكلَتْ منه الرغيف.

ولأنّ المعرفةَ مُنتَج تراكمي، يشبه كرة ثلج تتدحرج جيلًا وراء جيل وتكتسب مع كلِّ جيل طبقة معرفيّة جديدة، فإنّ هؤلاء السّادة -ولا ريب- لمْ يُولَدوا مِن بطون أمّهاتهم علماء ومفكّرين ومِهنيِّين محترفين، بل كانوا نبْتةً لبذور مُعلِّميهم وشعاعًا قَبَسُوه مِن سابِقِيهم، ولو حُبِس عنهم ما وصلَهم منه فتيلٌ ولا نقيرٌ ولا قِطمير.. ثمّ هُمْ إلى الموت والفناء راحلون، ولا يُعْلِي ذكرَهم في الدنيا، أو يُغْنِيهم ويُثَقِّل موازينَهم في الآخرة؛ إلّا عِلْما ورِثوه فعَلَّمُوه، أو نُورا مَلَكوه فمنحوه، أو خيْرا حازُوه فنَفَحُوه.

و في ذلك توعَّدهم رسولُ الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: «**مَنْ كَتَم عِلمًا يَعْلمه أُلجِم يوم القيامة بلجامٍ مِن نار**» ... والكَتْم يَعنِي ترْك إظهار الشيء قصْدا مع مَسيس الحاجة إليه وتَحقُّق الدَّاعِي إلى إظهاره. ثمّ حذّرهم سلمانُ الفارسيّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مِن مغبّة فعلتهم فقال: «عِلمٌ لا يُقال به ككنز لا يُنفَق منه»، وكذلك سفيان الثوري -رَحِمَهُ اللَّهُ- الذي قال: «مَن بخل بعِلمه ابتُلي بثلاث: إمّا أن يَنساه ولا يَحفظ، وإمّا أن يَموت ولا يَنتفع به، وإمّا أن تذهب كتبُه». أمّا عالِم النّفس ألفريد آدلر فقد أخرجهم -بذلك المَسلَك الذّميم- مِن شرف الوصْف بالإنسان العبقري بعدما قصَره على الفرد الذي أَعطَى مِن

نفسه الكثير، حتى إنَّ كلَّ شخصٍ في المجتمع قد استفاد استفادةً ذاتيّة مِن هذا العطاء الوافِر.

وكما في النَّقْد زكاة وفي الزروع زكاة وفي الرِّكاز زكاة؛ فإنّ للعِلمِ زكاةٌ لا تتمّ إلّا بتبليغِه، وصدَقةٌ لا تكتمل إلّا بنشرِه وتعليمِه، وحينها يظفر العِلْمُ بما في الزكاة والصّدَقة مِن معاني النَّماء والزيادة والبركة. علاوة على اكتساب صاحبِه سلاحًا جديدا؛ يَقهر به الأنانية والحرص، ويَطَّهر[1] به مِن أدْران الغُرور وأوْصاب الشُّحّ، ويَتعافى مِن نرجسيّة مَرَضِيّة بغيضة تَستنكف أنْ ترى غيرَها على القِمّة، وتأنف أنْ يظهر في المرآة سواها. فضلا عن أنَّ البذلَ رحمةٌ بالمبذول له، والعِلم لا ينفكّ عن صفة الرحمة؛ وهو ما سطَّره الإمام ابن تيمية تعليقا على قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿**فوجدا عبدًا من عبادنا ءاتيناه رحمةً من عندنا وعلّمناه من لدنّا علما**﴾[2]، إذْ قال -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «رحمةٌ بلا علمٍ لا تنفع، وعلمٌ بدون رحمةٍ كذلك لا ينفع».

(١) الطهارة نوعان؛ حِسِّية مِن النجاسات، ومعنويَّة مِن الذنوب والآثام.

(٢) الكهف ٦٥.

وهنا يَجدر القول بأنَّه ما ذاق طعمَ الحياة قطّ مَن عاش لنفسه فقط، وأنّ الأعمى حقّا هو مَن لا يرى أبعد من نفسه، ولا يمدّ يده إلّا إلى فمه وجيبه، ولا ينصاع لصفة الرجولة التي اشترط لها أحمد شوقي صفة البذل والعطاء بقوله:

«وكُــن رَجــلًا إنْ أَتــوا بعــده
يَقولــون: مَــرَّ، وهــذا الأثــر»

تُرى هل ضَرَّ البحرَ طيرٌ بَلَّ منه لسانَه؟!
وهل غاض نهرٌ غمس فيه طفلٌ بنانَه؟!

فَمع أنّ المُتعلِّم ازداد عِلمًا وحصَّل معرِفةً وغَنِم خيْرَا، فإنّ المُعلِّم أيضا لا يَعدَم تثبيت عِلمِه[1] واسترجاعِه، وكذا صيانتِه مِن آفة النّسيان والعدم، إضافة إلى إثراء وإنماء ما عنده عبْر الحوار والنِّقاش؛ فدقيق العلم تُنتجه قاعاتُ الدَّرس وتُمحّصه مائدة النّقْد...وقد قِيل للخليل بن أحمد: بِمَ أَدركْتَ هذا العِلم؟ قال: «كنتُ إذا لقيتُ عالِما أَخذتُ مِنه وأَعطيْته»، وقال أيضا: «اجْعل

(١) في هذا المعنى يقول ميخائيل نعيمة: المُعلِّم الذي لا يتعلَّم من تلميذه لا يُعلِّمه، والمعلِّم الذي فات دورُ تتلمذه للحياة فات دورُ نفعه كمعلّم.

تعليمَك دراسةً لعِلمِك».. وهو نفس المعنى الذي ساقه الشاعر الأمريكي تيودور روثك بقوله: «المدرِّس هو الشخص الذي يواصل تعلّمه أمام الناس»

وبمقدار ما في البُرْء مِن البُخل والسلامة مِن الشُّحّ[١] مِن فلاح ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢]، فإنَّ البُخلَ ممْجوجٌ ومذمومٌ أينما حلّ وارتحل؛ سواء تَلبَّس بالمال فعاش صاحبُه عيشة الفقراء وحُوسِب حساب الأغنياء، أو بالعاطفة فكان جامدَ القلب باردَ المشاعر كغُصنٍ أَجْرد بلا أوراق، أو بالعِلم فداسَتْه أقدامُ المروءة وعُدَّ مِن سَقَط المتاع، إلَّا أنّ البُخلَ بالعِلْم نقيصةُ النقائص ورذيلةُ الرّذائل... ولِهذا فقد قلَّده ابنُ حزم مرتبة اللؤم الأُولى حين قال: «الباخِل بالعِلْم أَلْأَم مِن الباخِل بالمال، لأنّ الباخلَ بالمال أشْفَقَ مِن فناء ما بيده، بينما الباخلُ بالعِلم بَخِل بما لا يَفنَى على النَّفقة ولا يُفارق مع البَذْل».

(١) أُثِر عن الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كان يطوف بالبيت ويدعو فيقول اللهمّ قني شحّ نفسي، ولا يزيد على ذلك.

(٢) التغابن: ١٦.

وقد عرَّف الجُرْجانيّ البُخْلَ فقال: «البُخْلُ ثلاثةُ أحرف؛ الباء بَلاء والخاء خُسران واللّام لَوْم، فهو بلاءٌ على نفسه وخاسرٌ في سعيه ومَلُومٌ في بُخْله»، كما وصَفه حكيمٌ بأنَّه «مَحو صفات الإنسانيّة وإثبات عادات الحيوانيّة»، ولذا فقد زخَر التاريخ بكلّ هجاء ومساءة للبخلاء حتى صاروا مضرب السّخرية والاستهزاء إلى حدّ إسقاط أبي حنيفة لشهادته وإفتاء بِشْر الحافي بأنَّ عِرْضَ البخيل كَلأٌ مُباح لا غِيْبة له، واقرأ إن شئتَ كتاب البخلاء للجاحظ والذي سَفَّهُم فيه المَلَّ وأَرْداهم الأرض وذبحهم على قارعة الطريق ويَأَّسَ من علاجهم فقال:

«سِقامُ الحرْصِ ليس لهُ شِفاءُ
وداءُ البُخْل ليسَ لهُ طبيبُ»

وفي هذا تَروِي سطورُ تاريخ القرن الحادي عشر الميلادي، أنَّ العالِم والفيلسوف أبا الريحان البيروني ألّف كتابا عن الفلَك وأَهداه إلى سلطان زمانِه، فكافَأه السلطانُ بعددٍ مِن الإبل المُحمَّلةً بالفضّة، ولكن البيروني اعتذر عن قبول الهدية قائلا: أنا أخدم الحقيقة بلا

مقابل!...وفي ذلك صورةٌ مُزدوجةٌ ساميةٌ للجُود الذي عزّ وندر في أيّامنا، ولمحةٌ خاطفةٌ عن العطاء الذي هو مهنة الشّرفاء وزينة الأغنياء وحِلْية العلماء خاصة حينما يُخالِطه الحُبُّ ويُزايِله الرّياء. وقديمًا قِيل لحكيم: هل مِن شيء خيرٌ مِن الذّهب والفِضّة؟ فقال: مُعْطِيهما. كما سُئِل حكيمٌ آخَر عن الوقت الذي يَتمنّى فيه أن يرحل عن الحياة، فأجاب: عندما أَتوقَّف عن العطاء.

أمَّا حديثًا، وعلى طريق تنمية ثقافة العطاء(١) وزرْع قيمة البذْل(٢) ووَأْد رزيلة البُخل، فقد اقترح المُربِّي والمفكِّر عبد الكريم بكّار ألَّا ينال طالبُ الشهادةَ الإعدادية إلّا بعد أن يَثبُت أنّه تطوّعَ مع بعض الجهات الخيريَّة مدّة لا تقلّ عن مئتَي ساعة عمل، ثمّ زادها إلى ثلاثمائة ساعة كشرط للحصول على شهادة الثانوية، وإلى

(١) مِن الطّريف أنَّ رجُلا ثريًّا ومُثقَّفا ضُبط مُتسوِّلا، فعجب النّاسُ وتساءلوا، فأجاب: لستُ محتاجا للمال، ولكنِّي أختبر قدْرةَ الناس على العطاء وأُحصِي نسبةَ الخير في نفوس البشر!

(٢) في الحثّ على بذْل العلم والتأكيد على أنَّ التشاركيّة و المشاطَرة ركنا المعرفة، يقول الجاحظ: «لم يُصَن العِلمُ بمثل بذْلِه».

خمسمائة ساعة للحصول على الشهادة الجامعية .. فهل تجدْ تلك الاقتراحات الثرَّة والأفكار النَّديّة آذانا صاغية؟!

«يا صديقي قد فَحَصْناك فكان البُخلُ داءك

خُـذْ نقيـعَ الجُـودِ واشْـربْه تجِـدْ فيـه دواءَك»

الشاعر محمود غنيم

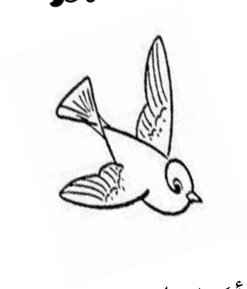

[ت]

تَوكُّلٌ لا تَواكُل

قاتَلَ اللهُ سوءَ الفهم الذي يَقلِب الأمورَ رأسًا على عقِب؛ فيَجعل الماءَ للنّار رفيقا، والضِّدَّ للضِّد رديفا. وسَقى الله فاروقَ الأُمّة(١) مِن الحوْض ومَتَّعه في جوار الربّ؛ إذْ كان لكلِّ سُوءِ فهْم بالمرصاد، فتارةً يَعلوه بالدِرَّة، وتارات يُعيد إليه رشدَه بلسان الحال وحكْمة المقال، حتى غادَر شيطانُ سوء الفهْم كلَّ فَجّ سلَكه وهجَر كلَّ طريق قصَده.

وسوءُ الفهم هذا؛ هو ما أَعْمَى المتواكِلين عن قانون السبب والنتيجة الذي عليه مدار حركة الحياة، وأَغْراهم بأنّ قولَهم (توكّلتُ على الله)، وحسبْ، كفيلةٌ بأنْ يَغدو صاحبُها خِماصا ويَروح بِطانا.

---

(١) هو ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب، والذي كان أوّل مَن لُقِّب فيهم بأمير المؤمنين، ورغم أنه ليس من أولاده مَن يُدعى حفصا، فقد كُنِّي بأبي حفص، ومعلوم أنَّ حفصا مِن أسماء الأسد.

وهو ما سَوّل للكُسالى بأنّ النّظرَ إلى السماء ضامنٌ لنزول المَنّ والسَّلوى، وكافٍ لهطول الذّهب والفضّة، وهو ما لَبَّس على العاجِزين أيضا؛ فألْقى في رَوْعِهم أنَّ المُكْث في الزوايا ليل نهار هو غاية المراد مِن ربّ العباد، وذلك على زعْمٍ مُهترئ بأنَّ مَن شقَّ الفم قمِينٌ بإطعامه، وأنَّ مَن زرَعَنا مُكلَّف بسقيانا، وأنَّ مَن صَنَع السَّفينَ يُجْرِيه بلا ماء ولا شراع ولا قبطان، وهم في ذلك يتمثَّلون القول الفاسد:

«جـرَى قلـمُ القضـاء بمـا يكـون
فسـيّان التحـرّك والسـكون
جنـونٌ منـكَ أن تسـعى لـرزقٍ
ويُـرزَق في غشـاوته الجنـين»

وقد طارَد الفاروقُ سوءَ الفهم هذا .. فوفَد على الحجيج، ولقِي أناسا مِن أهل اليمن لا يتزوّدون لحجّهم ثمَّ يتكفَّفون السّابِلة، فقال مَن أنتم؟ قالوا: نحن المُتوكِّلون. فقال: «بل أنتم المُتّكِلون؛ إنّما المُتوكِّل الذي يُلقِي حَبَّةً في الأرض ويتوكَّل على الله». ثم عرّج -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- على البادية فرأى إبلا قد مسّها الجرَبُ وأنهكَها الحكاك، بينما راعِيها

يُداويها بالدّعاء لا غيْر، فوجَّهَه قائلا: هلّا جعلْتَ مع الدّعاء قَطْرانا. ليس هذا فقط؛ فقد أقام الحُجّةَ على مَن بعده، وسجَّل في صحائف التاريخ وصِيّته الخالدة: «لا يَقعدنّ أحدُكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهمّ ارزقني، وقد علِم أنَّ السّماء لا تُمطر ذهبا ولا فضة»، وأرْدفَها بقوله: «إنّي لأرى الرجل يُعجبني، فأقول أَلَهُ حِرفة، فإنْ قالوا لا، سقط مِن عيْني».

والتوكُّلُ عبادةٌ قلبيّةٌ مُشتقَّةٌ مِن اسم الله (الوكيل) الذي يتولَّى بإحسانِه شؤونَ العباد؛ فلا يُفوِّت عليهم خيرا ولا يُسْلِمهم للشرِّ أبدا. وهو شجرةٌ وارفة؛ بذرتها الإيمان بالقضاء والقدر، وثمرتها حياة القلب وسلامته، وفيه تكمن سرّ قوّة المؤمِن ومنبع ثقة المُتوكِّل. وقد عرَّفه الحافظ ابن رجب بأنّه صِدْق اعتماد القلب على الله في استجلاب المصالح ودفْع المضارّ، ووصَفَه الفُضَيْل ابن عياض بأنّه قوام العبادة، وقال عنه ابن القيّم: التوكّل نصف الدين، والنصف الآخر الإنابة، في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿عليه توكّلت وإليه أنيب﴾[1]، بينما عبَّر عنه أحدُهم بقوله: التوكُّل هو انطراح القلب بين

(١) هود: ٨٨.

يدي الله كانطراح الميت بين يدي المغسِّل. وجاء في الإحياء؛ ينبغي أن يكون حال المتوكّل مع الله تعالى كحال الطفل مع أمّه، فإنّه لا يعرف غيرها ولا يَفزع إلى أحدٍ سواها ولا يعتمد إلّا عليها، فإذا رآها تَعلّق في كلّ حالٍ بذيلها ولم يخلها، وإن نابَه أمرٌ في غيبتها كان أوّل سابقٍ إلى لسانه: يا أمّاه، وأوّل خاطرٍ يخطر في قلبه فإنها مَفزَعُه.

والحقيقة أنَّ التوكّل لا يكون في الرزق فقط كما يعتقد بعض الناس، بل هو مظلّة يدخل في نطاقها الرزق وغير الرزق، فيمتدّ ليشمل كلّ ما دَقّ وجَلّ من أمور الدنيا والدِّين. وهو منطق العقل قبل أن يكون نداء القلب؛ لأنَّ اللهَ سبحانه باقٍ وغيره فان ﴿وتوكَّل على الحيِّ الذي لا يموت﴾[1]، ولأنه سبحانه قادرٌ وغيره عاجز ﴿وكفى بالله وكيلا﴾[2]، ولأنّه سبحانه مستطيعٌ بذاتِه بينما غيره مستطيع بغيرِه، ولأنّه سبحانه علّام الغيوب بينما غيره جاهلٌ بما حوله يدور؛ ولَعمري كيف يتوكّل فانٍ على فان، وعاجزٌ على عاجز، ومستطيعٌ بغيره على مستطيع بغيره، وجاهلٌ على جاهل؟! وفي ذلك قال

(١) الفرقان: ٥٨.

(٢) النساء: ٨١،، ١٣٢، ١٧١، الأحزاب: ٣، ٤٨.

صاحب الحِكم ابن عطاء الله: «لا تَطلب ممّن هو عنك ببعيد، وتترك الطلب مِن مَولى هو أقرب إليك مِن حبل الوريد»، وقال أيضا: «قبيحٌ منك أن تكون في دارِ ضيافته، وتُوجِّه وجه طمعك لغيره».

أضف إلى ذلك أنّ الله -عَزَّوَجَلَّ- هو خالِق الحاجات، وبيده مقاليد العطاء والمنع، وهو سبحانه كفيلٌ بدحر الشيطان الذي يُعرقل خطانا ويَمنعنا من نيل مبتغانا، وفي توكُّلِنا بعض شُكرٍ للمنعِم وعِرفانٍ للمتفضِّل. ومعلومٌ أنَّ التوكّلَ شرطُ الإيمان ودليلٌ عليه: ﴿وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين﴾ (١)، وأنَّ المتوكِّلين أحباب الله ﴿إنّ الله يحبّ المتوكّلين﴾ (٢).

على أنّ التوكّل لا ينفكّ عن الأخذ بالأسباب؛ إذْ لا توَكُّل لمَن لا يَسير في الأرض فيَسعَى (٣) في مناكبِها ويَنتشر في جنبَاتِها؛ ثمّ يَصنع

(١) المائدة: ٢٣.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) في بركة الحركة وعاقبة السّعي تقول العرب: «الحركة وَلُود والسّكون عاقر»، بينما يقول (ابن هانئ الأندلسي):

«ولَمْ أجد الإنسانَ إلا ابن سعيه   فمَن كان أسعَى كان بالمجد أجدرا»

كما صنع نبيُّ الله نوح الفلك، ويُقدّر كما قدّر نبيُّ الله داوود في السَّرد، ويَأخذ بقوّة كما أخذ نبيُّ الله يحيى الكتاب بقوّة، ويَركض كما ركض نبيُّ الله أيّوب برِجله، ويَرفع كما رفع نبيُّ الله إبراهيم القواعدَ من البيت، ويخطِّط ويدبِّر كما خطّط ودبَّر نبيُّ الله يوسف لإنقاذ مصر مِن الجوع، ويضرب بالعصا كما ضرب نبيُّ الله موسى البحر، ويَكسر الصخور كما كسر خيْرُ الأنام وخاتمُ الأنبياء (عليه وعلى أنبياء الله أزْكى الصلاة والسلام) صخرةَ الخندق، ويَهزّ كما هزّت مريمُ البتول جذعَ النخلة، ويتمثّل في كلّ ذلك قول الشاعر:

«تَوكّل على الرحمنِ في الأمرِ كلّه
ولا ترغبنّ في العجْز يومًا عن الطلب
ألم تر أنَّ الله قال لمريم:
وهزِّي إليكِ الجزع يَسّاقط الرطب؟
ولو شاء أن تجنيه من غير هزّة
جنتْه، ولكن كلّ شيء له سبب»

وقد رُوِي أنّ شقيق البلخي عزم على السفر في تجارة له، فودَّع صديقه إبراهيم بن أدهم، ولكنه لم يلبث أن عاد سريعا، فعجب إبراهيم مِن إيابه، وسأله عن ذلك، فقال شقيق: في طريقي للسفر، دخلتُ خرابة أقضي فيها حاجتي، فوجدتُ فيها طائرا أعمى كسيحا، ودار بخلدي: مِن أين يأكل هذا البائس المسكين؟ وإذْ بطائر آخَر يحمل إليه الطعام، ويُطعمه حتى شبع، فقلتُ في نفسي: مَن رزق هذا الطائر الأعمى الكسيح في خرابته قادر على أن يرزقني، وعُدت. فقال له ابن أدهم: سبحان الله يا شقيق، لماذا رضيتَ لنفسك أن تكون الطائر الأعمى العاجز الذي ينتظر عون غيره، ولا تكون أنت الطائر الآخَر الذي يسعى ويكدح ويعود بثمرة ذلك على مَن حوله مِن العُمي والمُقعَدين؟! أما علمتَ أنّ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى»؟ فقام إليه شقيق وقبّل يده وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحق.

مِن هنا يتضح أنّ تعطيلَ الأسباب بالاتّكال ومحوها بالتّواكل؛ هو رأس مال المفاليس ونُقود الحَمْقى وذَهَبُ البُلَداء وقِمار السفهاء، حتى إنَّ العربَ كانت إذا أرادَت ذَمّ رجل جبان بليد عاجز، قالت: هو رجُل وَكِل، أي يَكِل أمرَه إلى سواه. وكانت إذا ضرَبَت

المثل على التواكل والتكاسل، قالت: «أربع نساء والقِربة[١] يابسة».

وقد قِيل أيضا: «عملٌ بلا توكُّلٍ غرور، وتوكُّل بلا عملٍ قصور».

ولم يكن ذلك كذلك إلّا لأنّ التواكل مقْصلة الآمال، والسّرطان الذي يُودِي بالأُمم ويُوردها الحُتُوف؛ إذْ يَستوِي ساعتها الذين يَعلمون والذين لا يَعلمون، ويَتعادَل الأحياء والأموات، ويَتطابَق الهُدَى والعَمَى، ويُصبح السّلاحُ في الحرب: «**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ**»، والخُطّةُ في التنمية: «**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا**»، والقانونُ في الرّعْي: «اطْلِقها وتَوَكّل»، كما يغدو في الإمكان ارتقاء سلالم النجاح ويدانا في جيوبنا دافئتان على حدّ تعبير الأديبة الإنجليزية ماري إيفانس التي اختارتْ لنفسها اسما قلَميًّا ذُكوريًّا اشتُهِرت به وهو (جورج إليوت)!

ومن منظورٍ آخر؛ نجد أنَّ نداءات الحياة كلّها، تؤكّد على أنَّ قيمةَ المرء فيما يحسنه ويتقنه، وتقرّر أنَّ المُتوكّلين هم صنّاع

---

(١) القِربة وعاء من جلد الماعز يُوضع فيه الماء.

النجاح وأصحاب الظفر، بينما تصف المتواكِلين الذين لا يُحسنون صنعا ولا يُتقنون فنّا، بأنهُم للخيْبات صنّاع وتجّار وزرّاع، وبأنّهُم في القِيمة أفْرغ مِن فؤاد أمّ موسى، وأنهم باقون على حالهم في انتظار هدهد سليمان لا ليأتيهم بما لم يحيطوا به علما فقط، بل ليصنع لهم ما يشاؤون من محاريب وتماثيل وجفان!

ومِن البوْح الجريح والنزْف الصادق هنا أنْ نقول: إنَّ أُمّة المسلمين ما تَخلّفَتْ؛ إلّا بعد أنْ أَساءَت فهم التوكّل وأَخلَّتْ بشروطِه، فهجَرتْ الأسبابَ وعالجَتْ الحياةَ بروح باردة باهتة متواكِلة، ثمَّ عصَتْ الله حين رفعَتْ أكفّ الضراعة بالدعاء وانتظَرتْ المدَد والقبول، وغابَ عنهم قولُ العلماء: «دعاءُ مَن لم يأخذْ بالأسباب لا يُقبَل، بل هو استهزاء بالدّعاء». وقد روَى أحمد لطفي السيد في مذكّراته، أنه مرّ بكُتَّاب في إحدى القرى، ولمّا وجد قلّة في عدد التلاميذ، قال للشيخ: أظنّ أنك صرفتَ الأطفال لتنقية الدودة! فقال الشيخ: ليس في بلدنا دودة؛ لأني أذَّنتُ الأذان الشرعي في الجهات الأربع للقرية، فامتنعَت الدودة بإذن الله تعالى.. ثمّ يذكر

أحمد لطفي السيد، أنّه كان يشمّ رائحة الدودة حوله في المزارع!

والتوكّل قوّة معنويّة تُزيد الأسبابَ مضاءً وتُضيف إلى القوّة الماديّة قوّةً مضاعفة، كما أنها تَحمل المتوكِّل على التواضع عند بلوغ مراده والوصول إلى غايته؛ لأنَّ له في النجاح شريك ومُعين، ولأنَّ الحوْل حوْلان والقوّة قوتان ولا حوْل ولا قوّة إلّا بالله. والواقع أنّ كلّ إنسان لو عرف مقام ربّه، وعلم قدْر نفسه وقدْر غيره، ووضع الدنيا في نصابها؛ لَما هداه عقلُه ولا أَسلَمه قلبُه إلّا إلى خُلق التوكُّل، وعندها يَحوز السكينةَ والطمأنينةَ والرضا والعزّةَ والأمل. هذا مع الالتفات إلى ما يَقع فيه بعض الناس مِن المَناهي اللفظيّة، حين يقول أحدُهم لشفيعٍ يُلبِّي له حاجتَه: توكّلتُ على الله وعليك، بل ينبغي القول: توكّلتُ على الله ثمّ عليك.

خلاصة القول؛ أنّ بين التوكّل والتواكل في المعنى خيْط دقيق مِن الأخْذ بالأسباب دون الركونِ إليها أو تعلّقِ القلب بها، بينما يفصلْهما في المرتَبة والمنزِلة بوْن شاسع؛ يَسمُو بالمتوكِّل إلى مقام الشّرف في العبوديّة، ويهوِي بالمُتواكِل إلى درَك الحُمْق والابتداع حسبما نعتَه الإمام أحمد بن حنبل...وقد أوْرد ابن القيّم في (مدارج

السالكين) كلمةَ الفصْل في التوكُّل والتواكل فقال: «الالتفاتُ إلى الأسباب بالكلِّيَّة شِركٌ منافٍ للتوحيد، وإنكارُها بالكلِّيَّة قدْح في الشرْع والحِكمة، والإعراضُ عنها نقصان في العقل، أمّا تنزيلُها منازلها ومدافَعة بعضها ببعض هو محْض العبوديّة والشرْع والحِكمة». ومعلوم أنّ الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر، فالإيمان بالقضاء والقدر -كما يقول أنور الجندي- مفروض على المؤمنين في النتائج دون الأسباب؛ فهم مطالَبون بالأسباب، ومأمورون بالسعي لها والأخذ بها، ومطالَبون بعد ذلك بأن يتركوا النتائج لله مدبر الكون الواحد الأعظم.

ولا عجب أن نجول في ربوع الحياة، فنرى فئاما من الناسَ ينقطع أملُهم وينتحِبون إذا غابت عنهم الأسبابُ ؛ إذْ لا وكيل يحمل عنهم حاجاتهم، ولا توكّل يكفكف لهم دموعَهم. بينما نرى المؤمنين حقّا وصدقا؛ لا تَخبو جذوةُ أملهم، ولا تذبل شمعة يقينهم، ولا يَفتر لسانُهم عن الحمد والشكر؛ لأنَّ القلبَ بالله موصول وبطاقة التوكّل مفعَم وعامر.. وصدق الوكيل -تقدَّسَت أسماؤه- حين قال:

﴿ومَن يَتوكّل علي اللهِ فهُو حَسْبه إنَّ اللهَ بالغ أمرِه قدْ جعَل اللهُ لِكلّ شيءٍ قَدْراً﴾(١) .

«ومـا طلَـبُ المَعيشـةِ بـالتَّمنِّي
ولكـنْ أَلـقِ دلْـوكَ في الـدِّلاءِ»(٢)

(١) الطلاق: ٣.

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي، يُخاطب به ولدَه الذي قعد عن الكسْب وقال رِزقي يَأتيني!

[ث]

ثقِّف نفسَك

بين الجهْل والثّقافة تكمن جُلّ مشكلاتنا ولُبّ قضايانا السياسية والاجتماعية والأخلاقية، والبحث عن أفق للحلّ خارج إطار هذه الثنائية حرثٌ في الماء ورسمٌ في الهواء ونفْخٌ في الرماد. ورغم أنّ الخَطّ الزمني يشهد بأنّ الآلةُ المعرفيّة والرافِعةُ الفكرية والقاطرة الروحيّة، كانت دوما هي الأساس لأيّ نهضة والمُرتكَز لأيّ تقدُّم؛ إلّا أنّنا لازلنا نراوح مكاننا، إلى حدّ بات فيه الخلْطَ بيْن الأُميّة والجهل وبيْن التعليم والثّقافة لازال قائما ومحتدما.

فمع صرخة الحياة وصافرة البداية؛ تَقذف بنا أرحامُ أمّهاتنا أُمِّيّين لا نقرأ قرطاسا ولا نخُطّ بِيَراع، وجَهَلَةً لا نُميِّز بيْن الكُوع والبُوع ولا بيْن القَبِيل والدَّبِير، ثمّ تتكفَّل المدارسُ بتعليمنا ما نمحو به عارَ الأُمِيّة الأبْجديّة، وربّما تخطو بنا خطوة إلى الأمام فتداوي أُميّة اللغة الإنجليزية وأُميّة استخدام التكنولوجيا، ولكنَّها تنفض يديها عن الأميّة الفكرية، ولا تنقلنا إلى طوْر الثقافة. فالتعليم -بالكاد-

يَفتح العقلَ كالمظلّة ويَحرثه كالتربة، ليصبح قادرا على الهبوط في مرفأ الثقافة والإبحار في نهرها العظيم الذي يَصبّ فيه رافدان عذْبان؛ أحدهما كَسْبيّ اجتهاديّ، وطُرُقه الحواسّ الخمْس والعقْل الواعي والخيال الخصيب. وثانيهما توقيفيّ لا مجال فيه لرأي، وسبيلُه الوحْيان الكريمان القرآنُ والسُنّة. ولِيمتزج عندها الشرْع بالعقْل، فيَغدو نورا على نور كما قال الإمام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ).

وعلى هذا فالأُمِّية ليستْ مرادفَ الجهل، والثّقافة ليستْ هي التعليم؛ فكَم مِن أُمّي مثقَّف يَزن الأمور برزانة عقل ورجاحة فكر ودقيق رأي، وكم مِن مُتعلِّم[١] ظلّ جاهلا وإنْ حاز أعْلى الشهادات وارتدى أغلى البِذلات ... وإلّا فماذا تقول في جامِعيّ يسأل الشيخ الحوينيّ عن المذهب الذي تبِعه خير الأنام، أكان المذهب الشافعي أمْ المذهب المالكي؟ وماذا تقول في كاتب معروف يُسأَل عن حكمتِه في الحياة فيُجيب بأنّها الآية الكريمة: «اطلبوا العلم ولو في الصين»! وماذا تقول فيمَن يُوصَف بأنّه مفكِّر وباحث ثمّ يَستشهِد في

(١) في هذا المعنى قال شوقي:

«وكَم مُنجِبٍ في تَلقِّي الدروسِ   تَلقَّى الحياةَ فلم يُنجبِ»

أطروحته ويُدلِّل عليها بما زعَم أنها آية كريمة تقول: «دعْهم في ضلالهم يعْمهون»! ومِثْل ذلك يُقال في طبيبٍ لا يَدري عن الأدب والاقتصاد، وفي سياسيٍّ لا يَفقه في الجغرافيا والاجتماع، وفي داعيةٍ لا يَعلَم عن التاريخ والرياضيّات ... وما كان ذلك كذلك؛ إلّا لأنّنا خلطْنا بين التعليم الذي هو استظهار عِلم ونقل أقوال وحفظ أرقام، وبين الثقافة التي هي فهم وفكر وسلوك.

والثقافةُ قلْبُ الحضارة[1]؛ فهي اليقظة والانتباه، وهي الإلمام بطرف مِن كل مناحي العلوم والفنون، وهي الخروج من دائرة التخصّص الضيّقة إلى أفق المعرفة الشاملة الرّحبة. كما أنّها الأوكسجين اللازم لإشعال الطاقات، والبصيرة التي تُنير الدروب، والنّظرة المُحِيطيّة والفكر الاستراتيجي الذي يتبوَّأ مركز القيادة في البَرّ ومنارة السفينة في البحر وقُمْرة الطائرة في الجوّ..

وهي مَا عرَّفها العقّادُ في أبسط تعريفاتها الشائعة بأنّها «معرفة شيء عن كلِّ شيء»، بمعنى أنها كفصل الربيع الذي لا يَصنعه وردةٌ واحدة، وكاللوحة الفاتنة التي لا يكفيها لون وحيد. بينما ذهب آخَرٌ

(١) على اعتبار أنَّ المادّة هي بدنُها.

إلى أنّها تهذيبُ النّفس الإنسانيّة بالأفكار، وقال آخَرٌ بأنّها الكُلُّ المُركَّبُ مِن اللغة والتاريخ والدِّين والعادات والتقاليد، وذهب آخَرٌ إلى أنها ممَّا يَصعب الإحاطة به بعد أن أَحصى لها ما يَقرب مِن مائة وخمسين تعريفا مختلِفا.

مع التنويه بأن الثقافة- كما قال عماد الدين الرشيد في كتابه (ثقافة الخطيب)- مصطَلح جديد، لم يكن مِن قبل مستخدَما في المعنى الذي يُراد منه اليوم، وإنّما كان يُستخدم بدلا منه (العلم) أو (المعرفة)، بمعنى أن الثقافة مِن المصطلحات الوافدة التي ضربَت جذورها وأصبح لها كيانا مستقلّا، وامتلكت مظلّة أوسع من العِلم وأشمل من المعرفة، وهو ما حدا بالمجتمع الدولي إلى إنشاء منظمة دولية تُعنى بالثقافة؛ فكانت منظمة (اليونسكو) التي أُنشأت في منتصف القرن الماضي (١٩٤٥م)، ثمّ تلاها منظمة (الإيسيسكو) التي أنشأتها منظمةُ المؤتمر الإسلامي في عام ١٩٨١م للعناية بالتربية والعلوم والثقافة في الدول الإسلامية.

أمَّا الجَهْل فهو الشّجرة التي تَنبت منها كلُّ الشّرور على حدِّ قول ابن القيِّم، وهو موْت الأحياء كما أَوْرَد الميْدانيُّ في أمثاله، وهو

الإثم(١) كما وصَفه (سيدهارتا تاغوما) المُلقَّب ببوذا، وهو قُبْح الباطن الذي يُرادف العمَى ويَقود إلى العَمَه. وقد حذّرَنا منه ربُّنا جلّ وعلا في كتابه الكريم حين قال في سورة هُود: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وذَمّه الشاعر وقبّحه فقال:

«إذا ما الجهلُ خيَّم في بلادٍ
رأيْتَ أُسودَها مُسِختْ قرودا»

وزاد آخَرٌ فقال:

«إنّ الجهالةَ ظُلمةٌ تَغشى الحِمى
وتُحيلُ أحرارَ الرجالِ عبيدا»

هذا قبل أن يضعَه الشاعرُ صالح بن عبد القُدّوس في مرتبةٍ فوق العدوّ فيقول:

«ما تَبْلغُ الأعداءُ مِن جاهِلٍ
ما يَبْلغُ الجاهلُ مِن نفْسِه»

---

(١) الخطيئة هي الإثْم، وما كان الجهل إثْما إلا لأنه هو الدافع والمحرِّك الغالِب وراء ارتكاب الخطيئة.

والجهل نقيض العِلم، وأحد أضلاع مثلّث الشقاء الإنساني على مرّ العصور والأزمان (الجهل، الفقر، المرض)، ويُعرِّفه بعضُهم بأنَّه العمَل بغير عِلم أو العِلم بما لا يُحتاج إليه، ومِنه البسيط الذي يُقِرُّ به صاحبُه، ويَعنِي عدم الإدراك بالكُلِّيّة، ويَسهُل علاجه بالتَّحْلية. ومِنه المُرَكَّب(١) الذي لا يُقِرُّ به صاحبُه، ويَعني إدراك الشيء على وجه يُخالف حقيقتَه، وهو بذلك أَعقَد مِن ذَنَب الضبّ؛ إذْ يَتطلّب التَّخْلية قبل التحْلية والحرْث قبل الزرْع.

ولعلَّ «ابن المقفع» هو أبْدع مَن فنّد قُبحَ الجاهل وشروره، حين صبّ عليه جامّ كلماته وأطلق عليه قذائفَ بلاغتِه، فوصفه قائلا: «إنْ جاوَرَك أنْصَبَك (أتعبك)، وإن ناسَبَك جنى عليك، وإن ألِفَك حمل عليك ما لا تُطيق، وإن عاشرَكَ آذاكَ وأخافَك، فأنت بالهرب منه أحقُّ منكَ بالهرب مِن سُمّ الأساوِد، والحريقِ المخوِّف، والدَّيْنِ الفادح، والداءِ العَياء». ولهذا كان التعامل مع

(١) حمَل (ابنُ القيِّم) على الجهل المُركَّب فقال في نُونيّته:

وتَعَرَّ مِن ثوْبيْن مَن يَلبسهما ... يَلقى الرَّدَى بِمَذَمّة وهوان
ثوبٌ مِن الجهْل المُركَّب فوقه ... ثوبُ التعصُّب بِئستْ الثوْبان

الجاهل الطيِّب أسوأ من الأخذ والردّ مع المثقّف الشرِّير، لأنَّ المثقف صاحب منهجية يمكن التقاطها وتوقّعها والاستعداد لها، بينما الجاهل يرعى كيفما اتفق ويخبط خبط عشواء، فلا تحزُّر له تصرّفا ولا تحسب له ردّة فعل.

وإذا كان الدِّين هو طريق الفلاح والحريّة هي مدخل الإبداع، فإنَّ القراءة هي الباب الملَكيّ للولوج إلى عالم الثقافة البريء مِن أيّ ارتباط بالجينات والوراثة؛ على شرط أنْ تكون تلك القراءة جادّة مُبصِرة؛ فتقف على أرضيّة الفِكر والوعْي والدِّين والضمير، وتَستند إلى المبادئ التي لا تَتبدَّل بالمال ولا تَذِّل مع الجاه ولا تَترنَّح تحت أقدام السلطان، وتَستنير بضوء كتابٍ يُنير العُزلةَ ويُحيي الوقتَ ويَخدم العقلَ على حدِّ وصف المفكّر الطبيب مصطفى محمود.

وقد ورَدَ في المعجم الوجيز وفي باب حرف الثاء معنى ثقَّف الإنسانَ بمعنى أدَّبه وهذَّبه وعلَّمه، كما جاء ثقَّف الشيءَ بمعنى أَقام المُعْوجَّ منه وسَوّاه...وبهذا المعنى فإنّ الثّقافةَ ليستْ حشْوًا لمعلومات أو تكديسا لأرقام أو حيازة لمكْتبات، بل هي سلوكٌ[١]

(١) يقول روجر فريتس: المعرفةُ شيء جيد، والإرادةُ شيء أفضل، أمّا الفعلُ فهو أفضل الثلاثة.

يَسرِي إيجابا في الفرد والمجتمع فيَعصِمْهما مِن الفِتَن ويَقِيهما الزَّلَل؛ إذْ إنَّ عقْلًا يتأثَّر ولا يُؤثِّر ويَنفعل ولا يَفْعل ويَعِي ولا يَعمل هو والعدَم سواء، تماما كإبرةٍ بلا عيْن وشمعةٍ في يد كفيف وكتابٍ على ظهر بعير...ومِن هنا فإنّ المثقَّف الحقيقي -أو المتنوِّر كما يسمِّيه المفكّر علي شريعتي- هو صاحب الرسالة لا صاحب الشهادة، وهو مَن يتقدّم الصفوفَ لا مَن يجلس على الرفوف، وهو الشّجاع المقاتِل لا المهادِن أو المناوِر، وهو مَن يتَّقِ الله لا مَن يتَّقِ الأُمَراء، علاوة على أنّه الكتلة الصلبة في ميزان الحقيقة واللحظة الفارقة في منعطفات الأمَم وصاحب الهامة والقامة في زمن الزحف والانبطاح، وهو مَن وصفه الكاتب الأمريكي نعوم تشومسكي بأنّه يَحمل الحقيقةَ في وجه القوّة.

والواقع أن جُزءا كبيرا مِن نكبتنا يقع على عاتق بعض أولئك المثقَّفين المزيَّفين؛ الذين تَقلَّدوا مقْود التوجيه العام وتوسّدوا مقعد الضمير الجمْعي؛ فكتبوا عن الحرية، ونظَموا للديمقراطية، ووعظوا في الإنسانية، وما إنْ سمعوا أغاريد السُّلطة وأبْصَروا بريق الذّهب

حتى ذابوا كالشمع واحترقوا كالفتيل، فذهبوا مع الرّيح وتساقَطوا كأوراق الخريف وصدَق فيهم قولُ الشاعر:

«أَرى الناسَ خداعا إلى جانب خداع
يَأكلون مع الذئب ويَمشون مع الراعي»

وما كان ذلك كذلك إلّا لأنّهم أداروا ظهورَهم لسلامة المنهج، ويَمّموا وجوهَهم شطر منهج السلامة[١]؛ فزيّفوا المبادئ والقيَم التي تجاوَزها الجدل والنقاش وانتمتْ إلى عالَم المُطلَق والثابت -لكونها خالطتْ الفطرة وأكّدتْها الرسالات السماوية وصدَّقتْها التجارب الحياتية- فعَدُّوها آراء نِسبيّة زِئبقيّة مُتغيّرة يَبيعونها في أدْنى سوق ويَرمونها في أقرب صندوق، وذلك بعد أنْ فتَنتهم ألاعيبُ السياسة وأحابيلُها، وأصبحتْ الثقافة ليستْ إلّا عربونا للصداقة ودليلا على التدجين والتنعيج ... ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى

---

(١) في كتابه (صور المثقف)، يقول الكاتب إدوارد سعيد: «لا شيء في نظري يستحق التوبيخ أكثر من تلك الطباع الذهنية للمثقَّف التي تُغرِي بتجنُّب المخاطر، أي الابتعاد عن موقف صعب ومبدئي تُدرك أنَّه صحيح لكنها تُقرِّر ألا تتخذه».

يُؤْفَكُونَ﴾(١).

كان جوزيف جوبلز مُنظِّر النازيّة وأستاذ الإعلام الأسود وعدوّ الثقافة يقول: «كلّما سمِعتُ كلمة مثقَّف تحسَّسْتُ مسدّسي»، نعم .. كان هذا أيام المثقَّف الحقيقي؛ الذي يمتلك رؤية ينافح عنها ويعمل على تحقيقها، والذي ترتجّ من كلماته القصور وتتفجّر من بيْن أنامله الثورات، فيهدِم بقلمِه وفكرِه ومواقفِه العروش، أمَّا اليوم فقد آن لجُوبلز أن لا يَخشي مُثقَّفا ولا يَتحسَّس مسدَّسا، بعد أنْ صار المثقّفون في جَيْبه أَلْيَن مِن ماء وأطْوع مِن بنان وآمَن مِن أرْض، وبعد أن غاب عن بعضهم أنّ الإنسان -كما قال الوزير أحمد هيكل في مذكّراته- لا يكون مثقَّفا؛ إلّا حين يرتفع فكرُه بالعِلم والمعرفة والخبرة والتجربة من جانب، ويسمو وجدانُه بالدِّين الصحيح والفنّ الرفيع والتقاليد السامية والأخلاق الراقية من جانب آخر.

ولعلّ أصدق مثال على قيمة الثقافة -إذا ما كانت عميقة الجذور سليمة الأركان صحيحة البنيان إسلامية الهويّة- وقوّتها، هو ما حدث للتتار الذين هَزموا الخلافة العباسية عسكريا ومزّقوها

---

(١) المنافقون: ٦٣.

سياسيا وخرّبوها اقتصاديا، ولكنهم ما لبثوا أن انهزموا ثقافيا أمام الثقافة الإسلامية التي روّضتْهم وأَدْخلتهم في حَرمها، فأصبحوا حُماة بعد أن كانوا أعداء، وصاروا دعاة بعد أن كانوا ألدّاء وخصوم.

وهذا ما انتبهَت إليه القوى الاستعمارية؛ فألقَت سلاح الحرب وتَقلّدت مدفع الثقافة المتعدِّد الطلقات، والذي كفل لها تحقيق مآربها في السيطرة والغزو دونما دماء وذخائر، ودون الحاجة إلى جيوش وعتاد، وها أنت ترى بأم عينيْك النتيجة في بعض الدول التي فقَدَت قرارَها وسلَّمَت زمامَها وتَعطّلت إرادتُها، وفي بعض الرؤساء الموظّفين بدرجة رئيس والاستعماريِّين تحت بند وكيل[1]، وفي بعض النُخَب التي تُحاكيك بلسان عربي يغذِّيه عقلٌ أعجمي.

«رأس الثقافة هو الدين، أو ما كان في معنى الدين»

محمود محمد شاكر

(١) في هذا يقول الشاعر اليمني عبد الله البردوني:

«تَرقَّى العارُ مِن بَيعٍ إلى بَيعٍ بلا ثمنِ ومِن مُستعمِرٍ غازٍ إلى مُستعمِرٍ وطني»

[ج]

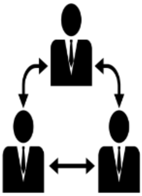

يدُ الله مع الجماعة

إذا جاز لنا أن نختزل الدَّلالات والمعاني التي يُومئ إليها حرف الجيم، فلن تكون إلّا حَثًّا على العمل الجماعي، وتَبنِّيا لروح الفريق، وتَحلِّيا بثقافة التعاون والاتحاد، وتأخيرًا لكلمة (أنا) التي هي الأكثر تردادا في كلِّ اللغات، مع تقديم كلمة (نحن) التي تصطبغ بها حياة جماعات المايا[1] ويَنطقونها (تِك).. إذْ يكفي كلمة (أنا) ذمًّا أنها وردت على لسان إبليس حين قال: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين»[2]، وعلى لسان فرعون الذي قال: «أنا ربكم الأعلى»[3]،

(١) جماعات المايا هي من أصول هندية سكنت منطقة أمريكا الوسطى وأقاموا حضارة عريقة امتدت ٣٠٠٠سنة، ويُشكِّلون السكان الأصليين لدول جواتيمالا وهندوراس والسلفادور وبليز وبعض الولايات المكسيكية الجنوبية الآن.

(٢) الأعراف: ١٢، ص ٧٦.

(٣) النازعات: ٢٤.

وعلى لسان النمرود الذي قال: «أنا أحيي وأميت»[١].

والواقع أنّ تلك الروح والثقافة؛ فِطْرية المَنشأ، وقديمة الممارَسة عبْر عصور الصيد والرعْي على يد إنسان الكهف، وعصْريّة التوجُّه في عالَم الصورة والمعلومة على يد إنسان الفضاء والحاسوب والجوّال. كما أنها كانتْ وستظلّ دوْما؛ الصمغ الذي يَلحُم الأفكار لبناء الحضارات، والخيْط الذي يَنظِم الجهود ويظفر بالأكاليل، والهُرمون الذي يُنمِّي تلّ العمَل فيُحيله إلى جبل عملاق، والعدسة اللامّة التي تُجمِّع الطاقات وتمضي بها إلى البؤرة لتُضيء وتحرِق، وهو ما صاغه الشاعر بقوله:

«أصابعُ اليد في العَدِّ خمسةٌ
لكنّها في مقبضِ السيفِ واحدُ»

وقد ذهب ألفريد آدلر -وهو ثالث الثلاثة الروّاد في مجال علم النفس الحديث إلى جانب فرويد ويونج- إلى أنَّ المعنى الحقيقي للحياة يكمن في التعاون مع الآخَرين، وارتأى أنَّ علم النّفس هو

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

العِلم الذي يبحث في كيفيّة معالجة أوجه القصور في ذلك التعاون. كما أشار قدِّيس الهند (غاندي)، إلى أنَّ الاتحاد هو أحد أبرز التحدّيات في العصر الحديث الذي يَموج بالتنوّع والاختلاف.

والحقّ أنّ تلك الروح والثقافة هي لسان حال الإسلام الحنيف، الذي دعا إلى وحدة الصفّ والتئام الشمل، وجمَع الناسَ على الكلمة السواء، وبَثَّها تنظيرا وتطبيقا في ثنايا الوحيَيْن الكريمَيْن؛ فكانت الصلاةُ في جماعة والصومُ في جماعة والحجُّ في جماعة، وكان الخطابُ القرآنيّ جماعيًّا: «واعتصِموا» «وتعاوَنوا» «ففِرّوا» «واتّقوا»، قبل أن يسدّد الحديثُ الشريف ويباركَ تلك الروح فيقول: «يدُ الله مع الجماعة»، ثمّ يرتقِي بها ويعبّر عنها بالجسديّة «مَثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كالجسد الواحد...»، وكأنَّ سلامَة المجتمعات وعافيتها مرهونة بصحّة(نحن) لا (أنا).

وفي هذا يَروِي التاريخُ أنّ التابعيّ الجليل (المهلَّب بن أبي صفرة) حين دنَتْ مَنيّتُه، جمع أولادَه لِيُسِرّ إليهم بدرْس الحياة مَغموسا بتجربته العريضة في قيادة الجيوش والولاية على خراسان، ومَشفوعا بما أُثر مِن أنَّ الأصوات التي تَنبعث مِن شَفا القبور تقول

الحقَّ دائما، فكان أن أمَر كلًّا منهم بإحضار رُمحِه، ثـمّ ضـمَّ الرّماحَ بعضها إلى بعض وأَمَرَ أقْواهُم بكسرِها مجتمِعة فامتنعَتْ، ثـمّ فرَّقَها وأمـر أضـعفَهم بكسـرها واحـدة تلـو الأخـرى فلانـتْ وطاعـتْ، ثـمّ صاغ وصيّته في مدْح الوَحدة[1] وذمّ الفُرقة شِعرا فقال:

«كُونــوا جميعــا يــابَنيَّ إذا اعْتــرَى
خَطْـــبٌ ولا تَتفرّقـــوا آحـــادا
تَـأبَى الرِّمــاحُ إذا اجــتمعْنَ تكسُّــرا
وإذا افتــرقْنَ تَكسَّــرتْ آحــادًا»

وهنا نتذكّر أنّه بعدما أَتتْ الحربُ العظمى الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م) على الوجود الياباني، فدمّرتْه عسكريّا وسياسيّا واقتصاديّا ومعنويّا، وخلَّفت في نفوسهم الشعور بالعجز والدونيّة، ما كان لأشدّ المتفائلين آنذاك أن يتنبّأ بعودتها إلى ركاب الزمن، ووقوفها على قدمين ثابتتيْن، خاصة مع جُغرافيّتها النحيلة ومواردها الناضبة

(١) فارق بين الوَحدة (بفتح الحاء) التي تعني الاجتماع والاتحاد، وبين الوِحدة (بكسر الحاء) التي تعني العزلة والانفراد.

وطبيعتها القاسية التي تنام على زلزال[١] وتَصحو على بركان، ولكنّ اليابانيِّين خيّبوا الظنون بضرْبهم أروع مثال على ما يمكن أن تفعله الروحُ الجماعيّة التي انتقمَتْ لهم مِن التاريخ على حدّ تعبير (إدوين أشاور)، وارتقَتْ بهم إلى مراتب العالَم الأوّل تكنولوجيّا واقتصاديّا، وولَّدت لديهم الشعور بالثقة والتميُّز، حتى أصبح الشعبُ الياباني هو أعلى شعوب العالَم ادّخارا، وأكبرها إقراضًا، وأكثرها تبرُّعًا لدول العالَم الخارجي، وحتى باتتْ بلاد الساموراي قادِرة تكنولوجيّا على دخول النادي النّووي ومُناطَحة القطب الأمريكي[٢]، وذلك في تطبيق عمليّ لنظرية التحدِّي والاستجابة التي فسَّر بها أرنولد توينبي نشوء الحضارات وبَعْثها وإقلاعها.

---

(١) للزلازل خطَ يحيط بالكرة الأرضية ويُسمّى حزام الزلازل؛ فيبدأ من شيلي مارّا بأمريكا الوسطى والبحر الكاريبي، ثمّ الجزائر وجنوب إيطاليا، ثمّ اليونان وشمال تركيا، لينتهي في الأرخبيل الياباني.

(٢) رغم أن عدد سكانها يقلّ عن ٤٪ من عدد سكان العالم، فإنها -أي أمريكا- تتربع على قمة الإنتاج العالمي بنسبة ٣٠٪ مِن إجمالي الناتج العالمي، وتليها الصين واليابان.

و يَبقى تَكتُّل ما يَزيد على نصف المليار نسمة، والذي جمع شتات ثمان وعشرين دولة، تَتحدّث أربعا وعشرين لغة، وتَدين بسِتّ ديانات، تحت شعار واحد هو (مُتَّحِدون في التنوُّع) وفي كيان واحد هو الاتحاد الأوروبي، مُعزِّزا للتوجُّه نحو العمل الجماعي، وضاربا المِثال على إمكانيّة التعاون المشترَك في أعلى مستوياته، وفاتحا الباب لإحياءً حُلم الملك شارلمان الذي فشل في تحقيقه مع مطلع القرن التاسع الميلادي، ومبرهِنا على أنَّ ذكاء الجماعة أشْمل مِن ذكاء الفرد ورأيها أنْجع مِن رأي الفذّ، أو كما قال العالِم الأمريكي وارن بينز: لا أحد أذْكى منّا جميعا.

وهو ماعَنتْه العربُ قديما حين قالت على لسان أُحيْحة بن الجلاح: «التّمْرةُ إلى التّمْرةِ تَمْرٌ»، وطبَّقه العلماءُ حديثا في إنجلترا حين تعاضَد العشراتُ منهم في إنجاز مشروع الجينات البشرية المعروف بالجينوم[1] والذي استغرق إنجازه ثلاثة عشر عاما (١٩٩٠-٢٠٠٣م)، وكذلك في أمريكا حين صرَّح العالِم أحمد

---

(١) الجينوم هو الحقيبة الوراثية الموجودة داخل نواة الخلية البشرية والمسئولة عن كل الصفات والخصائص الجسمية والنفسية.

زويل أنَّ أكثر مِن مائة وسبعين باحثا عملوا معه في أبحاث الليزر التي أَنجبتْ تقنية (الفيمتوثانية) واستحقَّ عليها جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩م، وقِس على ذلك في كلّ الابتكارات التي أثَّرت في تاريخ البشرية؛ حيث قَلَّ فيها ما تَحقَّق على يد فرد واحد، بينما كانت أغلبها نتاج عقول تكاتَفَت وأياد تعاضَدَت، فتضاعفَت معها قوّة العمل وزادَت بمتوالية هندسية (١،٢،٤،٨) لا حسابية (١،٢،٣،٤).

أضِف إلى ذلك ما قِيل إنَّ طيران الطّيور في أسراب يزيد مِن فعالية طيرانها بنسبة ٧٠٪ مقارنة بالطّيْر الذي يُحلِّق منعزلا، وكأنّ الطيرَ للطير كالبنيان يَشدّ بعضه بعضا. وغني عن القول أنّ الأنغام إذا تضافرت معا كوّنَت لحنا جميلا تَطرب له الأذن وتَسعد به النفس، أمّا إن صدرت بدون اتفاق وذهبت شذَر مذَر لم تكن إلّا ضوضاء يضجّ منها السمْع وتنفر منها النفس.

ولعلّنا جميعا اكتوينا -وما زلنا- بجمر «فَرِّقْ تَسُدْ»؛ ذلك المبدأُ الخبيث الذي خطَّه الأسدُ اللئيم في القصة الرمزيّة الشهيرة حيال الثيران الثلاثة؛ حين حرَّش بينهم وأَوْغر صدورَهم تجاه

بعضـهم، ثـمَّ الـتهم أبْيضَـهم وانتهـى بأسْـودِهم، ليفـوز في النهايـة بمـزرعتهم ويَتسيَّد ملْكَهـم .. ثـمّ كـان هـذا المبـدأ ومـازال، أحـد الأدوات الرئيسـة التي يتكـئ عليهـا كـلُّ مُستدْمِر ومُستخْرِب؛ فقـد بقيَت الخلافةُ العثمانيـة -علـى ضعفها- شـوكةً في حلـوق أعـدائها، ولـم تقـرّ لهـم عـيْن أو يغمـض لهـم جفْـن؛ إلّا بعـد أن باعَـدوا بـين أسفارها ومزّقوها شرَّ مُمَزَّق إلى ثلاثين دولة، ثـمَّ جعلوهـا أحاديـث وشرَعوا في قضـمها دويْلـة دويْلـة، كشـرائح لحْـم في فـم أسـد جـائع، أو قصاصات أوراق في قبضة إعصار جامح.

كما لم تكن بلاد الأَرز (لبنان) عُرضةً للتدخّلات الأجنبيّة وكلأً مباحـا للاجتياحـات الصـهيونية، إلّا بفضـل انقسـاماتها المُزمِنـة، وتَحزُّبها إلى طوائف متقاتِلة ومـذاهب متناحِرة، حتى باتـت الدولـةُ دويْلات عِدّة، وصار الوطن وَلاءات وانتماءات شَتّى. بـل إنّ فرنسـا لم ترحل عن فيتنام؛ إلّا بعد أن ثأرت لكرامتهـا وانتقمـت لهزيمتهـا، فشطرتْها إلـى فيتنـام شـمالية وأخرى جنوبيـة في عـام ١٩٥٤م. ولـم تضمن أمريكا وحلفاؤها تركيع ألمانيا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة؛ إلّا بعد شقِّها كثوبٍ بالٍ إلى ألمانيا غربية وأخرى شرقية.

والحقيقة أنَّ العمل الجماعي -الذي يتمّ فيه صهر مهاراتٍ وأفكارٍ مِن مجالات مختلفة، وجمْعها معًا؛ لابتكار شيءٍ جديد، وارتياد آفاقٍ ليس بمقدور شخصٍ وحده الوصول إليها- أصعب كثيرًا مِن العمل الفردي، إذْ يتطلَّب تحرُّكا منضبِطا كحركة الجيوش، وعملا منظَّما كخليّة النحل، وسيْرا دقيقا كعقارب الساعة؛ وذلك ليمنع خرْقا قد يُغرق السفينَ بما فيه، ويَجتنب خطَأً يَجني تبعاتِه الجميع.

ولهذا فإنّ العمل الجماعي في أمسّ الحاجة إلى قادةٍ مخلِصين لا يَدْفعون مِن الخلف بقدر ما يَتقدَّمون الصفوف، وإلى هدفٍ جامع مشترَك يُلبِّي الاحتياجات ويتناغم مع الآمال والطموحات، وإلى أعضاء على قلب رجلٍ واحد كالبنيان المرصوص يَشدّ بعضه أزْر بعض. وكذلك إلى بيئة عملٍ تتّسم بالمرونة[1] والديناميكية، ويَشيع فيها التعاطف، وتدعمها الحوافز، وتَدين بالعِرفان للجميع؛ فلا يَقطف القادةُ النجاح، ولا يُعزَى الإخفاق إلى فردٍ دون آخَر.

(١) تُعرَف المرونة بأنها القدرة على تغيير المسار، واعتناق أفكار جديدة، والاعتراف بالفشل، وتجربة أشياء أخرى.

بينما يُعِيقه ويَفتّ في عضده؛ غياب الهدف الذي يمكن أن تلتفّ حوله الجماعات والأُمم، فتضعه نصْب أعينها، ويَتبنّاه كلُّ فرد على أنَّه ابنه البِكر وحلمه الخاص الذي يكرِّس له جلَّ وقته وجهده وماله. كما يُعرقِله ويَدُقّ عنقَه؛ أمراضُ النفوس مِن حسدٍ وحقدٍ وكِبرٍ وأنانيةٍ وأَثرة، فتَحُول دون التئام الجهود المبذولة بِصبِّها في نهر العملِ وصهْرها في بوتقة الإنجاز. إضافةً إلى أنَّ غياب الشعوب عن مركز اتخاذ القرار وصياغة الأهداف، بحرمانها مِن الحقّ في التعبير والحرية في اتخاذ قراراتها المصيرية، يَجعل تلك القرارات والأهداف سُلطَويّة بارِدة باهِتة، فلا تلتهبْ لها حميّةُ الأفراد ولا تتلظّى لها أفئدتُها ولا تنتفض لها سواعدُها، فيصبح الفشلُ قابَ قوسيْن أو أدنى.

وقد حذَّر الكاتبُ أحمد حسن الزيات في كتابه (وحي الرسالة) مِن الفرديّة التي تؤسِّس للاستبداد والأنانية وتُعوِّق الضميرَ الاجتماعي، ودعا إلى الجماعيّة التي ترتقي بالمجتمع إلى أفق الإنسانية فقال: «الفرديّة تَعلو فتكون الاستبداد وتَسفل فتكون الأنانية، بينما الجماعية ترتفع فتكون الإنسانيّة وتنخفض فتكون العصبيّة، وبين الإنسانيّة **والعصبيّة** شعبا يعزّ وأمّة تَرقى وذِكْرا يَبقى

وأثَرا يَخلد، ولكن بين الاستبداد والأنانية تَحكُّم الهوى وشقاء العيْش وذُلّ الأبد».

وبناءً على ذلك، وفي ظل رياح العوْلمة التي تجتاحنا حتى لَتوشك أن تقتلعنا مِن جذورنا؛ سيبقى العملُ الجماعيّ هو الرائد والضامن للنجاح على مستوى المؤسّسات الصغيرة في رحاب الأسْرة وبيئة العمل وأرْوقة التعليم ومعامل الأبحاث، وعلى صعيد المؤسّسات الكبيرة التي تنتظِم دولا وشعوبا. وستظلّ روحُ الفريق هي الطريق الأقصر لزيادة الإنتاج ورفْع الإنتاجيّة(١)، بينما يَظلّ تهميش دور فرق الكشّافة والاتحادات الطلابيّة والنقابات المهنيّة والمؤسّسات الشعبيّة والجمعيات الخيريّة -باعتبارها نَوًى (جمع نَواة، والتي تُجمَع أيضا على نَوَيات) ومَحاضِن لتنمية ثقافة العمل الجماعي والتدريب على العمل بروح الفريق ومحاربة الأَثَرة والأنانية والغرور وتأصيل قيَم التعارف والأُلفة والإيثار- مُقوِّضا مِن فاعليّة العمل الجماعي، ومُفوِّتا على الدول التي تَنتهج تلك

---

(١) فارقٌ بين الإنتاج والإنتاجيّة؛ فالإنتاج مِقياس كَمّي، بينما الإنتاجيّة مقياس كيْفي يُؤشِّر على جوْدة العمل وكفاءة الإدارة؛ وذلك حين تقلّ المُدْخَلات وتزيد المُخْرَجات.

الممارسات فرص التقدّم والنجاح التي رسَم مسارَها الاقتصاديُّ البارز وأبو السيارات (هنري فورد) حين قال: «الاجتماع معا هو البداية، والبقاء معا هو التقدّم، والعمل معا هو النجاح».

خلاصة القول ... إذا كان الموت مع الجماعة رحمة كما يقول المثَل، فإنّ في الحياة مع الجماعة والعمل معها، رحمات وبركات. ولعلّ أقرب وأوضح مثال على ذلك، يكمن في أعضاء الجسم التي تتناغم فيما بينها وتتآزر ليؤدّي البدنُ دوره في الحياة بمهارة واقتدار؛ حيث يُصدر الدماغ الأوامر بعد أن يتلقّى الإشارات من الحواس الخمس، فتستجيب العضلات بمساعدة الدماء التي يضخّها القلب، وفي حضور الأوكسجين الذي تجلبه الرئتان من الهواء، وبدعم من الجلوكوز الذي يطلقه الكبد من عقاله، لتقوم الكليتان في نهاية المطاف بطرح النفايات السائلة عبر البول، تاركة باقي النفايات للقولون الذي يكنسها على هيئة غائط.

«إذا اجتمع النّملُ انتصَر على السَّبْع»

مَثل

[ح]

فِقه الحُبّ

انحاز الشاعرُ السوريّ رشيد الخوري -الذي عُمِّر قرنا مِن الزمان ولَقّب نفسَه بالشاعر القرويّ- لحرف الحاء حين قال: «الحاءُ تكاد تَحتكر أشرفَ المعاني وأقواها: حُبّ، حقّ، حريّة، حياة، حكمة، حزم. ثمّ ارتأى أنّه لهذه المَزِيَّة، ولامتناعه أو مشقّته دون سائر الحروف الحَلْقِيّة على حناجر الأعاجم، هو الأَوْلى بأن تُنسَب إليه لغتُنا العربية، فنقول لغة الحاء، بدلا من قولنا لغة الضّاد»!

وإذا كان الشاعر القرويّ قد أوْغل في أطروحته بخصوص لغة الحاء، فإنّه قد سدّد وقارَب في تتْويجه للحُبّ مَلِكا على عرْش حرف الحاء؛ ذلك الحُبّ الذي وصَفه الأصمعيّ بأنّه نورٌ ساطعٌ يَستضيء به العقل وتهتزّ لإشراقه القلوب، وقال عنه سوفوكليس أنَّه يُحرِّرنا مِن أثقال وألم الحياة، واتّخذه الصوفيّ (ابن عربي) دِينا فقال:

«أَدِين بدِين الحُبّ أنَّى توجّهَتْ
ركائبُه فالحُبُّ دِيني وإيماني»

بينما عرّفه الدكاترة زكي مبارك بأنَّه ائتلاف روحيْن وامتزاج قلبيْن وانسجام نفسيْن، وابتدع له الكاتب يوسف زيدان فِقْها ونعَته بأنّه أوّل درجات الإدراك وآخِر أطوار المعرفة وأنَّه تذكير للنّاسي بأنّه إنسان، كما أَسْهبَ في تناوُله النّاثرون والنّاظمون عبر عشرات المؤلَّفات؛ فقنّنوا له جرعات كالدواء وقواعدَ كالنّحو وكيمياءَ كالعلوم وأسرارَ كالأحاجيّ والألغاز، وذلك قبْل أن يأتي أستاذُ الطب النفسي (عادل صادق) فيقْلب الطاولةَ ويغلق القوس بقوله: «أتصوّر أنَّ الحُبّ ليس بحاجة إلى أن نكتب عنه، بل إنّ الكتابة عنه تنال مِن قُدْسيته».

على أنّ عُمدة ما كُتِب، هو ما سطَّره إمامُ الأندلس وصاحبُ المذهب الظاهريّ في القرن الخامس الهجري (ابن حزم)، عبْر كتابه الماتع (طوْق الحمامة)؛ والذي جاء في ثلاثين بابا ضمَّنَها ماهية الحبّ وعلاماته وضُروبه، وختَمه بالنّهي عن المقابح والحضّ على الفضائل، بعد أن افْتتَحه بقوله: «الحُبَّ ليس بمُنكَر في الديانة ولا بمَحظور في الشريعة، وهو اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة، على قاعدة أنّ المِثل لمِثله ساكن وأنَّ الشبيه للشبيه مُؤتَلِف»؛ ولعلّ في هذا ذَرًّا للرماد في أعْين مَن يُسَفِّهون ويُفسِّقون مَن يكتب في

الحبّ، ورفْعا للستار عمَّن يُسِرُّون بالحديث عنه مِن وراء حُجُب زائفة مِن الخجل والحياء، ودعْما لمَن يَنشدونه مُؤَطَّرا بشرْع الله لا بشرْع (أبي نُوَاس) ومَحكوما بمذْهب (ابن حزم) لا مذْهب (ابن أبي ربيعة)[(١)].

والحديث هنا عن الحبّ ليس حديثا هزيلا ضامِرا عن غرام شابّ وفتاة، ولا حديثا ساقطا مُبتَذَلا حول نزوة أبدان، ولا حديثا شهوانيّا غرائزيّا يُدغْدِغ العاطفةَ ويَحرق الفؤاد؛ ولكنّه حديثٌ عقلانيّ سامٍ؛ عن حبّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الذي فطر الخلْق ورزَقهم، وعن حبّ الأمومة بفيضها الدافق، وعن حبّ الأُبوّة غير المشروط، وعن حبّ الأُخوّة التي تستظلّ بعرش الرحمن، وعن حبّ الصداقة حين تسكب في الروح الفرح، وعن حبّ الذات حين تَنطلِق مِن الواحِديّة والأنانيّة إلى التّعدّدية والتّشارُكِيّة، وعن حبّ الزواج الذي يُلملِم جُلَّ تيك المعاني، وعن حبّ الوطن الذي افْترشْنا أرضَه والْتحفْنا سماءَه، وعن حبّ العِلم الذي يرفع أقواما ويضع آخَرين، وعن حبّ البطولة التي تَذود عن الحياض وتَحفظ الأمجاد، وعن

(١) عُرف عمر بن أبي ربيعة بأنه شاعر النساء، ورُوِي أنَّ الخليفة سليمان بن عبد الملك قال له يوما: ما يمنعك أن تمدحنا؟ فقال: إني لا أمدح الرجال.

حبّ الطبيعة التي هي كتاب الله المنظور، وكذلك عن حبّ إخوتنا في الآدمية وشركائنا في الإنسانيّة من البشر كافّة...

ولهواة الاختصار؛ هو حديث عن شعور[١] يُشكِّل أساسا متينا لأحاسيس أخرى عديدة، وعن قانونٍ طبيعي يَفوق في قوّته قانون الجاذبيّة الأرضيّة، ويَتفوق في تأثيره على أَنْفَس هديّة، هذا إذا غلّفنا به أفكارَنا ومشاعرَنا وكلماتِنا وأفعالَنا. بما يعني أنه ليس محْض عاطفة مجرَّدة؛ بل نهرٌ عذْب من المشاعر الفيّاضة الجيّاشة، وأرضٌ مترامية من الأقوال الحانية الدافئة، وسماءٌ فسيحة من السلوكيّات الجميلة والأفعال الراقية. ولا مبالغة البتّة إذا قلنا أنَّ الحُبَّ للإنسان كالحَبّ للطيْر؛ عليه يَقتات فيحْيا، وبه يَستنْبت جناحيْن فيُحلِّق حُرًّا ويُرفْرِف مغتبِطا. وهو ما يَنسحب على الأُسرة المُتآلِفة المُتحابّة؛ التي تصبح شجرة جميز تعمّر طويلا، وسنديانة سامقة لا تهزّها العواصف، وعصا من خشب الزيتون لا يَقربها السُّوس ولا تأكلها دابّة الأرض.

(١) قِيل إنَّ أعظم شعوريْن هما الحُبّ والخوف، ومنهما تتولّد باقي المشاعِر والأحاسيس.

وقد عبّر الصوفيّ جلال الدين الرومي عن قيمة الحبّ وأثره في الحياة فقال: «الحُب يُحوِّل المُرّ حلوا والترابَ تِبرا والكدر صفاء والألم شفاء والسجن روضة والسّقم نعمة والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد ويذيب الحجَر ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة». بنما وضعه الإمام جعفر الصادق مرادفا للدِّين بقوله: وما الدِّين سوى الحبّ. وفيه أيضا قِيل: لو ساد الحبُّ ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون.

وإذا كان الحُبّ طاقة الحياة[1] ووقود الخيال وعمود خيمة الأحلام على المستوى الفردي، فإنَّ ضمورَ بساط الحبّ وتَرامِي صحراء الأنانية هو أخْطر ما يواجِه أيّ مجتمع ويُعجِّل بفنائه، إذْ يندر ساعتها مَن يَربِت على كتف الضعيف، ومَن يَمسح على رأس اليتيم، ومَن يَأخذ بيد العاجز، ومَن يَنفث الأملَ في روْع اليائس، ومَن يَشدّ أزْرَ المظلوم، ومَن يُواسي المكلوم...علاوة على ما يَجرّه غياب الحبّ مِن ويْلات قال عنها الشاعر[2]:

---

(١) «مادام لي مَن يُحبني فأنا غنيّ، وما دام لي مَن أحبّهم فأنا أَغْنَى وأَغْنَى» ميخائيل نعيمة.

(٢) الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي.

«يـــا ويلـــه مَـــن لا يُحِـــبّ
كـلّ الزمـانِ حـول قلبـه شـتاء»

ولأنه لا يُشترى بمال ولا يُسَنّ بقانون ولا يُفرَض بسلطان؛ فلا عجَب أن نُقلّب اليوْم أبصارَنا يَمْنةً ويَسْرة، فنرى شمسَ الحبّ الحقيقي في كسوف، ونرى قمَرَه قد لحق به الخسوف وغُصنَه قد اعتراه الذّبول؛ إذْ إنّ طائرَ الحُبّ نفيسٌ وعزيز، ولا يَهبط إلّا على نفْس شفّافة بلا غَبَش ومرآة نقيّة مِن الدنَس، تَشعر بجمال الصورة فتُحِبّ، وتَطرَب لبريق المعنى وعميق الجوهر فتُحِبّ، ثمّ تفيض على مَن حولها فتُحِبّ وتُحَبّ، بمعنى أنّ الحُبّ نشاط تَفاعُليّ إيجابيّ؛ صاغه (أريك فروم) في قالب الفنّ وأَوجَبَ تعليمه كما نتعلّم فنّ الهندسة والطبّ والرّسم والنِّجارة، بينما أَنْبتَ له (جاري تشابمان) أجنحةً خمسا سمَّاها لغات تتكلّم باسمه وتعبر عنه وهي؛ الثّناء والهديّة والخِدمة وتكريس الوقت والاتّصال البدنيّ.

وهنا يَصعب أن يَمُرّ الحديثُ عن الحُبّ ولا يلمع في الذاكرة؛ ملحمة الحُبّ الأنصاريّ المهاجريّ، التي ارتقت إلى درجة الإيثار؛ حين تَشارَكوا الإيمان، وتَقاسَموا الأمانَ والمالَ والعقارَ! وقصّة عبد

الحميد الكاتب مع صديقه ابن المقفّع، حين فاجأهما رسولٌ مِن قِبَل الخليفة العباسي، يسأل فيه عن (الكاتب)، للبطْش به على خلفيّة كوْنه أحد رجالات الدولة الأمويّة الغابرة، فابْتدَره ابنُ المقفّع قائلا: أنا الكاتب؛ دفْعا للأذى عن صديقه ومحبوبه! وحكاية المرأة التي أوْردها ابنُ حزم، حين باتتْ مع زوجها في دثار واحد ليلة موته؛ لتُداوي بِوَصْلِه حُزنَها وأَسَفَها! وتلك اللفتة الآسِرة مِن خيْر الخلْق -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ حين أَعلَن على الملأ، أنّ زوجَه أمّ المؤمنين عائشة هي أحبّ النّاس إليه، بعدما أَسَرَّ إليها أنّ حُبَّها كعقدة الحبْل لا ينفكّ!

كما وجَب التنويه بأنَّ ثلاثة أرباع الحبّ في البوْح به والتعبير عنه؛ إذْ هو نعمة وجَب التحدُّث بها «وأَمَّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ»، وبُشرى يُسَنُّ الإخبار عنها «إذا أَحبَّ أحدُكم أخاه في الله فلْيُعْلِمه، فإنّه أَبقى في الأُلفة، وأَثْبتُ في المَودَّة»، فمِن تمام الحُبّ أنْ نُفضي إلى اللهَ بحبّنا فنُطيعه وندعوه، ونُخبر ذاتَنا فنتحرَّى كمالَها، ونُعلم آباءَنا وأمّهاتِنا فتقرّ أعينُهم، ونُبلغ أبناءَنا فنزرع الثّقة والأمان فيهم، ونُطلع زوجاتِنا فتنشرح صدورُهنّ..

وهذا ما أكّده الكاتب الأمريكي جريجوري جوديك حين قال: «أعتقد أنَّ التعبيرَ عن الحُبّ هو هدفنا ككائناتٍ حيّة، وأنَّ أيَّ شيء يُساعد على تحقيق ذلك هو شيء جيّد»، وكذلك روبين شارما في كتابه (دليل العظمة) حيث قال: «لو لم يبق لك في الحياة إلّا ٣٠ دقيقة فقط، لأسرعتَ إلى هاتفك لتخبر أقرب الناس إلى قلبك بمقدار حبك له، ثمّ لأسرعتَ إلى بيتك، حاملا قلبك في يدك وحدثتهم بكلّ صدق عمّا تشعر به من حبّ تجاههم»....هذا إذا تجاوزْنا نصيحة ابن الجوزي بإظهار بعض الحبّ لا كلّه، حتى لا يَشتطّ علينا المحبوب بحُكم الطبيعة البشرية، فنُعاني أذى التّجَنِّي وألم الهجران!

ومِن عجائب الحُبِّ؛ أنّ مفعولَه يتخطَّى نفوسَ البشر، فيمتدّ تأثيرُه ومداه إلى عوالِم الحيوان والنّبات وحتى الجماد! فالنبات يحبّ الأرض ولا ينفكّ عن حضنها، والأرض تعشق الشمس وتدور في فلكها، والسمك يهيم بالبحر ويهلك بالبعد عنه، بل إن ذوات المخالب والأنياب من الكواسر تبدي نحو صغارها من

أواصر الحبّ ما تشيب له الرؤوس الصُّلع ويطرب له الجنين في بطن الأمّ. وضمن هذا الإطار سطّر العِلم التجريبي حضوره، فسجَّله الباحثُ الياباني مازارو آماتوا، حين رصَد بالمِجْهر التغيّرات الإيجابيّة التي أحْدثَتْها طاقةُ الحُبّ في بنية ذرّات الماء، فكانت أشكالا هندسيّة بديعة، وكأنّها تَرُدّ على الحُبّ بالجمال وتُجيب على الكلمة الحانية بفعل بهيج وتُرسل للتحيّة تحيّةً أحْسنَ مِنها!

أمّا أعجب ما قِيل في الحُبّ فهي تلك المشابهة التي ابتدعها الكاتبُ أدهم الشرقاوي بين الحُبّ والحَرب حين قال: «العلاقة بين الحُبّ والحَرب أقرب إلى تشابه الحتوف منها إلى تشابه الحروف، فكلاهما -أي الحُبّ والحرب- يَجعلك تقف في المنتصف بين الحياة والموت، وكلاهما لا يَقبل في صفوفه غير القلوب الجريئة، وكلاهما يَقلب الحياةَ رأسا على عقب».

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أنَّ المرادف الحقيقي للسعادة التي يَتغيَّاها العباد في الدّاريْن، هو الحُبّ، وذلك حسبما جاء في استطلاع للرأي شارك فيه نحو عشرون ألف شخص، حول معنى السعادة، إذْ

كان الحُبّ هو الإجابة الأكثر حضورًا والأعلى ضجيجًا بين إجابات أخرى عديدة، كالرضا والصحّة والزواج والمال والسفر.

مـــا العــــيْش إلّا أَن تُحِـــــبّ
وأنْ يُحِبّـــــك مَـــــنْ تُحِـــــبّ

المـؤلِّف

[خ]

خطِّط واستعِدّ

جاء على لسان قلم جبران خليل جبران قوله: «لكي تفهم قلب الشخص وعقله؛ لا تنظر إلى ما أنجزَه بالفعل، ولكن انظر إلى ما يطمح إلى إنجازه»، بما يعني أنّ النظرة المستقبلية هي المقياس الذي نقيس به الرجال والمكيال الذي نزنهم به. ومع أنّ هذا المستقبل يرقد في كنف الغيب ولا يحيط به إلّا العليم الخبير(١)، إلّا أنّنا عاكفون في هذه اللحظة على غزْل نسيجه وحياكة ثوبه من فوق ماكينة الحاضر، وعبر قماش الإعداد وخيوط الاستعداد وأصواف التخطيط، لا مِن قَبيل الافتئات على الأقدار ذات السيف الباتر والسهم النافذ، ولكن مِن قَبيل الأخْذ بالأسباب قبل السعْي في الدّروب والفِجاج، وعلى سبيل الاقتداء بمنقذ مصر نبيّ الله

(١) ﴿إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير﴾ [لقمان: ٣٤].

يوسف -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-(١)، وامتثالا لقول التبريزي في ديوانه الحماسة:

«قدِّر لرجلِك قبل الخطْو موضعَها
فمَـن عـلا زلَقـا عـن غِـرّة زلَجـا»

والتخطيط حالةٌ واعيةٌ نرسم فيها المستقبل بالشكل والإطار الذي نريده، ومرحلة إبداعية نتنبّأ فيها بالغد ونضع التدابير اللازمة للسيطرة عليه وقيادة زمامه، مع أخْذ جميع المتغيّرات في الحسبان. وهو مهارة الجادّين الذين لا ينفقون أوقاتهم في أمنيات كسيحة ولا يبدّدون طاقاتهم في أحلام اليقظة ولا يُسقطون العثرات على الزمان والظروف والناس؛ بل يؤمنون بأنّ الاستعداد يوقظ الحواس ويحفّز المَلَكات ويُطلعنا على ما نمتلكه من إمكانات وقدرات. وهو سمْت الناجحين الذين يوقنون بأنّ التخطيط يُجلِّي الأهداف، ويهزم المفاجآت، ويُجنّبنا العثرات، ويقينا التسويف. وهو أيضا ديْدن القادة الذين يعتقدون أنّ الفشل الذريع في التخطيط لا يعني سوى التخطيط المحكَم للفشل..

(١) انظر سورة يوسف الآيات ٤٩،٤٨،٤٧.

وهو ما نبّه إليه الفيلسوف الإيطالي ميكيافيللي بقوله: «حيث تكون الاستعدادات كبيرة، لا تكون الصعوبات كبيرة» وأكّد عليه عبد الله الغذّامي قائلا: «كلّ ساعة تُقضَى في التخطيط الجيّد توفّر ثلاث أو أربع ساعات عند التنفيذ»، وأرشد إليه الحبيب -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين أجاب السائلَ عن زمان الساعة، بقوله: «ماذا أعددتَ لها؟».

وفي إشارة إلى أهمية الاستعداد قبل المواجهة والتخطيط قبل التنفيذ؛ سرد محمد علي كلاي بدايته مع الملاكمة ودافعه إلى تعلُّم فنونها، فعاد بنا إلى سنّ الثانية عشرة، عندما ذهب برفقة أصدقائه لمشاهدة مسابقة للكلاب، وبعد دخوله القاعة واستمتاعه بالعرض وأكْله الفشار المجاني، إذْ به يُفجَع بسرقة دراجته التي تركها خارج القاعة، وعندها ذهب إلى مقرّ الشرطة وقال للشرطي بغضب: «سأنهال بالضرب على من سرق دراجتي مهما كان هو»، وإذْ بالشرطي يَهبه نصيحة العُمر قائلا: «عليك أنّ تتعلّم القتال قبل أن تفكّر بالضرب».. وكأنّه ينطق بلسان المثل القائل: «لا تَطِر قبل أن ترتاش». كما جاء في سيرة تشي جيفارا؛ أنه دُعي بوصفه ثوريا إلى النزول للشارع والمشاركة في إحدى المظاهرات السياسية، فردّ

قائلا: «نخرج إلى الشارع لنمكّن رجال الشرطة من ضربنا بهراواتهم، دون أن نفعل شيئا! أجل أتظاهر ولكن عندما تكون في يدي بندقيّة». ولعلّنا نذكر جنرال الحرب العالمية وقائد بريطانيا الأشهر (تشرشل)، حين كان يجلس منتفخا على مائدة الحرب مؤكّدا أنه يملك خططا بديلة بجانب خطّة الحرب الرئيسية. وكم من مواقف تاريخية مشهورة سطّرها أصحابُها تحت شعار: «كن مستعدّا وامضِ قدُما»، وكم من معارك حربية كانت الغلبة فيها للأحْكم تخطيطا والأشدّ استعدادا لا الأكثر عدّة وعتادا.

والخُطّة لَبِنة ذهبيّة ماؤها الوقت والمال، وترابها الموهبة والخبرة والجهد، نتوسّط بها المسافة بين الرغبة والتطبيق، ونردم بها الهوّة بين ما نحن فيه وما نطمح إليه، ونشيّد بها جدارنا الداخلي بجوانبه الروحية والفكرية والبدنية، فضلا عن الجدار الخارجي بجناحيْه الاجتماعي والاقتصادي. ومنها ما هو قصير المدى يضيء طريقنا لشهور، ومنها ما هو متوسّط المدى تمتدّ خطوته لسنوات، ومنها ما هو استراتيجي بعيد المدى يحلّق بنا على مدار عقود. ويُراعَى في أيٍّ منها الواقعيّة والمرونة والوضوح والاتزان، وبالطبع

لابـدّ أن تتجـه نحـو هـدف يحمـل صـفات الـذكاء مـن حيـث النبـل والأهمية والمنطقيّة والتحديـد وقابليـة القيـاس والخضـوع لسـلطان الزمن وإشعال جذوة التحدِّي، وتجاه رسالة سـامية تهـدف إلـى خيـر النفس والناس على مراد ربّ الناس.

ويـا حبّـذا لـو كانـت خططنـا مكتوبـةً ومعلّقـةً في متنـاوَل العـين ومرماها؛ على اعتبار أنّ البعيد عن العين بعيد عن البال، وبالنظر إلى الضوضـاء والتشـويش الـذي يلفّنـا إلـى حـدّ تتـداخل فيـه الأصـوات وتتـوه المشـاهد ويضـمحل التركيـز، عـلاوة علـى أن كتابتَهـا بمثابـة تعاقد معنوي وإثبات للجديّة مع النفس.

والواقع أنّ الخُطةَ ضرورةٌ ملحّةٌ تمليها ظروف الحياة التي باتت معقَّـدة ومتشـابكة حتـى عجّـت بالـدوائر والمربّعـات والمثلثـات وكادت تخلو من الخطوط المستقيمة، ويفرضها إيقاع العصر الـذي صار سريع الخطى حار الأنفاس حتى بدى وكأنه يقف علـى صـفيح ساخن أو في فوهـة قِـدر يغلـي. وهـذه الضـرورة والفرضـية تنسـحب على الأفراد في قمّة هرم المجتمع أو سـفحه، وعلـى المجتمعـات في الريـف أو الحضـر، وعلـى الأمـم في الشـرق أو الغـرب. بـل وتصـبح

قلب الحياة وروحها في حقّ هؤلاء الذين يُمنّون أنفسهم بصناعة لحظات فارقة وترك بصمات مؤثرة..

وهذا ما أشارت إليه مصفوفة أيزنهاور لإدارة المهام، التي ابتدعها الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور (١٨٩٠-١٩٦٩م)؛ فأَسَرَّت إلى المربع الثاني فيها بسرّ النجاح، ولقّبته بمربّع المستقبل، وأوْكلت إليه المهام المهمّة وغير العاجلة، ونصحت فيه بالتخطيط والبحث عن أمثل الطرق للإنجاز وتحقيق الأهداف. بينما كان المربع الثالث مربّعا للزيف والخداع إذْ ينشغل بأمور عاجلة وغير مهمة، والمربع الرابع مربّعا للتيه والضياع إذْ ينشغل بأمور غير عاجلة وغير مهمّة، علاوة على المربّع الأول الذي يقتصر على إنجاز المهام العاجلة والمهمّة ويُعرف بمربّع الطوارئ والأزمات.

وقد حكت الأساطير عن مدينة عانت من ظلم الحكّام واكْتوت باستبداد الملوك؛ فاشترطَت في دستورها أن يكون حاكمها غريبا عن المدينة، ولا يمكث على العرش إلّا لعام واحد، يذهب بعده للعيش في جزيرة معزولة نائية طيلة عمره. وفي أحد الأعوام تولّى المُلكَ شابٌّ نابه، وما إنْ تَسلّم الحكمَ حتى تسلّل خفية إلى الجزيرة التي أُعدّت لسكْناه، وهناك هاله ما رأى من غابات تسكنها الضواري من

الحيوانات وما خيّم عليها مِن وحشة تفرّ لهولها الوحوش، كما انقبض قلبه حين تعثّر أثناء تجواله في جماجم وعظام مَن سبقه مِن الملوك، وهو ما دفعه خلال فترة حكمه لإرسال العمّال سِرًّا إلى الجزيرة؛ وأمرهم بقطع الغابات وزرع البساتين وتشييد القصور وتمهيد الطريق. وما إن انتهى العام وحان الرحيل حتى لبس الديباج وطاف بالمدينة وسط موكب من الأفيال، وذلك على عادة سابقيه مِن الحكّام، إلّا أنّ السكان لاحظوه ضاحك المُحيّا مستبشِر الفؤاد مبتهِج النفس، وذلك بخلاف سلفه الذين خيّمت عليهم سحائبُ الحزن وأمطرتْهم غيومُ الكآبة في ذات الموقف.. وهو ما فسّروه لاحقا حين تبيّن لهم أنّ هذا الشاب كان من النباهة بحيث لم ينشغل بحاضره عن مستقبله، ومِن الحصافة بحيث خطّط في عام ما يكفل له النعيم فيما بقي مِن أعوام.

«التخطيط: نشاط يساعدك لتصبح الشخص الذي تتمناه»

بيتر دراكر

[د]

الدِّين والحياة

لَمْ تنشطر البشَريّةُ حول فكرةٍ أكثر مِن انشطارها وتَشَظِّيها حول الدِّين والمعتقَد، سواءً مِن حيث اختيار نوع الدِّين ابتداءً أو مِن جهة تطبيقه في ميدان الواقع، حتى بدتْ خارطةُ العالم الدِّينيّة أشبه بمهرجانٍ تتشارك فيه أربعةُ آلاف ومائتا ديانة، عَمِي أغلبُها عن نور السماء وانتمى جلُّها –للأسف الشديد– إلى وحْل الأرض بما عليها مِن شجَرٍ وحجَرٍ وحيوانٍ وبشَر، حتى إنَّ بعضًا مِن المُعجَبين بلاعب الكريكيت الهندي الشهير (ساتشين تيندوكار) قد بنوا معبدًا لعبادته!!

ورغم محاولات الحَداثِيِّين في قطار العوْلمة لجعْل الدّين مجرّد ظاهرة اجتماعية أو جزءا مِن التاريخ الإنسانيّ لا غيْر، فإنَّ البشريّة لم تتّفق على شيء قدْر اتّفاقها على أهميّة الدِّين ومرْكَزِيّته في الوجود، واقْرأ في ذلك ما قاله المؤرِّخ الإغريقي بلوتارك: «لقد وجدتُ في التاريخ مُدنا بلا حصون، ومدنا بلا قصور، ومدنا بلا مدارس، ولكني لم أجد مدنا بلا معابد»..

ولهذا ذهب بعضُ دارسي الإنسانيات؛ إلى أنَّ الدين هو الركن الأبرز ضمن ثالوث الحضارة المُكوَّن مِن الدِّين والاستقرار والنِّتاج المادي، وأنّ الأُمّةَ الوثنيةَ التي تفتقر إلى الدِّين لا تُقيم حضارة مهما بلغ استقرارها وإنتاجها المادي، بل هي أُمّة متمدِّنة لا مُتحضِّرة. بينما زاد آخَرون[١] فأَقَرّوا بأنَّ الدينَ كان دوْما هو القادح لشرارة التطوّر الأُولَى في مسيرة الأُمم الصاعدة، وذلك قبل أن تأتي السياسةُ الرشيدة والاقتصادُ الزاهر ليُكْملا الشّوط ويُتوِّجا الصعود. وهو ما يُخوِّل للبعضِ تعريف الإنسان بأنّه كائنٌ متديِّن، ويُفسّر تَذيّل المَلاحدة[٢] اللادِينيِّين أو اللاأدْرِيِّين قائمة التصنيف الدِّيني، ويُعلّل البحثَ الدائبَ للبشر عن الدّين في ثنايا الكون وجنَبات الطبيعة، حتى بلغ بهم الشّططُ حدَّ اختراعِ دياناتٍ وابتكارِ آلهة. كما يسوّغ

(١) منهم محمد الأحمري في كتابه (ملامح المستقبل)، وكذلك أحمد خيري العمري الذي قال في كتابه (كيمياء الصلاة) بأن التجديد الذي أَحدثَه مارتن لوثر في المفاهيم الدينية الغربية لعب دورا أساسيا في قدح شرارة نهضتها، وذلك قبل أن يمدّ الاقتصادي والسياسي يديْهما فيكملان المعادلة النهضوية.

(٢) بل إنَّ هناك مَن يقول بأنَّ الإلحادَ نفسه دين ولكنه فاسد، ومُعتقَد ولكنه باطِل، وعبادة ولكنْ للعقل والهوى.

ذلك أيضا؛ كوْن الكتاب المقدَّس (الإنجيل) باكورةَ ثمرات المطابع قبْل خمسة قرون على يد الألماني جُوتنبرج.

ولتلك الأهمية القصوى والحضور البارز للدِّين، وبعد استقراء صفحات التاريخ؛ نرى أنَّ صراعات البشر لمْ تبلغ أقصى حدّتها وقمّة عدوانيّتها وسَوْرة دمَويّتها، إلّا عندما اصطبغَتْ بالصبغة الدِّينيّة وأصبح الدِّينُ هو مَن يقود المعركة، بعدما تقدّمَ رجالاتُه للقبْض على زمام المَيْمنة والمَيْسرة، وتَعلَّق النَّصر والهزيمة بالوجود أو الفناء على غرار المعادلات الصِّفرية، وارتكازا على أنَّ الذَّوْدَ عن حياض الدِّين يتقدّم على الدفاع عن النفس في سلَّم التصنيفات الدفاعيّة، وهو ما دَفع باتجاه تبنِّي أطروحات حوار الأديان على أمل التّخفيف مِن تلك التوتّرات والصراعات الدّامية التي يكتوي ببعض نِيرِها أبرياءٌ ليس لهم في المعركة قوْسٌ ولا نَبْل.

والدِّين في الاصطلاح العام هو ما يَعتنقه الإنسانُ ويَعتقِده ويَدين به مِن أمور الغيْب والشّهادة، فيَسكب به الأمانَ في نفسِه القَلِقة المُضطربة، ويُواجه به الأخطارَ والمُلمّات، ويَستعين به في قضاء الحاجات وتحقيق الأمنيات، كما يَتخذّ منه مرجعا فكريًّا أمينًا

يُجيبه على تساؤلاته الكُبرى المشروعة حول الخَلْق والمآل، ويَصوغ مِن تعاليمه قوانينَ وأحكام تضبط إيقاعَ الحياة، فيَتبيّن ما له مِن حقوق وما عليه مِن واجبات، ويُشيِّد في أعماقه نظامًا داخليًّا يهذِّب سلوكَه ويقوِّم إراداته.

والإسلام[١] هو الدّين الحقّ الذي نسَخ اللهُ به ما قبله، وارْتضاه مِن بين الملل الستّ التي عدَّدتها آيةُ سورة الحجّ: ﴿إنَّ الذين ءامنوا والذين هادوا والصَّبئين والنَّصرى والمجوس والذين أشركوا﴾؛ فكان تسليما لله، وانقيادا للبرنامج الإلهي المتكامِل المُتَلَقَّى عن طريق الوحي، والموضوع وفْقا لمُتطلَّبات الحياة الإنسانية الفرديّة والاجتماعيّة. أو هو كما وصفه الشيخ البوطي: «إيمانٌ ينغرس في القلب يقينا واعتقادا، وإسلامٌ يَسكن الجسد سكونا وحركة، وإحسانٌ يَصل بين

(١) الإسلام هو دين كلّ الأنبياء والمرسلين من لدن آدم -عَلَيهِالسَّلَامُ- إلى خاتم الرسل والأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام «**إن الدينَ عند الله الإسلام**»؛ إذْ لم تكن محور دعوتهم إلّا الدعوة للإسلام وإخلاص العبادة لله، أمّا الشرائع فهي التي اختلفَتْ باختلاف الزمان والمكان، وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم: «**الأنبياء أولاد عَلّات**»، وجاء في كتاب الله الكريم: «لِكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومِنهاجا» المائدة ٤٨.

القلب المؤمن والجسد المسلِم». وهو بألوهيّة مصدره وكَمال محتواه وشمول مَبناه؛ الأَنْسب لمواءمة الفطرة، والأَقْدر على مدّ العقل بالإجابات الشافية، والأَسْمى في بناء الضمير وتقعيد الأخلاق، والأَكْفأ في توفير مظلّة الأمْن والسّكينة، والأَسْبق في احتواء الآخَر، والأحكَم في الموازنة بين الروح والمادّة، والأَصلح لكلّ زمان ومكان .. ولذا كان صَوْنُه والحفاظُ عليه؛ هو مقصد المقاصد، وأوَّل الضروريات.

وبهذا نَخلُص إلى أنّ الدِّين لم يكن يومًا أفيونًا للشعوب، ولا قاعدةَ المجتمع العامّة للتعزية والمواساة والتبرير على حدّ تعبير المأفون كارل ماركس وأستاذه فيورباخ .. بل هو روح الثورة وجذوتها كما قال الرئيس البوسني علي عزت بيجوفيتش(١)، وهو خيارٌ عقلانيّ ومنطقيّ قبل أن يكون نزعةً روحانيةً ووجهةً عاطفيّة.

ولم يكن أيضًا مجرّد بوابة عبور للحياة الأخرويّة السعيدة .. بل هو الوجود ذاته، والحياة بعينها، والولادة الثانية على حدّ تعبير الرّافعي، وعمود خيمة الحضارات التي قال عنها توينبي أنها تَسقط

(١) يقول بيجوفيتش: «المجتمع العاجز عن التديُّن هو مجتمع عاجز عن الثورة».

في اللحظة التي تكون فيها قوّة الإنسان أشدّ من قوّة الدّين. وهو كذلك المُرتكَز الأساسي في تأسيس أقوى الروابط بين الأفراد(١) وتأصير اللُّحمة داخل المجتمعات وتحقيق الوحدة بيْن الأمَم، وبعده تأتي بخطوات عواملُ اللغة والعِرق والأرض والتاريخ والمَصالح المشتركة..

فما كان لِيأتلف سلمانُ الفارسيّ مع صهيْب الروميّ مع بلال الحبشيّ مع أبي بكر القُرَشيّ إلّا على أرضيّة الدِّين الجامع، وما كان لبرْبر المغرب وبدْو الحجاز وأكْراد الشام وبلوش فارس أنْ ينصهروا في بوتقة واحدة إلّا برعاية وكفالة الدِّين، وما كان لدُول الخلافة أنْ تصمد لقرونٍ عدّة في قارات ثلاث إلّا بجذْوة العقيدة وآصرة الدِّين، وما كان لمُسلِم في مصر أنْ يَدعو لِمريضٍ في الشّام ويتعاطف مع جائعٍ في الصومال ويهبّ لنصرة مُضطّهَدٍ في الفلبين إلّا بحميّة الدِّين وحرارة الإيمان.

(١) يقول عالمُ الاجتماع الفرنسي جوستاف لوبون: «الدُّول التي تَأسَّستْ على أركان دين آمن به العُموم، تكون قوَّتُها أعظم وسلطاتُها أوسع، وبقاء هذا الدين قادرٌ على التأليف بين المصالح والعواطف».

وبالمقابل فإنَّ انفصال جنوب السودان عن شماله في عام ٢٠١١م، وتيمور الشرقية عن أندونيسيا في عام ٢٠٠٢م، وباكستان عن الهند في عام ١٩٤٧م؛ لم يكنْ ليرى النورَ لولا غياب الدِّين الجامع. وما كان للصهيونية كذلك أنْ تجمع شتات اليهود مِن أكثر مِن ١٢٥ دولة، وتنجح في مُخطَّطها لإقامة كيان غاصب على الأرض الفلسطينية في عام ١٩٤٨م؛ لولا توظيفها للوقود الدِّيني كمُحرِّك لطوفان الهيْمنة ونزعة السيْطرة، ولولا تدْجينهم للمقاتل الصهيوني عقائديّا حين ضمَّنوا كلَّ دبابة توراة وكلَّ كتيبة حَبْرا يَعِدُهم بالمَنّ ويُمنِّيهم بالسّلْوى ويَؤُزُّهم للقتال أَزّا. وما كان للغرْب أنْ يُجيِّش الجيوشَ ويَحشد الحشودَ على مدار القرنيْن الثاني عشر والثالث عشر وعبْر سبْع حملات متتالية لسلب المسلمين ديارَهم؛ إلّا بامتطاء الصليب واستغلال راية الدِّين وذريعة تخليص يسوع المسيح. بلْ وما اندلعتْ حربُ الثلاثين عاما (١٦١٨–١٦٤٨م) بين الكاثوليك والبروتستانت والتي أَوْدتْ بحياة خمسة ملايين؛ إلّا على وقْع تفسيراتٍ وتأويلاتٍ متضارِبة لذات الدِّين.

واضْحك إن شئتَ على توظيف الدِّين مِن قِبَل ربيب الشيوعية (ستالين) الذي أمر بدقّ أجراس الكنائس إبّان الحرب العالمية الثانية حتى تلتهب حميّة الجنود الرُّوس ويستمروا في القتال، وعلى (جورج بوش) الابن الذي لجأ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م إلى تَجييش عواطف الأمريكيين وحشْد دعمهم بحديثه عن حرب صليبيّة وتفويض إلهي، وعلى أُولَى التجارب النووية الهنديّة التي أُجريَت على الحدود الباكستانية وأُطلق عليها اسم بوذا المبتسِم، وعلى ذلك الذي ألَّف كتابا أسماه (جين الربّ) وزعم فيه أنّ التديّن صفة وراثية مرتبطة بالجينات وأنَّ مَن يفتقر إلى هذا الجين لا يُلام في كونه ملحدا!!

ثمّ اعْجَب مِن حال الوجودي سارتر الذي قال يوما: «تبدأ حياتي عند موت الإله»، ولكنّه على فراش الموت وفي ساعة الاحتضار، تلفَّت حوله في قلق وحيرة، وقال: أريد قسّيسا، ففغر الحاضرون أفواههَم من الدهشة، وانزعجَت رفيقتُه سيمون دي بوفوار وقالت: معنى ذلك أنك تدمّر فلسفتَك الوجودية! ولكنه لم يلتفت إلى قولِها، واستطْرد: أريده من القرية لا مِن باريس، وأَصرّ على طلبه رغم احتجاجهم واعتراضهم.

أمّا اللطيف والجميل فيما يخصّ حرف الدال الذي دلفْنا من خلاله إلى الحديث عن الدِّين؛ فهو ما حكاه الممثِّلُ المغربي التائب (سعيد الزياني) عن نفسه قائلا: «كنتُ أحلم بشيئيْن وأنا في سنّ المراهقة: الشهرة والمال، فأصبحتُ ممثّلا ومغنّيا فنِلتهما، وعلى الرغم من ذلك كنت أشعر بالتعاسة والشقاء، وفي يوم أَجرَى معي صحفيٌّ لقاء طويلا، وكان مِن بين الأسئلة التي وُجِّهت إليّ: الفنان سعيد الزياني، مِن المصادفات أن اسمك ينطبق على حياتك، فاسْمك سعيد وأنت سعيد، ما تقول في ذلك؟ وكان الجواب: إنّ ما تعتقدُه ويعتقدُه كثيرٌ من الناس غير صحيح، فأنا لستُ سعيدا في حياتي، واسمي يتكون من ثلاثة حروف(سعي)، وما زلتُ أبحث عن حرف الدال ليكتمل اسمي وتكتمل سعادتي، وبعد فترة أرسلتُ إلى الصحفي رسالةً قلتُ فيها: يطيب لي أن أخبرك بأنّي قد وجدتُ حرف الدال في (الدين والدعوة) وأصبحتُ الآن سعيدا حقّا».

القـرّاء الأكارم:

لا شكَّ أنَّ خواءَ الأرواح أنْكى مِن خواء البطون، وحَفاءَ القلوب أَطمُّ مِن حفاءِ الأقدام، وفي الوقت الذي يُمكننا فيه الاحتيال على خواء الأمعاء بكسرة خبز أو جرعة ماء أو حتى ورقة شجر،

ويُمكننا سترْ الأقدام بنعال ولو مِن ورق وخشب، فإنَّ خواء الرّوح(١) لا يُشبِعه إلّا الدِّين وحفاء القلب لا يَستره إلّا الإيمان، ولا دِينَ ولا إيمان إلّا بهذا الإسلامُ الذي مَثَّل قِمّة الرُّشْد بعد مرحلة تحضيريّة خاض غمارَها مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرون ألف نبيّ، ووصَفه فريد الأنصاري بأنَّه: «سَيْرٌ إلى الله في مواكب الجَمال»، مستلْهِما في ذلك قول المصطفى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يُحبُّ الجَمال، ويُحبّ مَعالي الأخلاق ويَكره سِفْسَافَها**» .. وصدق الله العظيم إذْ يقول: ﴿وَمَنْ يَبتغِ غيرَ الإسْلامِ دِينًا فلَنْ يُقبَل مِنْهُ وهُوَ في الآخِرة مِنَ الخَاسِرِين﴾ [آل عمران: ٨٥].

«الدين لا يقدم حلولا مجتزأة ولا توفيقية»

مالك بن نبي

---

(١) يقول رائد علم النفس التحليلي (كارل يونج)، بأنه لم يستطِع أبدا علاج أي مريض باعتلال نفسي خطير، إلا بعد إقناعه واستمالته إلى اتجاه ديني في الحياة. كما ذكر أستاذ الطب النفسي بجامعة ديوك الأمريكية والمهموم بدراسة علاقة الدين بالصحة (هارولد كوينج)، أنَّ غياب المعتقَد الديني يؤثِّر على الوفيات بمقدار تدخين ٢٠ سيجارة يوميا لمدة أربعين عاما.

[ذ]

ذئابُ البشَر!

استيقظَتْ ذاكرتُنا الغَضَّةُ في مهْد طفولتِها وأوْج براءتِها على أنّ الذّال تعني الذّئب، تماما كما كانت الباءُ بطّةً والتّاءُ تفّاحةً والثّاءُ ثعلبا. وبعد أن انْسلخَتْ الذاكرةُ مِن طفولتها وودّعَتْ براءَتَها، أصبح لا يَخفَى على الذّهن ولا يَعزب عن النّظر ما تحمله كلمة الذئب مِن دلالة رمزيّة تتمثّل الغدْر والخيانة مذهبا والمكْر والخديعة ديْدنا، وما ذلك إلّا لأنّ أدبيّاتنا في الأمثال والشِّعر والقصص والحكايات ما فتأتْ تُغذّي هذا المعنى بحقّ أحيانا وبباطل أحايين أخرى.

فالتعريف العام للأخلاق؛ بأنها «مجموعة مِن السلوكيات التي تُراعِي الآخَر فتتبنَّى التعاون والتعاطف والعدالة»، يُمكن تطبيقه على الحيوانات بوجه قد يَفتح الباب قليلا أمام مَن يقول بأنَّ الأخلاقَ ليست حكرا على البشر فقط، وأنَّ الاختلاف بين أخلاق

البشر وأخلاق الحيوانات اختلاف في الدرجة لا في النوع، باعتبار أنَّ الأخلاق وليدة العقل المتطوِّر بشريًا والمُتدنِّي -إنْ وُجد- حيوانيا، ولكن بالطبع دون الانزلاق بهذا الطرح إلى فخّ ما يُعرف بالنشوء والارتقاء، ضمن مستنقع الدارْوينية التي بطل زعمُها وخاب مسعاها وخسر بانيها.

والذّئب حيوان ثدْيي ينتمي لفصيلة الكِلاب ورُتبة اللواحم، ولكنه وحْشيّ لا يُمكن تدجينه وترويضه ليصبح حيوانا مُستأنَسا أليفا، ويمتاز بالحنكة واليقظة والذكاء، إضافة إلى سرعة العدْو وقوة التحمّل، ويستطيع بحاسة شَمِّه القوية تمييز رائحة دم الإنسان على بعد عدّة أميال، وهو كائن ليْليّ لا يَرى في النهار، واجتماعيّ يعيش في قطعان، وصوته يُسمَّى عواء، وأنثاه تُدعى ذئبة وصغيرها جرْو، وهي أكثر شراسة مِن الذكَر[1]، وسريعة التكاثر إذْ يَمتدّ حملُها إلى فترة شهريْن، وكثيرة التوالُد حيث تلد في كل مرَّة ما بين

(١) تَفدي ذكورُ الذئاب الإناثَ والصغارَ بالمشي في مقدمة القطيع والدفاع عن الجميع حتى الموت.

٣-٩جِراء. أمّا عن طقوسه في الصيد؛ فهو لا يأكل الجيف مهما بلغ به الجوع مداه، ويُجهِز على أحشاء فريسته فور صيدها قبل أن ينتقل لباقي أجزائها. وقد ورَد ذِكره في القرآن ثلاث مرات في معرض قصة سيدنا يوسف -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، وله أنواع عديدة تشترك كلّها في طول الذيل الذي قد يبلغ نصف المتر.

لم يكن الذّئب المُفتَرَى عليه هو مَن قصّ شريط القتْل على وجه البسيطة، بل كان ابنُ آدم (قابيل) الذي ساقه الغِلُّ وامتطاه الحسد فاستحلّ دمَ أخيه (هابيل) وأَرْدَى خُمْس تعداد البشريّة آنذاك، ولم يكن الذئب المُحمَّل بتلك الأوزار هو مَن فتك بنبي الله يوسف، بل كان إخوتُه مِن دمِه ولحمِه هُم مَن أَعْماهم الحقد وأغواهم الشيطان فغيّبوه في الجُبّ وأَدْموا كبد أبيه وأَظلموا عينيْه ثمّ أَلصقوا جريمتهم النكراء بالذئب.

فضلا عن أنَّ الذئاب لا تأكل الذئاب؛ وكأنها تطبِّق ميثاق شرف غير مكتوب وتفي بوعد غير معقود، كما أنّ عدْو الذئاب على الأغنام قائمٌ منذ قديم الأزل دون أن يسجّل التاريخُ موت الذئاب ولا فناء الأغنام، بينما يسجِّل التاريخ الأمين لحظة عبور الرجل

الأبيض لبحر الظلمات وإفنائه للهنود الأحمر[١] تحت شعار دراكُولِيٍّ يقول: «الهنديُّ الصالح هو الهنديُّ الميت»، وذلك في أكبر وأبشع جريمة شهدَتْها الأرض ولعنَتْها السماء، علاوة على أنّ الذئاب لا تنهش إلّا اللحم بينما بعض البشر لا يتورَّعون عن نَهْش الأرواح وقضْم القلوب وكسْر العظام.

أليس غريبًا أنْ يأتي هؤلاء البشرُ أنفسهم بعد كلّ ذلك، فيصوغون الحكايات عن غدْر الذئاب ويسجِّلون في أمثالهم بأعْرض خَطّ وأوْضح مِداد قائلين: «لا أغْدَرَ مِن ذئب»، «لا أَجْوعَ مِن ذئب»، «لا أَظْلَمَ مِن ذئب»، «صاحِبْ الذئب على أنْ يكون فأسُك جاهزا»، «مَن صاحَب الذّئبَ عَوَى»، «لا تعقِد صُلحا مع ذئب إلا بعد أنْ تسلخ جلدَه»، بِما يعني انتفاء العيش في كنفه، واستحالة الصلح معه، وإلّا كُنتَ كباحث في الماء عن جذوة نار

(١) يُسجِّل كتاب (أميركا والإبادات الجماعية) لمؤلِّفه منير العكش؛ أن ما يربو على ثمانية عشر مليونا من سكان أمريكا الأصليين أُبيدوا ولم يبق منهم إلا بضعة آلاف، وهو نفس ما سجله التاريخ حيال ما فعله الرجل الأبيض بسكان استراليا الأصليين (الأبورجنيز).

أو كطالبٍ للآهات مِن الأموات؟!

قد نعذر الذّئبَ حين يفترس الشّاةَ ويَعدُو على الخراف، فما مِن سبيلٍ للحصول على طعامه ومداواة صريخ أمعائه إلّا التجوّل في البراري والانقضاض على ضحاياه، خاصّة بعد أنْ رَخّص له المَعرِّي وعفا عنه حين قال:

«ولو علمتُم بداءِ الذّئب مِن سَغَب
إذنْ لَسامحْتُم بالشّاةِ للذِّيبِ»

ولكن كيف نعذر حاكما يَستبيح حريّة شعب بأكمله في سبيل مجْد زائف، وكيف نعذر رئيسا يَتجبّر على مَرؤوسيه بحجّة سلطة زائلة، وكيف نعذر زوْجا يَسوم زوجتَه القهْر والدُّونيّة تحت لافتة القوامة التي حاكها على مزاجه لا على مُقتضَى الشرْع، وكيف نُفسّر سلوكَ مَن يتوضأ بمال مسلوب ويُصلِّي على حصير مغصوب ثمّ يَنبري على المنابر فيفتي في الحلال والحرام ويدعو إلى مكارم الأخلاق، وكيف نبرِّر عدوان دول قويّة على دول ضعيفة فتسلبها السيادة والأرض والثروة تحت زعم الأمْن والسِّلم الدولِيَّيْن، وكيف نسوِّغ مواقف لأُناس يتصوّرون الحياة غابة تقوم على صراع القوي

مع الضعيف وتقتات على مبدأ «كُن ذئبا وإلَّا أكلَتْك الذّئاب»!

عن هذا سجَّل توماس هوبز شهادتَه على الطبيعة البشريّة فقال: «الإنسانُ ذِئب لأخيه الإنسان»، وزاد أبو ذرّ الغفاري في الذمِّ بيتا فقال: «كان الناس ورقا لا شوك فيه، فصاروا شوكا لا ورق فيه»!.

بينما سجّل وليام هوراندي شهادته على الطبيعة الحيوانية؛ فقال: «للحيوانات شريعة أخلاقية يعيشون بموجبها ويتقيّدون بها أفضل مِن تقيُّد البشر بشريعتهم»[1]. وعن الطبيعتيْن معا؛ عبَّر شاعر الدولة الحمدانيّة (أبو فراس الحمداني) خيرَ تعبير فقال:

«بمَن يَثق الإنسانُ فيما يَرُومه
ومِن أين للحُرِّ الكريمِ صحابُ
وقد صار هذا الإنسانُ إلّا أقلّهم
ذئابًا على أجسادِهنّ ثيابُ»

---

(١) جاء هذا في صدر (كتاب العدالة في عالم الحيوان) والذي أَهدتْه المؤلِّفة الأمريكية جيسيكا بيرس -ضمن أغرب الإهداءات في عالم الكتب- إلى الحيوانات التي عرفتْها وأَحبتْها.

وكأنّه هنا يُوافِق ابن المرزبان في كتابه (فضل الكلاب على كثير ممَّن لبِس الثياب)، بيْد أنّه يستبدل الذئابَ بالكلاب! ويُؤمّن على ما رُوي أن الشاعر الإنجليزي كيلينغ تَسامرَ ذات ليلة مع أصحابه، فسألوه: أيّ صنوف الحيوانات ترى أنه يصلح ليخلف البشر، هل هو الفيل مثلا؟ فأجابهم: أستبعد ذلك؛ لأن للفيل أخلاقا شريفة لا تؤهِّله لهذه المكانة!

«رَمَتْني بدائها وانْسلَّتْ» ... هكذا يَصحّ المثل على لسان الذئب، موجِّها حديثه إلى بعض البشَر المتحفِّزين للحماقة والغضب، والمُستعدِّين لتبنِّي خطاب الكراهية وسلوك العدوانية، والشّاهرين سيف الانتقام في سبيل الحصول على مزيد مال أو جاه.

فلو كنّا في يقظة[١] الذئاب لما أصبحْنا قَصْعةً يتداعى عليها الأكَلَة، وما كنّا مَطيّة للاستعمار الذي ما فكَّرَتْ فيه دولةٌ ولا همّتْ

(١) عن يقظة الذئب يقول الشاعر حميد بن ثور:

«يَنام بإحدى مقْلتيْه ويَتَّقي ال مَنايا بأُخرى فهو يَقْظان هاجِع»

به أمّةٌ إلا وكان لها فينا وافر نصيب وثمين صيْد، ولو كنّا في حذر الذئاب لَما هوتْ أقدامنا في حمأة الرذيلة، ولا زلّتْ أرواحنا في أتون المعصية، ولو كنّا في هِمّة الذئاب لَما صِرنا في ذيل القافلة، ولَما كان زعيمُهم شاكِيَ السّلاح مُدَجّجا بينما زعيمنا في كفِّه منديل، وذلك على حدّ وصْف شاعر النيل (حافظ إبراهيم).

تُرى هل تحين لحظة اعتراف؛ يَقف فيها المُستبِدّون والمُرتشون والمُنافقون والفاسدون والظالمون، أمام الحقيقة المجرَّدة والمرآة الصادقة؛ ليقرّوا ساعتها بملء فمِهم وكامل إرادتهم، بأنّهم هم وحدهم الذئاب لا غيْر؟

وهل تتأتّى نوبة صحوة؛ نوقظ فيها أخلاقَ التعاون والتعاطف والعدالة، بعدما طال رقادُها واسْودَّ ليلُها وجَفَّ جُبُّها؟

وهل تُصافحنا يدُ الموضوعية والمصداقية؛ فنتهِّم أنفسَنا قبل أن نتهِّم الآخَرين، ونُبصر الخشبةَ في أعْيننا قبل أن نؤشِّر على القذاة في أَعْين غيْرنا؟

وهـل نَـداوي هـذا الكاتـب الـذي فقـد ثقتـه في الإنسـانية بعـدما ارتأى فيها كلَّ النقائص، فصدَّر كتابه معتذِرا بقوله: لعلِّي لا أجانـب الصواب ولا أبتعد عن جوهر الحقيقة إن قلت إنّني كائن بشري!

ولـيس الـذئبُ يأكـل لحـمَ ذئـب
ويَأكـــل بعضُـــنا بعْضـــا عيانـــا

الإمام الشافعي

[ر]

رياضة الروح

إذا كان الشيءُ بالشيءِ يُذكَر، فإنّ ذِكْرَ حرف الراء لا يَنفكّ عن ذِكر قصّته مع (واصل بن عطاء) تلميذ (الحسن البصري) والمُلقّب بالغزال الألْثغ، إذْ كان لا يَقوَى لسانُه على نطق حرف الراء، فما كان منه وهو البليغ المُصقّع والخطيب المُفوّه إلّا أن أَسقطَ (الراءَ) مِن كلامه وأخرجَها مِن قاموسه، حتى إنَّ دواوين الأدب تحفظ له خطبةً بليغة، ألقاها في حفل جامع، غصَّ برؤوس الخطابة وأئمة البيان في عصره، ولم يذكر فيها حرف الراء؛ لئلّا يُؤذِي أسماعَ الحضور بلثْغته الشنيعة! وفي ذلك يُروَى أنّه مرَّ يوما بأُناس أرادوا أن يَتضاحكوا مِن لثْغته، فقالوا له: كيف تقول: جَرّ رُمحَه، وركب فرَسَه، وأمر الأميرُ بحفر بئر على قارعة الطريق؟ فقال مِن فوره: سحَب ذابِلَه (بمعنى رُمحَه)، وامتطى جوادَه (بمعنى فرَسَه)، وأَوجب الخليفةُ نَقْب (مرادف حفْر) قَلِيب (مرادف بئر) على

الجادّة...وهكذا رماهم بنبْلهم وأَرْداهم بسهمِهم وتَغدّى بهم قبل أن يَتعشّوا به!

وعلى منوال واصل بن عطاء نسج (ابن مقلة) الخطّاط والشاعر والوزير، المُبتلى بلثغة الراء أيضا؛ فقد أراد أحدُهم أن يحرجه مرّة، فطلب منه أن يقرأ أمام أحد الأمراء الرقعة التالية: «أمر أمير الأمراء بحفر بئر على قارعة الطريق ليشرب منها الشارب والوارد»، فكره ابن مقلة أن يُظهر ما في لسانه من لثغة وما في لفظه من عيب، فقرأها كما يلي: حكم حاكم الحكام بأن تُجعل جبٌّ على حافة الوادي ليستقي منها الغادي والبادي.

ومِن راء اللثغة إلى راء الرياضة التي يقصرها بعض الناس على رياضة الأبدان، بعدما أَضحت صيْحة الزمان، وصارت بحْرا يَمخُر عُبابَه الرّجال وتركب أمواجَه النّساء مِن كلّ الأجناس وشتَّى الطبقات ومُختلف الأعمار، حتى إنهم يَجِدُّون في طلبها صباح مساء، ويلبسون لها القصير والطويل مِن الثياب، ومِن أجْلها خُصِّصت وزاراتٌ ومؤسَّسات، وأُنشِأت الملاعبُ والساحات، وأُنفِق الطائلُ مِن الأموال، وفيها تفاوتَتْ المشاربُ والأذواق بين

مشْيٍ وركْضٍ وسباحة.. وُصولا لـنَطّ الجِبال وتسلُّق الجبال، على أمل الظّفر بغصنِ بانٍ موفور النّشاط وخالٍ مِن العِلَل والأسقام.

ولكن بيتَ القصيد وحَبَّ الحصيد هي رياضةٌ أخرى لازمةٌ كالماء والهواء، ولا غِنى عنها كالسفينة للبَحَّار والبوصلة للمـلَّاح، ولا تحتاج لحمْل أثقال أو عَدْوٍ في القِفار، ولا تُكلّفنا نفقة أموال أو إعداد تجهيزات، إذْ لا تَعدو لحظات هدوء نختلسها مِن بين أنيابِ الحياة الصاخبة، وزهرات نقطفها مِن بين أشواكِ همومِها المستفْحِلة؛ فنهزم جاذبيّة الطين ونكسر قيود الشهوات، ونتجاوز رؤية البصَر إلى نور البصيرة وظواهر الأشياء إلى حقائقها، ومِن ثَمَّ نصنع الجَلَوات على عيْن الخلَوات، ونرقَى في معارج الإيمان ودرجات العبوديّة وسلّم الفكر.

هي رياضةٌ فِطريّة جِبِلّيّة طَبْعيّة (مِن الطّبْع لا الطبيعة)، ارْتقت إلى درجة العبادة فصارت أمْرا تكليفيا سمّاه القرآنُ الكريم تدبُّرا وتفكُّرا ونظَرا وبصيرة «أفلا يَتدبَّرون» «أفلا يَتفكَّرون» «أفلا يَنظرون» «أفلا يُبصِرون»، ولها أشار شيخُ الإسلام أبو العباس ابن تيمية حين قال: «لفظ الرياضة يُستعمَل في ثلاثة أنواع: رياضة

الأبـدان بالحركـة والمشـي، ورياضـة النفـوس بـالأخلاق الحسَـنة، ورياضة الأذهان بمعرِفة دقيق العِلم والبحْث عن الأمور الغامضة»، وفيهـا ألّـف (العقـاد) كتابـه (التفكيـر فريضـة إسـلاميّة)، وعنهـا قـال (ابن القيم): «تَفكُّر ساعة خير من عبادة سنة».

هـي إذنْ رياضـة التفكُّـر[١] والتـدبُّر والـتأمُّل، والتـي هـي أرقـى رياضة وأفخم سياحة وأعمق قراءة وأشرف عبادة، حيث يُجِيل فيها الإنسانُ عقلا يَقِظا وقلبا حَيّا وروحا صافية في تطْواف رقيق عميق، بين صفات الله وأفعاله[٢] وكوْن الله ومخلوقاته وقرآن ربّي وإعجازه وخلْق البَشر وإحكامِه ويوم القيامة وما وراءه، وهي ما حصَر العلماءُ مجالَها وميدانَها في آيات الله الكونيّة التي هي الخلْق، وآيات الله التكوينيّة التي هي أفعاله جلّ في علاه، وآيات الله الكلاميّة التي

---

(١) فارق بين التفكير والتفكُّر؛ فكثيرون هُم مَن يمارسون التفكير بينما قلّة هُم مَن يمارسون التفكّر، والتفكير يبحث عن حلّ بينما التفكّر يسعى وراء معنى ومغزى، والتفكير قد يشمل صالح الأمور وطالحها بينما التفكّر يرتبط بالسامي من الأمور، علاوة على أن التفكّر أعمق من التفكير.

(٢) لا تَفكُّر في ذات الله، إذْ يقول عبد الرزاق نوفل: التفكّر في ذات الله إشراك والتفكّر في صفاته إدراك.

هي القرآن تَقَدَّس وتَنَزَّه؛ ليَظفر العقلُ بعدها بالعِلْم والحكمة، ويَمتلئ القلبُ ثباتا وإيمانا، وتَغنم النفسُ خشية وتزْكية، وتَرِث الروحُ طمأنينةً وأمانا، ويَعود للفطرة صفاؤها ونقاؤها...وذلك هو لُبّ ما يُعرف اليوم بالتنمية البشريّة التي تَحثّ الخُطَى إلى التأمّل وجعلت منه ميْدانا تُدندن حوله وتَلهث وراءَه؛ وربما لهذا راج سوقُها وكَثُر روّادها؛ بغْية سدّ الثغرات وتفجير الطاقات واكتشاف القدرات وحفْز الهِمم.

وقد أَثبتَت الدّراسات أنَّ التأمّلَ يعود على الجسَد بفوائد عديدة؛ إذْ يُبطئ ضربات القلب ويُخفِّض ضغط الدم ويُقلِّل من معدّل التمثيل الغذائي، كما يُخفِّف مِن الآلام المُزمِنة ويُقوِّي المناعة ويَحمي مِن نوبات الصداع النصفي، ويُفرغ شحنات القلق والغضب والتوتّر مِمَّا يُسهم في الوقاية مِن الأمراض النفسية، وذلك لأنّ «كلّ تأمُّل لا يَنتج منه حبّ وتعاطف ورحمة ورغبة في الإفاضة على الغير ليس بتأمّل، وإنّما هو استغراق في الكآبة»[1].

(١) مهدي الموسوي/ أريد أن أعيش

علاوة على أنَّه يُتيح للعقل ساحة أوسع وأعمق للفهم؛ فيُحرِّك ماء الفكر الراكد، ويُفسح مجال الرؤية، ويَبعث على الإيجابية، ويُفضي إلى تخطيط أفضل وإنتاجيّة أعلى، إضافة إلى أنّه مدرسة لتَعَلُّم الصبر وإتقان التركيز وزيادة الثقة بالنفس والتّحلِّي بالثبات الانفعالي...وهذا ما حمَّس أرباب الفكر والمال للاستثمار في إنشاء مدارس متخصِّصة ومعاهد مُغلَقة ومُعتزَلات صامتة، يَنتسب لها المُريدون، فيَنعزلون عن تيار الحياة، ويَدخلون عوالم جديدة ضمن برامج تتوغّل في أعماق النّفس وتُدير مفاتيح الروح، فتُزيل الرّان وتَجلو الصدأ وتُعيد لمرآة الذات صفاءَها المَرجوّ ونقاءَها المَأمول، بما يعني أنها رياضة نفسية تُقوِّي عضلات الروح وترفع لياقة الذهن.

والواقع أنَّ كثيرا مِن المخترعات والابتكارات كانت وليدة لحظات استثنائية مِن التأمّل، وذلك لأنَّ التأمّل ولو لسويعة يَغمرنا بمشاعر فيّاضة وطاقة غامرة، ويلفت أذهانَنا لأشياء تَعزُب عنّا وسْط سُعار الحياة الذي يُعمِي البصيرَ ويُشتِّت الحليم؛ فالقطار الياباني السريع المعروف بالرصاصة، جاء نتيجة توقّف أحد المهندسين اليابانيين أمام السرعة الفائقة التي يخطف بها منقارُ طائر الرفراف

فريستَه. ومسّاحات الزجاج الأماميّة للسيارات؛ استقَى مخترعُها فكرتَها مِن حركة الجفون فوق سطْح العين. أمّا حضانات الأطفال؛ فقد اهتدى إلى فكرتها الطبيب الفرنسي ستيفن تيرنر في عام ١٨٧٠م، بعد جولته في حديقة الحيوان، وتأمّله في كيفية تدفئة الحيوان لصغارها في الجوّ البارد، ووجد فيه الحلّ لخفض نسبة وفيات الأطفال حديثي الولادة.

إلّا أنَّ أعظم فائدةٍ للتفكُّر والتأمُّل؛ هي في كوْنه أوسع باب وأقصر طريق لمعرفة الله التي هي أصل الدِّين كما وصفها على بن أبي طالب -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، وفي كوْنه نقْلةً نوعيَّةً مِن سفح إيمان يتمايل كضوء الشموع ويتلاشى كغيْم السحاب، إلى ذُراه التي تَثبُت أمام الزلازل والبراكين، وتَقصِم ظَهْر الإِحَن والمِحَن. وكذلك في قدرته على فتح نافذة على عوالِم أُخرى في معادلة الكون نحسبها جامدة صامتة، ولكنّها ذات بوْح ولحْن ونغَم؛ إذْ ما تَفتأ تَذكُر وتُسبِّح وتَحمد[١].

(١)﴿وإن مِن شيء إلّا يُسبِّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهم﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد وصف إبراهيم السكران التأمّلَ بأنه استحمام إيماني، وقال عنه في كتابه (رقائق القرآن): «كلما استطاع المسلمُ التخلّصَ من الضباب الكثيف الذي يصنعه الانهماكُ في الدنيا، ومنَح نفسه ساعة تأمل في لحظة صفاء، وتَذكَّر قرب لقاء الله، فإنه سيُفاجَأ بحيوية جديدة تدبّ في نفسه، سيشعر كأنّما قام قلبُه باستحمام إيماني يزيل عنه العوالق والأوضار، وستتغيير نظرته لكثير من الأمور».

بعد عُمر مديد، وحين ينكشف الغطاءُ ويُصبح البصرُ حديدا، يُدرك الجميعُ حقائقَ الحياة، ولكنّ المتأمِّلين المتفكِّرين وحدهم هُم مَن يدركونها قبل الممات؛ إذْ أَمْعنوا الفِكَرَ فحازوا العِبَر، وأَداروا دفّة البصيرة فرأوا ما لا تراه العين وسمعوا ما لا تسمعه الأذن وتَذوَّقوا ما لا تتذوّقه حُلَيْمات التذوّق ولمسوا ما لا يَلمسه البنان، وما كان ذلك كذلك إلّا جائزةً لهم على بطولتهم في تخطِّي العوائق التي تحول دون النّظر والتأمّل؛ كالكسل الذهني وضيق الوقت ومَشقّة تكاليف الحياة، إضافة إلى جلَدهم في تحمُّل قساوة برْد التفرُّد والتمايز في مجتمعات ترى في المُتأمِّل والمُتفكِّر شخصا غريبا وشاذا وقمينا بالسخرية والاستهزاء، إذْ كان كمَن جَرُأَ على التّفاصُح بين العوامّ أو كمَن أَقْدم على الجُود وسْط اللئام.

تأمَّلَ أبو الفيزياء (أينشتين) في الكوْن فقال: «كلُّ إنسان لا يرى في هذا الكوْن قُوَّةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعْلم ما تكون، رحيمةً هي أرْحم ما تكون، هو إنسانٌ حيٌّ ولكنّه ميِّت».

وكَتَبَ الباحثُ التركيُّ (عدنان أوكطار) المعروف قَلَمِيًّا بهارون يحيي في فنّ التأمُّل فقال: «مَن يَتفكّر يُدرك الصواب، ومَن لا يَتفكَّر يَمضي إلى حيث يَجُرُّه الشّيطان».

وعدَّدَ المستشرق الفرنسي إميل درمنغم فوائد التأمّل في كتابه (حياة محمد) فقال: «التأمّل الطويل؛ يُطهّر النفس، ويُنبّه روح المعاينة، ويُؤدّي إلى كشف ما وراء الحجب، ويَحثّ على العمل عند الضرورة، والتأمّل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرّر مِن الهوى».

وسُئِلتْ أمُّ الدرداء عن أفضل عبادات الصحابيّ الجليل أبي الدرداء -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا-، فقالتْ: «التفكُّر والاعتبار».

وهكذا وعلى مرّ التاريخ، عُرِف عن البارزين تخصيصهم وقتا للتأمّل والانعزال والتفكّر، بدءا مِن فيثاغورث مرورا بغاندي وغيرهما، فلم يَفقدوا يوما حيويّتهم، وما كانوا لحظة في خصام مع

الذات أو نفور مع الطبيعة، ولم تكن بضاعتهم إلّا الحكمة التي قِيل إنها تنشأ في المساحات الصغيرة الهادئة بين المعرفة والخبرة. وفي هذا ذُكر أنّ بوذا اعتزل الحياة واستغرق في تأمُّلاته ست سنوات، قبل أن يعود ويخالط الناس خمسا وأربعين سنة، يقضي بينهم تسعة أشهر ويعود إلى عزلته وتأمّلاته ثلاثة أشهر كلّ عام، ليستعيد انتباهه ويقظته واستنارته، ولهذا أنكر على مريديه أن يعدُّوه إلها أو ملاكا أو قدّيسا، وارتضى أن يكون المستنير والمستيقظ والصّاحي.

والحقيقة أنّ التأمّلَ كَلاًّ مباح لكلِّ البشر دون حجْر أو منْع، وأساليبه متنوِّعة بتنوّع البشر ومتفاوِتة بتفاوت أذْواقهم، وذلك لِتلبّي متطلّباتهم وتشبع احتياجاتهم؛ فالصمت تأمّل، والتنفّس بعمق تأمّل، والمشي تأمّل، والصلاة تأمّل، والدعاء تأمّل، والقراءة تأمّل، والاسترخاء تأمّل، والصوم تأمّل، وغيْر ذلك كثير، أمّا مجالاته فلا تخرج عن التأمّل في الذات أو الزمان أو المكان أو في خالق الذات والزمان والمكان.

القرّاء الأعزاء ... كونوا أبا الدرداء الذي يُوصَف بالحكيم والقِدِّيس؛ فتَأمَّلوا الأشجارَ تَعلُو همّتكم، وتَحدَّثوا إلى النّجوم

تـتلألأ نفوسُـكم، وغـرِّدوا مـع الطيـور تنفـرج أسـاريرُكم، وامـلأوا صدورَكم بالنّسيم العليل تتذوّقوا معنى الحرية، وأَنْصِتوا للجبال البكماء تنعموا بأحلى حديث عن عظمة الله، وتدبّروا آي القرآن تَلْمسُوا بـرْد الأمـان، وتفرَّسـوا في وجـوه الأطفال لِتُلَقِّـنكم درْسـا خصوصيّا مجانيّا في معنى الفرَح وقيمة الحياة.

وصـدَق ربّـي إذْ يقـول جـلّ في عـلاه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران ١٩٠-١٩١].

بِشْر الحافي

[ز]

الزينة الزائفة

بعد أنْ مَنَّ الله على عباده المؤمنين ورخّص لهم -مع غيرهم- في طيّبات الحياة الدنيا وزينتها؛ تَقاطر الجميعُ في الميدان وكشفوا عن الساق تلو الساق، وكانوا مذاهب فيما يعشقون ومشارب(١) بما يزدانون؛ فمِنهم مَن ازدان بالمال وأصبح ثَرِيّا، ومَن ازدان بالبِنين فكان وَلُودا، ومَن اتّخذ العقل زينته فكان حكيما، ومَن تَحلّى وتَزيّن بالأخلاق فكان صالحا، ثمّ كان مَن ازدان بالشَّهادات وافتُتِن بالألقاب فكان غيْر ذلك.

ومعلوم أنّ زينة الشيء لا تُعبّر عن كنهه وجوهره، بل هي واجهة برّاقة تُكسبه بعض جمال وبهاء وجلال، وقد جاء في كتاب (مفردات غريب القرآن) للراغب الأصفهاني، أنَّ الزينة هي ما

---

(١) يقول الشاعر حافظ إبراهيم:

«فالناس هذا حظّه مالٌ وذا علمٌ وذاك مكارمُ الأخلاق»

لا يشين الإنسانَ في شيء مِن أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأنها على ثلاثة ضروب: زينة نفسيّة كالعِلم والاعتقادات الحسَنة، وزينة بدنيّة كالقوّة وطول القامة، وزينة خارجيّة كالجاه والمال.

ولعلّ أغلبنا قد تناهى إلى سمعه ألقابٌ تلبَّس بها مَن حمل مِن الشهادات ما لذّ وطاب، سيّما لو كانت غرْبيَّة المَنشَأ وأمريكية النكْهة؛ ولعل أغلبنا أيضا قد رأى بأمّ عينه كيف تشْمخ لهذه الشهادات الأنوف، وتخْتال النُّفوس، ويتحوَّل المَنحوس إلى طاووس.. هذا في الوقت الذي تمرّ عليها سحائبُ النثر فيصْدق فيها ما صدّر به ابن قتيبة كتابه (أدب الكاتب) قائلا: «ترجمةٌ تروق بلا معنى، واسمٌ يَهول بلا جسم، فإذا سمعها الغِمر -أي الجاهل- والحدَث الغِرُّ، راعه ما سمع، فظنّ أن تحت هذه الألقاب كلّ فائدة وكلّ لطيفة، فإذا طالعَها لم يَحُلَ منها بطائل». ثمّ يَمرّ طيْف الشِّعر فيهجو أصحابَها قائلا:

«لَم تزَلْ -ويْحكَ يا عَصْرُ أَفِقْ-
عَصْرَ ألقابٍ كِبارٍ وكُنَى[1]»

---

(١)الشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي.

وفي هـذا روَى أسـتاذ علـم الاجتمـاع السـوري (علـي أسـعد وطفـة)، أنـه بعـدما قُبل لدراسـة الماجسـتير بجامعـة كـان الفرنسـية، سعى إلى مقابلة أستاذه المشرف (كلارك)، فدخل قاعـة اجتماعـات بالجامعة تغصّ بالحضور من الأسـاتذة والباحثين، ومـا إن سـألهم: أين أجد مكتب الدكتور كلارك، حتى دُهشـوا وضحكوا ضحكات عالية سُمع لها دويّ بالبهو الخارجي، وهم يردّدون: دكتور كـلارك! دكتور كلارك! ليدرك عندها أن ألقاب التفخيم والتعظيم لا تحظى بـالاحترام -إن لـم تكـن مُسـتهجَنة- في الأوسـاط الاكاديميـة المحترمة، وكان درسا بليغا تعلَّم منه قيمة التواضع.

ومع تسليمنا بأنّ اللقب الـذي يُنال بعـرق الجبين وكدّ الـذهن يسـتحقّ التبجيـل والإكبـار والاحـترام، ومـع إدراكنـا التـام بـأنّ الشهاداتِ سلاحٌ يَفتحُ الأبوابَ المُغلَقة ويُمَهِّدُ الطرُقَ الوعِرة، وأنَّها لُغةُ العصر وميزانُه؛ إلّا أنّ ذلـك لـيس مُسـوِّغا لأن ينقلـبَ صـاحبُ اللّقـب وحامـل الشـهادة؛ فيُميـلُ أرِيكتَـه ويُعـرِّض وسـادتَه ويَثنِـي أعطافَه، ثُمّ يُصعِّر خدَّه ويَسْتنْسِر على غيره ويَمشي في الأرض مرَحا حتى ليصْدُق فيه المثَلُ القائل: «أَنْفٌ في السماء وإِسْتٌ في المـاء»..

فِمن الشّهادات والألقاب ما يُباع ويُبتاع[١]، ومِنها ما يُزَيَّف فيُعطَى لغير أهلِه، ومنها ما يُهدَى بلا سابقة عِلْمٍ أو حصيلة درْس[٢]، ومنها ما كان حصيلة دراسةٍ جامعية شهد لها أنيس منصور -وهو أستاذ جامعي- بأنها تقتل الاستقلال الفكري وتقضي على الحريّة والفرديّة والإبداع ولا تَرضى بغير القوالب الجامدة، ومِنها ما يَصْدُقُ فيها قولُ الشاعر:

«وكَمْ مِن شهاداتٍ يَغُرُّ جمالُها
وقِيمتُها النَّقْش الذي في إطارِها»

(١) ذَكر وزير التعليم السعودي (محمد الرشيد) في مذكّراته، أنه عُرض عليه مع زميلَيْن آخَرَيْن منحهم شهادة الدكتوراه في التخصّص الذي يرغبونه، وذلك مِن قِبَل مدير إحدى الجامعات الأمريكية الخاصّة بمقابل مادي بلغ(١٥٠٠ دولار). كما قرأتُ أنَّ (سيف الإسلام القذافي) تحصَّل على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة لندن بعد أن قدَّم منحة قدرها مليون ونصف المليون جنيه استرليني!

(٢) مَنَحَتْ كلية الجراحين الملَكية بإنجلترا زمالتها -المعادِلة لشهادة الدكتوراه في الطب- للعسكري السياسي (ونستون تشرشل) دون أن يلبس قفازا أو يخيط جرحا، كما جاء في كتاب (نساء الطغاة) أنَّ (إيلانا) زوجة الدكتاتور الروماني (نيكولاي تشاوتشيسكو) مُنِحت سبعة عشر درجة دكتوراه فخرية، وأنَّها بنهاية حياتها كان بحوزتها (٧٤) لقبا جامعيا.

بل إنّ مِن الألقاب والشهادات ما يَجري تسويقها في أروقة السّلْطة، على هيئة صفقات تُضمَن بها الولاءات بين النّخب الثقافية والدِّينية، وهو ما استنكره المفكِّر علي شريعتي بخصوص ألقاب رجال الدين الشِّيعة فقال: «كلّ الألقاب التي أُسبغت على رجال الدين (آيات الله العظام، حجج الإسلام والمسلمين،...) هي ألقابٌ بقيت من العهديْن الصفوي والفاجاري، حيث أسبغ السلاطينُ تلك الألقاب على رجال الدِّين ليساهموا في إعلاء شأنهم وإعطائهم هيبةً بين الناس، وذلك لقاء قيام رجال الدّين بتبرير السلطة الحاكمة شرعيّا». ثمّ أضاف شريعتي: «الرسول وكبار الصحابة والمجاهدين الأوائل في الإسلام وأكثرهم عِلما، لم تكن لهم هذه الألقاب المضخَّمة، إذْ ظلّوا مع بقيّة المسلمين إخوانًا في الدِّين مستغْنِين عن أيّة امتيازاتٍ أو ألقاب». أمّا عن شيوع الألقاب في دهاليز السياسة، وعلاقة ذلك بقوّة الدول وضعفها، فقد كتب المحقِّق عبد السلام هارون في كُنّاشته: «وممّا يَسترعي نظر الباحث في التاريخ الإسلامي، أنه عند ضعف الدولة العباسية وظهور الدويلات الإسلامية، كالسامانية فيما وراء النهر، والحمدانية بين النهرين

وحلب، والبويْهيّة في العراق وفارس، والفاطمية بمصر، استفحل ظهور الألقاب الرسمية». وقد أحسنَت جامعةُ الزيتونة صُنعا، حين حافظَت على شرفها العلمي السامق، ونأت بنفسها عن تجاذُبات السياسة والسلطة، وذلك حين طلب منها الرئيس التونسي الباجي السبسي، إهداء الملك سلمان عاهل المملكة العربية السعودية شهادة الدكتوراه الفخرية، فرفضت قائلة: الشهادات تُمنح لأهل العلم فقط.

وفي هذا لا يسعنا إلّا القول: رحِم الله العقّاد الذي قِيل فيه: «فُجِع البيانُ بميتة العقّادِ،،والتفَّتْ الفُصحى بثوبِ حدادِ»، وذلك حين عرّف نفسه على طريقة مقامات الهمذاني والحريري واليازجي قائلا: «أديبٌ مشهور، وليس بليسانس ولا دكتور، وليس ببيك ولا باشا، ولكنّه يقول للبيك والباشا: كلّا وحاشا، وصاحب قلم مَسموع الصرير مَرهوب النفير، ولكن ليس بصاحب صحيفةٍ ولا بمديرٍ ولا برئيس تحرير ولا سكرتير تحرير».. فقد منعَتْه ظروفُه المعيشيّة القاسية، من حمْل لقَبٍ من تلك الألقاب، أو شهادةٍ من

تِلْكُم الشهادات التي سمّاها أصناما اجتماعية، وتَحدّاها بقوله: «سأصعد في هذه السماء صعودًا حيث تزحف الألقاب والعناوين»، وذلك بعدما توقّف أمَدُ دراسته عند المرحلة الابتدائية، ولكنّه صار وِساما في الذّوْد عن حِياض الإسلام، وتاجا فوق هام الأدب، وموسوعيًّا في الحياة، وفخْرًا لكلِّ مَن فاته قطارُ النياشين والأوْسمة الجامعيّة[١]، بل ولا يَجد في ذلك غضاضة ولا يَشعر بنقص، وإنّما كان مُعتزًّا بنفسه إلى أبعد حدّ؛ حتى عدَّ نفسَه أحد الخمسة الذين لا يتكرَّرون في مصر بجانب النيل والهرم وأبي الهول وأمّ كلثوم! وكأنِّي به يردِّد مع الشاعر محمد السنوسي قولَه:

«لسْتُ أدرِي ما الجامعات
وما فيها مِن الناجحين والرُسّابِ
جامعاتي هي الحياةُ وأُستاذي
هو الدّهْرُ صانعُ الطُلّابِ»

(١) يُذكَر أنّ جامعة القاهرة أَهدتْ العقّاد شهادة الدكتوراه الفخرية ولكنّه اعتذر عن قبولها.

ومِثْله العلّامة محمود محمد شاكر الملقَّب بشيخ العربية والمكنّى بأبي فهر، والذي لم يكمل دراسته الجامعية، ولكنه عكف على تعليم نفسه بعصامية قلّ لها في الوجود نظير، فصار رمزًا للأصالة حين غلب التغريب وقيِّما على المبادئ حين عبث بها العابثون، وربّما هذه الأصالة التي أطلق من خلالها النار على دعاة التغريب وكانت منجنيقا على مَن تطاول على التراث وتهجّم على العربيّة؛ هي التي حشرتْه في الزاوية وجعلتْه بعيدا عن الضوء الرسمي، وهو ما لم يَأسف عليه، فظلّ الحارس الأمين لِلُّغة والفارس النبيل في الأدب، حتى حاز جائزة الملك فيصل العالمية في اللغة العربية والأدب عام ١٩٨٤م، ووصفه الطناحي بأنّه رُزق عقل الشافعي وعبقريّة الخليل ولسان ابن حزم وشجاعة ابن تيمية.

ولعلّ بعضنا قرأ عن الشيخ المُحدِّث (الألباني)، الذي لم ينلْ مِن التعليم الرسمي إلّا الشهادة الابتدائية، ولكنّه بموسوعيّته في عِلم الحديث شَرُفت به الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوَّرة كأستاذ، وبات كما تقول العرب «تُثنَى عليهم الخناصر» للدلالة على التفرُّد

والتميُّز. إضافة إلى توماس أديسون الذي لم يمكثْ في الدراسة سوى ثلاثة أشهر، ومع هذا أضاء العالمَ بمصباحِه فلُقِّب بأمير الضوء، وسجّل ما يَربو على ألف اختراع. والإيطالي ماركوني، الذي لم يتحصّلْ على شهادةٍ في الهندسة، ومع ذلك فقد حاز جائزة نوبل في عام ١٩٠٩م على إثر اكتشافه للموجات الكهرومغناطيسية التي كانت الأساس لاختراع الراديو والتلغراف والأجهزة اللاسلكية. أمّا الكاتِبَيْن همنجواي وماركيز الحائزَيْن على جائزتَيْ نوبل في الآداب، فكُلُّ مؤهِّلاتهما الدراسيّة هي الشهادة الثانوية لا غيْر.

كلّ هؤلاء التحقوا بمدرسة الحياة وأكاديمية القراءة وجامعة الجِّد ومعهد العرَق؛ شوْقا للعِلْم، ونَهَما للإبداع، وحُبًّا للبذْل والعطاء، فحقّقوا ذاتَهم خارج أُطُر الجامعة وقيود الدراسة ولعبة الاختبارات ومهرجان الشهادات، فكانوا علاماتٍ فارقةً في تاريخ البشرية جمعاء.

ولعلّهم بذلك يؤكّدون على أنّ الغرض الأساسي من التعليم هو توجيه الروح إلى النور باعتياد التفكير المنتِج، وذلك على حدّ التعبير الأفلاطوني. ويُدلِّلون على أنَّ المعرفةَ حين تُطلَب للمعرفة لا للشّهادة، وأنَّ العِلم حين يُحصَّل لِلعلم لا للمكانة؛ فإنَّ الإزهارَ يكون أسرع والإثمارَ أفضل والإنتاجَ أوْفر، وفي ذلك ظُنَّ خيْرًا ولا تَسأل عن الخبر، وعُدَّ كثيرًا ولا تُحصِ العدَد، خاصّة بعدما وسَّع ميخائيل نعيمة دائرة اكتساب المعرفة إلى أبعد مَدى فقال: «المَعرِفةُ في كلّ مكان، والذين يَطلبونها في مكانٍ دون كلِّ الأمكنة، كالذين يَطلبون اللهَ في المعابد لا غير. فلا الله في المعابد وحدها، ولا المعرفة في المعاهد العِلميّة فقط». وهو ما قصده الكاتبُ والرسَّامُ الأمريكي هنري ميللر حين قال: «المُثقِّف -بكسر القاف- هو الحياة وليستْ وزارة التربية».

ورغم تَعدّد الشهاداتُ(١) في النوْع وتَدرّجها في المَرتبة؛ إلّا أنّها

(١) فارقٌ بين مدرسة الحياة التي يسبق فيها الاختبارُ التعليم، وبين مدرسة =

تظلّ وسيلةً لا غاية ووعاءً لا طعاما وكُوبًا لا ماء، وكما لا تَشْرُف الوسائلُ إلّا بالغايات ولا يُعتَدُّ بوعاءٍ خلَا مِن طعام شهي ولا يُشتهَى كوبٌ بلا ماءٍ زلال؛ فإنَّ الشهادةَ تبقى ورقة مُحبَّرة حتى يَنفخ فيها صاحبُها بأفكارِه وأخلاقِه روحَ الحياة وسرّ الوجود، وحتى يبادر بهزّ أكتافه تطبيقا للمثل الشاميّ الذي يقول: «تظلّ الشهادة ناقصة مالم يَصحبها هزّ الأكتاف»؛ وهزّ الأكتاف هنا كنايةٌ عن الجدّ والعمل؛ إذْ الأعمال خيْر ساردٍ وأفضل قاصّ.

وتبقى ها هنا رسالة..

لِكلِّ مَنْ انتفختْ أوداجُهم وتضخّمتْ ذاتُهم واختالتْ مشيتُهم مُحتجِّين بشهاداتهم وألقابهم: أنْ حنانيْكم.. فآفة العِلْم العُجْب، وأغلب الورْد تسكنه الحشرات، وكم مِن قاعِ نهرٍ غصَّ بالطحالب والوحْل، واقرأوا إنْ شئتم ما أوْردَه الماوردي في (أدب الدنيا والدِّين) مِن أنَّ: «التواضُع مع الشّرَف أشْرف مِن الشَّرف»، وما قاله

= الشهادات التي يأتي فيها التعليمُ قبل الاختبار.

ابن المعتزّ مِن أنَّ: «العُجْبَ شرُّ آفات العقل»، وما قاله ظالفريد دي موسيه: «ليس للرجل سوى مجد واحد حقيقي، هو التواضع».

ولِمَن فاتهم قطارُ الشهادات: ألّا تبتئسوا؛ فعبقريّات العقّاد شاهدكم، ومصباح أديسون حجّتكم، وراديو ماركوني دليلكم.. وطالِعوا إنْ شئتم نيّفا وأربعين مَثَلا مِن هؤلاء النوابغ في كتابٍ ماتع بعنوان (عظماء بلا مدارس)[1]، ولْيُبلغ الحاضر الغائب أنّ ١١٪ من أثرى أثرياء العالم لم يتخرّجوا في الجامعات.

ولِأولياء الأمور الذين يَبذلون الغالي والنّفيس في سبيل نيْل أولادهم أيّا مِن تلك الشّهادات: ليْتكم تبذلون المِثْل في بناء شخصيّتهم وتهذيب سلوكهم، فقيمة الشّهادة في حاملها وليْستْ في ذاتها، وحاشاكم أن تكونوا ممَّن يُكدِّسون أسفارًا على ظهْر أتان.

ولِلمُجتمع الذي يُنزِل الناسَ بحسب ألقابهم[2]: أن اعْدِلوا..

---

(١) الكتاب للمؤلِّف (عبد الله صالح الجمعة)، وهو من الكتب الأكثر مبيعا، والناشر دار العبيكان في ٢٠٠٧م.

(٢) يَروِي تاجُ الدين السُّبكي في ترجمته لقاضي قضاة مصر (ابن دقيق العيد)، =

فالألقاب مِن المجد براء، وكثْرة الألقاب ليستْ شرَفًا ولا عِزّا، وإلّا لكان الهِرُّ الذي يَملك مِن الألقاب العشرات هو مَلِك الغابة وسيِّد الحيوانات، واحفظوا في ذلك ما قاله الشَّاعر محمود غنيم:

«كم زُيِّن اسمٌ بألقابٍ مُكدَّسةٍ
وقد تَجرّد مِن زيْنٍ مُسَمّاهُ»

خَدعْتمونا بألقابٍ مُنمَّقةٍ
قد تَخدعُ الناسَ ألقابٌ وأسماءُ

الشاعر وليد الأعظمي

=

أنه كان لا يُلقِّب أحدا، وكان يخاطب السلطانَ ومَن دونه مِن العامّة بقوله: يا إنسان! ولعل ذلك يذكّرنا بقرآن المغول الذي وضعه قائدهم جنكيزخان، ونصّ فيه على تحريم تفخيم الألفاظ ومنْح الألقاب، وإنّما يُخاطَب السلطان ومَن دونه باسمه المجرّد.

[س]

أُحذِّركم (سوف)

على فراش الموْت تَنبُت الإجاباتُ السديدة والوصايا الحكيمة، فما بالك إذا كان مَن يرقد على ذاك الفراش هو حكيمٌ بحجم التابعيّ ابن عبد قيس، الذي تحلّق مُريدوه حوله على أمل الظّفر بوصية الوصايا وحِكْمة الحِكَم، فاعتصر السنين وحلب أشطر الدهر، ثمّ صدّق حدْسَهم وروَى غليلَهم بقوله: أُحذّركم (سوف).

وما يُقال في (سوف) ينسحب على (حرف السين)، باعتبارهما رفيقان[١] يَدخلان على الفعل المضارع دون أثر إعرابي لهما عليه؛ ولكنّهما يُفيدان الاستقبال والتنْفيس، ويَفِيان بغرض التسويف لدَى الهاربِين مِن استحقاق الزمن، والفارّين مِن قبضة (الآن) التي قال

(١) على قاعدة زيادة المعنى بزيادة المبنى؛ فإنَّ (سوف) أبعدُ مدى في الاستقبال والتنفيس.

عنها أوريزون ماردن: «ليس في ساعة الزمان الكبرى إلّا كلمة واحدة: الآن»، وأَصْدر شكسبير حُكمَه القراقوشيّ الباتّ بالقبْض عليها مِن مقدّمة رأسها.

هذه (السّوْف) التي تنقل الفِعل مِن اليوْم إلى الغَد أو اللاغَد، ومِن ضيق الحاضر الماثِل إلى بَرَاحِ المستقبل المجهول؛ تسرِق أصحابَها ومُقْتاتِيها؛ فتسلبهم الإنجازَ على سلّم النجاح وتمنحهم المماطلةَ والتسويفَ على منحدَر الفشل وخيْبة الأمل، وتسلبهم الفاعليّةَ والإيجابيّةَ وتمنحهم العطالةَ والبطالة، كما تسلبهم الشِرَّةَ وتمنحهم الفَترة، وهو ما حدا ببعضهم إلى وصْم تلك (السّوف) بأنها أكبر منافذ الكذب وجُندٌ من جنود إبليس وأوسعُ أبواب الجحيم، وذلك بعد أن ذمَّها الشِّعر فوصَفها بالدّاء الدّخيل الذي وجَب طرْحه أرضا ومفارقته فورا حين قال:

«أيّها السّكرانُ بالآمال قد حان الرّحيل

فانتبِه مِن رقْدةِ الغفْلةِ فالعُمْر قليل

وَاطّرِحْ (سوفَ) وَ(حتّى) فهُما داءٌ دخِيل»

ويُعتبَر التسويف أخطر أمراض إدارة الوقت وأشدّ آفاته[١] فتكـا؛ فهو فنّ مواكَبة الأمْس والعيْش فيه، وذلك عبْر تمطيط الزّمن إلى ما لا نهاية، ومِن خلال تغييب الحاضر في ضبابيّةِ مستقبلٍ لا ضمان له وفي وعْدٍ كدَيْنٍ لا يَحين موعدُ الوفاء به، لتصبح العادة هي التأجيل المُتعمَّد لما يَطرأ مِن أعمال وجَبَ تنفيذها، حتى لو كان عنوانُها مُهمّا وتصنيفها عاجلا، مع ما يصحب ذلك لا حقا مِن أَسى الفوْت[٢] وندَم الضّياع وعضّ الأنامل وزفرات (آه لو فعلْت، آه لو فعلْت) ... فأشدّ الغُصَص فوْت الفُرَص كما يقول المثَل. مع الأخذ في الحسبان أنّ التسويف يخصم من الرصيد الزمني للعمل المؤجَّل، ويحرمه من الوقت الكافي للإتيان به على جودته المعهودة، هذا في حالة ما لو تمّ إنجازه بعد المماطلة. واقرأ في ذلك ما سطّره الشاعر الفرنسي شارل بودلير في يومياته قائلا: ما من عمل

---

(١) آفات الوقت تشمل الفراغ، واللهو، والغيبة، والتسويف، والغفلة.

(٢) على طريقة المعادلات الرياضية؛ ذكر جيمس آر في كتابه (دع التسويف وابدأ العمل)، أن التسويف= أ + ب، وأن أ= تأجيل أعمال ينبغي أداؤها، بينما ب= إحساس بالذنب لعدم القيام بالعمل المؤجَّل.

طويل إلّا ذاك الذي لا تجرؤ على الشروع فيه، إنه يتحول إلى كابوس، وبتأجيل ما يجب علينا القيام به، قد نقع في المحذور: أن لا نستطيع القيام به.

وفي الوقت الذي يُعتبر حُبّ العمل والإيمان به، إضافة إلى المعرفة به والإلمام بمهاراته، هو أُولى مراتب النجاح في عمل ما أيّا كان نوعه، فإنَّ تسويفَ العمل والمراوغة في الإقدام عليه؛ دليل على مقْته، ومؤشِّر على غياب الحماسة تجاهه وانخفاض حرارة الحُبّ نحوه، وهو ما يُعتبر أقْصر بداية لأسْوأ نهاية. أَضِف إلى ذلك أنّ للأفعال والأقوال والأفكار تاريخ صلاحية تماما كالطعام والدواء، ولا ينبغي تعاطيها بعد انتهاء صلاحيتها بالتسويف الذي يُفسدها كما يَفسَد الطعامُ والدواءُ بسوء التخزين. ولعلّنا نلحظ أنّ التسويف أكثر ما يكون في الأعمال التي لا تعطي مردودا سريعا وعائدا لحْظيا؛ على اعتبار أنّ الإنسان عجول الطبع ملول. وفي تلك التي تحتاج قدرًا عاليا من الجهد وتتسبّب في نوع ما من الألم؛ على اعتبار أنّ البشرَ عامة يميلون إلى الأسهل ويحيدون بعيدا عن الألم الذي يعدّونه أعدى أعدائهم. وفي ذلك صاغ بيير ستيل معادلة

رياضية[١] ضمَّنها كتابَه المُعنْون(معادلة التسويف)، وخَلُص فيه إلى استنتاج العلاقة العكسية بين التحفيز والتسويف، ثمّ وضع الخُطّة لزيادة التحفيز المؤدّي بالتبعية إلى تقليل التسويف.

والمُسوِّف شخصٌ غافل، غرَّه طولُ الأمل؛ فوثِق بالمستقبل وأَيِس مِن الحاضر، وفضَّل دجاجةَ الغدِ على بيْضة اليوم، وجعل خيرَ بِرِّه آجِله لا عاجِله، وكان كما وصَفه الشيخ الغزالي بأنّه: «يَذهل عن يومِه في ارتقاب غدِه، ولا يَزال كذلك حتى يَنقضِي أجلُه ويديْه صِفرٌ مِن أيّ خير»، علاوة على أنّه بَنى حياتَه على نقيض الفهم السّدِيد الذي يقول بأنَّ مَن عجَز عن امتلاك الحاضر والعيْش فيه كان أَعْجز عن امتلاك المستقبل والإفادة منه، وأنَّ مَن يكسر عصا الحاضر لا يَجد ما يَتّكِئ عليه في المستقبل، وأنّ تأجيل المشكلات لا يحلّها ولكنّه يضيف إليها مشكلة التأخير؛ حتى قِيل إنّ التأجيل هو فنّ مُصاحبة الفشل، وقيل إنّ ما يمكن القيام به في أيّ وقت لن يُؤدَّى في أيّ وقت.

(١) التحفيز= (قيمة عائد العمل× توقعك لقدرتك على تنفيذ العمل) ÷ (الوقت المطلوب للحصول على العائد× مقدار الضعف أمام المشتتات).

وبيْن الإقدام قبل الأوان والهَمِّ بعد الفوات -وكلاهما خطل وحمق- يقع التسويف الذي يُضيِّع الفرصة تلو الفرصة، حتى يصطدم صاحبُه بالجدار ويَقع فريسة لليأس والإحباط، وهو ما علَّل به آخرُ خلفاء الدولة الأموية (مروان بن محمد) هزيمتَهم أمام العباسيين في معركة (الزاب الأكبر) رغم التفاوت الكبير بينهما في العُدّة فقال: «إذا انقضَت المُدّةُ لم تنفع العُدّة». وهنا نَذكُر أنَّ ساعة تأخير واحدة في اليوم الرابع عشر مِن فبراير عام ١٨٧٦م، هي مَا حرَمت المخترِع الثاني للهاتف (إليشا غراي) مِن تسجيل اسمه في سجلات الشرف، وفَوَّتتْ عليه مكاسبَ مادية جمَّة حصل عليها المخترِع الأول (ألكسندر غراهام بيل)(١) الذي اقتنص الفرصة وابتدر الوقت وفاز بالكعكة. وفي هذا روَى أوريزون ماردن في كتابه (سبيلك إلى الشهرة)؛ أنّ زائرًا دخل إلى معمل، فرأى بين تماثيل

(١) في عام ٢٠٠٢م، اعترف مجلس النوّاب الأمريكي بأنّ المخترع الحقيقي لفكرة الهاتف هو الإيطالي أنطونيو ميوتشي، وذلك بعد نزاع قضائي مطوّل حُسم لصالحه في نهاية الشوط، وهو ما لم يعلم به أنطونيو الذي تُوفِّي قبل ١١٣ عاما، أي في ١٨٨٩م!

الآلهة المصطفّة به، تمثالَ إلهٍ وجهه مغطًّى بالشَّعر وأجنحته في قدميْه لا جنبيْه، فسأل: ما اسم هذا الإله؟ فأجابه النحّات: هو الفرصة. فقال ولِم هو مُخبِّئ وجهَه؟ فأجاب: لأنّ الناس قلّما يعرفونه حين يجيء إليهم، ثمّ سأل الزائرُ ثالثة: ولِم أجنحته على قدميه؟ فقال النحّات: لأنه يذهب حالا، وإذا ذهب فلا أمل لأحدٍ في اللحاق به.

وإذا كانت القوّة في ألّا نؤخّر عملَ اليوم إلى الغد على حدّ تعبير الفاروق عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، والذي استلْهمه مِن وصية الصدِّيق (أبي بكر) له حال اسْتخلافه قائلا: «إنَّ لِلّه عملا بالليل لا يَقبله بالنهار، وإنَّ لِلّه عملا بالنهار لا يَقبله بالليل»؛ فإنّ الضّعف والخوَر يَسكن في جلباب التسويف، الذي حِيكتْ خيوطُه مِن التردّد والكسل والاتّكال، ونُسِج غزْلُه مِن غياب الرؤية وفتور العزيمة وانعدام المسئولية، واستحقَّ عن جدارة لقب لصّ الزمَن...

ولهذا كان الوقت أحد الثُلاثيّة التي تتكوّن منها المعادلة الحضاريّة (الإنسان، والتراب، والوقت) التي أومأ إليها مالك بن نبي بقوله: «إنّ الزمنَ نهر قديم يَعبر العالَم، فيروِي في أربع وعشرين

ساعة الرقعةَ التي يعيش فيها كلّ شعب والحقلَ الذي يعمل به، ولكن هذه الساعات -التي تصبح تاريخا هنا وهناك-قد تصير عدما إذا مرّت فوق رؤوس لا تَسمع خريرَها»، بعكس التسويف الذي يَنفث الساعات والأيام بلا اكتراث كما يَنفث المدخِّنُ مالَه وصحتَه ودِينَه في الهواء.

واسْمع في ذلك ما رواه أحدُ كبار الأطباء النفسيين (وليم سادلر)، مِن أنَّ مدير إحدى المؤسسات الكبرى بشيكاغو، جاء إلى عيادته شاكيا مِن التعب والإجهاد، وبينما هو يَروي قصته، دقَّ جرس الهاتف، وإذا بمدير مَشفاه يَطلب منه موافاته بتقرير عن أمر ما، فسارَع بكتابة التقرير وإرساله، ثمَّ عاد يَستمع لشكوى زائره، ولكنَّ جرس الهاتف عاود الرنين، وكان هناك طلب عاجل، فبادر إلى تلبيته، وما كاد يَنتهي حتى جاءه زميلٌ يَستشيره في أمر مريض حالته خطرة، فأدلى بالمشورة، ثمّ أَقبل على زائره معتذِرا ومتأسِّفا، وإذْ بمريضه -رجل الأعمال- يقول: لا داعي للاعتذار، فقد عثرتُ الآن على مصدر عِلّتي وتعلَّمتُ منك عمليا أنَّ علاجي يَكمن في إنجاز أعمالي أوّلا بأول دونما تأجيل أو تسويف.

وفي هـذا يُحـدِّثنا التـاريخ -وهـو خيْـر محـدِّث- أنّ الاسـكندر الأكبر عندما سُئِل: كيف استطعْتَ التغلُّب على العالَم أجمع؟ قـال: بعـدم التسـويف. ومنـذ ألفـين وخمسـمائة عـام وحكـيمُ الصـين (كونفوشيوس) يَهتف في أذن البشرية بـأنّ «طريق الألـف ميل يبدأ بخطوة»، ومِن ورائِه خبراءُ النّجاح يُردِّدون على مسامعِنا كلّ يوم «دعُونا نبدأ»؛ ولكنّ السِّينيِّين والسَّوْفِيِّين يُجيبون: دعُونا نُؤجِّل؛ فيُحجِمون عن الخَطْو، ويقذفون المستقبلَ بأحجار الحاضر؛ لِيُضيفوا للألْف خطوة آلافا أخرى، ولِيَبقى محرّكُ مركبتهم باردا، وتظلّ جدرانُهم صمّاء دون باب أو مفتاح.

على أنّ أسوأ التسويف هو ما يكون في تأجيل الطاعات والقرُبات، وفي تأخير التوبة والإنابة؛ وهو ما حذّر منه (لقمان الحكيم) ولَدَه حين أوصاه قائلا: «مَن ترَك المبادرةَ إلى التوبة بالتسويف، كان بيْن خطريْن عظيميْن؛ أحدهما، أنْ تتراكم الظُّلمةُ على قلبه مِن المعاصي فلا يَقبل المَحْو. وثانيهما، أنْ يعاجله المرضُ أو الموتُ فلا يجد المهلة للمَحْو».

وهنا وجب التأكيد على أنّ كلَّ تأجيل ليس بتسويف؛ فقد تنعقد نيّةُ الفعل وتجتمع إرادةُ التنفيذ، ثمّ تُؤخِّره يدُ قدَرٍ قاهرٍ

لا فكاك منه، أو نداءُ عقلٍ يَطلب مزيدا مِن الإيضاح والدراسة والاستعداد، أو خطّةُ عملٍ تُعيد ترتيب الأولويات حسب الأهمّ فالمهمّ والأصعب فالأسهل والضّفادع فالضّفيْدِعات على رأي الخبير الإداري برايان تريسي.

كما قد يقف وراء التأجيل همّة عالية لا تَرضى غير الإتقان بديلا؛ مثلما الحال مع الشاعر زهير بن أبي سلمى؛ الذي اعتاد نظم القصيدة في أربعة أشهر، ثمّ تنقيحها وتهذيبها في أربعة أشهر، قبل أن يَعرضها على نوابغ الشِّعر مِن أقرانه النقّاد لأربعة أشهر أخرى، فتكتمل بذلك عدّة السنة وتُسمَّى حوْليّة ويُعرف صاحبها بشاعر الحوليّات(١). أو يكون التأجيل بسبب محبّة قلبية تتوخّى الأفْضلَ وتتخيّر الأجْمل؛ كحال (سوف) التي أَرجأَ بها نبيّ الله (يعقوب) استغفارَه ودعاءَه لأبنائه، ليتحيّن ساعةَ إجابةٍ في وقت السّحَر كما فسّرها ابنُ عباس، أو في ليلة الجمعة كما فسّرها آخَرون... ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

---

(١) في هذا قال أحدُ الشعراء:

«لا تَعرِضنَّ على الرُّواةِ قصيدةً   مالم تكن بالغْتَ في تهذيبها
وإذا عَرضتَ الشعرَ غير مُهذَّبٍ   عَدُّوهُ منك وساوسًا تَهذِي بها»

السّادة المُسوِّفون الكرام:

إلى متى ستظلّ (سَوْف) اليعقوبيّة تنادينا بما فيها مِن جمال وجلال، بينما نستغشِي ثيابَنا ونضَع أصابعَنا في آذاننا، سادِرين سائِرين في ركاب (سَوْف) التسويفيّة، حتى لو انكفأْنا وتَعثّرْنا؟!

وإلى متى نصم آذاننا عن دقّات الساعة التي تعلن وداعَ الماضي وتدعو لاستقبال الحاضر والاستعداد للمستقبَل ؟!

وإلى متى تطيش أيدينا في صفحة الحياة فنأخذ مِن غدِنا ليومِنا ولا نَغرف مِن يومِنا لغدِنا؟!

وإلى متى سنبقى مُعرِضين عن قول الشاعر:

«ولا أُؤَخِر شُغلَ اليومِ عنْ كسَلٍ
إلى غدٍ إنّ يومَ العاجزين غَدُ»

ربّما لا توجد وصفة ثابتة وجاهزة للتخلّص مِن ربقة هذه الآفة وكسْر قيدها، ولكن المؤكَّد أنّ هندسة الوقت، واستعادة ذاكرة الأهداف، وتجزئة المهام الصعبة، والعمل في بيئة محفِّزة، وقهْر رهبة البدايات (التي عادة ما أُشبِّهها بالولادات)، وتقديم الأَهمّ والمُحَبَّب مِن الأعمال، والاستعانة بالوسائل الحديثة -دونما

تفريط أو إفراط-؛ هي خطوات كفيلة بعبور عتبة هذا التسويف، وطيّ سِفْر ذاك التأجيل، والوصول لأفضل الطرق لاستثمار الوقت والعبور إلى بوابة النجاح والرقيّ.

قـــال الوقـــتُ للنّـــاسِ وداعـــا
إنِّـــي أَنْفـــسُ شـــيء في الوجـــود

كامل كيلاني

[ش]

حريقُ الشكوى
ورحيقُ الشكر

بيْن (ش) الشّكْوى و(ش) الشّكْر مسافة ليست بعيدة وهوّة غيْر سحيقة، ولكنّها على قُربها ودُنوّها، عصيّة على القطْع وعسيرة على العبور، فلا يقْوَى على اجتيازها إلّا القليلون الذين يملكون إيمانا راسخا، وجَنانا ثابتا، وقلبا قانعا، ونفسًا راضية مُطمئنّة. وما ذلك إلّا لأن تلك القلّة تبصر الحياة بنظرة محيطيّة، وترى الأحداث بمنظار ذي عينيْن، وتقيس الأمور بمقياس ذي زوايا أربع، وتضيف إلى سباعية ألوان الطيْف سبعين أخرى أو تزيد؛ فتستعيض عن الشكوى مِن شحّ المال بالشكر على وفْرة الصحة، وتستبدل الشكر على الغِنى وبحبوحة العيش بالشكاية مِن العقْم وانقطاع النسل، وتداوي شكواها من ضغْط العمل وأعباء الوظيفة بالشكر على النّجاة مِن مَلل البطالة وألم التسكّع، وتصرع شكايتَها مِن ضيق

المسْكن وبَساطة العيْش بالشكر على الإفلات مِن مرارة التشرّد وذلّ المسألة، وهي في ذلك تهتدي بالحكمة القائلة: «مَن شكا الدّهرَ طالتْ شكواه»، وتتمثّل قولَ الحقّ -جلّ وعلا- ﴿لئن شكَرْتم لأزيدنَّكم﴾[1]، وتمتثل مع نبي الله موسى للأمر الإلهي: ﴿فخُذ ما آتيتك وكن من الشاكرين﴾[2]. كما أنها بذلك فضلت الضياءَ على الضوضاء والمطر على الرعد والحجيج على الضجيج؛ فمارست فلسفة الاستعلاء التي يَنتعل فيها الشخصُ كعبَ الأمل العالي ويَطَأ بلاطَ الإنجاز بثقة وثبات، مُتجاهلًا صُراخ الشّاكين الذين يَتعثّرون في أحذية اليأس الطويلة الواطئة ويّتمرّغون على رمال الإحباط الخشنة الداكنة.

تقول أمثالُ العرب: «كلّ ممنوع مرغوب»، وهو نفس المعنى الذي ساقه جبران خليل نثْرا حين قال: «إنَّ ما نتوق إليه ونعجز عن الوصول إليه هو أحبّ إلى قلوبنا ممّا قد حصلنا عليه»، وصاغه

(١) إبراهيم: ٧.
(٢) الأعراف: ١٤٤.

شوبنهور في عبارته الفلسفيّة القائلة: «ما أقلّ ما نفكِّر فيما لدينا، وما أكثر ما نفكِّر فيما ينقصنا».. ولربّما في ذلك تفسير لسلوكَ الشاكِين الذين يَنظرون إلى ما ليس في أيديهم ويَتوقون إلى ما ليس لهم، وتشريح لنفوس الحانِقين الذين يَسيل لعابُهم على ما ليْس مِن حقِّهم ويدورون عكس اتجاه الأقدار[(١)].

وبالمقابل، فإنّ هنالك مفارقات تستحقّ الوقفة والمراجَعة؛ ذلك أنّ معظم شكوانا تذهب إلى شِباك مَن لا يملكون للأمرِ المَشكُو ناقة ولا جملا ولا يقدّمون له نقيرا ولا قطميرا، قانِعين منهم بهزّ الرؤوس ومصْمصة الشّفاه وبعض الزفرات والتنهيدات. فضلا عن أنّ بعضَ شكرِنا قد يُخطئ طريقَه ويَضلّ سبيلَه، فيذهب إلى مَن لا يستحقّون؛ إمّا عن رغبة تُشير إلى التملّق والنفاق، وإمّا عن رهبة تنبئ بالضعف والجُبن. وما كان ذاك كذاك إلّا حين فقدْنا البوصلة التي تضبط اتجاه شكوانا تجاه الخالق لا المخلوق

---

(١) يقول الحافظ إبراهيم الحربي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «أجمع عقلاء كلّ أمة على أنه مَن لم يَجرِ مع القدر لم يتهنَّأ بعيشه»

والـرازق لا المـرزوق، وتحـدِّد قِبلـة شـكرنا ناحيـة الواهـب لا الموهوب والراحِم لا المرحوم والمُسبِّب لا السبَب.

ولابدّ أنّك عزيزي القارئ قد تعثَّرت في دروب الحياة بإحدى الشخصيات العدميّة التي تتزعّم دولة الشكوى، وتُوزّع بطاقات النّواح والانتحاب، وتَجعل مِن الحياة حائط مَبكَى؛ فتعزف لحنَ الأُفِّ صباح مساء، وتَشكو كلَّ شيء لِكلِّ شيء، ولا تملك مِن فرشاة الألوان إلّا الأسود الفاحم، ولا تفقَه مِن تعابير الوجْه إلّا تقطيب الحاجبَيْن وذمّ الشّفتَيْن، فكانتْ بؤرةَ صديد تأكل نفسَها وروايةً رذيلة تنفث قبْحَها وعلّةً خبيثة تنشر عدْواها. وما شكواهم في الحقيقة إلّا عكّاز فشل يُداوون به عجزَهم، ويُسوِّغون به أخطاءَهم، ويُبدّدون به ما تبقّى لديهم مِن طاقة عمل ووقود إنجاز. بل إنَّ بعضَهم يَذهب بعيدا فيَعدّ المصائب عدّا ويَكيلها كيْلا وكأنّ سهام الدّهر كلِّها قد صُوِّبت تجاه نحْره، بينما يَنسى النِّعم التي يرفل فيها وكأنّ سحابتَها لم تُمطر أرضَه يوما، وهو ما يَستحقّ لقب الكَنود بامتياز. فضلا عن أن الوقت والجهد الذي يهدرونه في التذمّر والشكوى، قد يكون كافيا لإصلاح ما يَتذمَّرون منه ويَشكون.

وربّما أَسعدَكَ القدرُ وأَغناكَ العقلُ فكنتَ في عداد الأخيار الذين يقطنون دولة الشكر، مِمّن اتّسعتْ صدورُهم وانبسطتْ وجوهُهم ولان منطقُهم وسخَتْ أكفُّهم، فكانوا لله حامِدين(١)، وللنّاس شاكِرين، وللحياة واحة غنّاء ودوْحة وارفة الظلال وبِحارا لا تُكدِّرها الدِّلاء. وكانوا مِن الخواصّ الذي يَشكرون على قوت القلوب لا قوت الأبدان وعلى المَكاره قبل المَحابّ، ومِن العقلاء الذين ينظرون في أمور الدنيا إلى مَن دونهم فيُريحون ويَستريحون، ومِن الصفوة التي جرَى شكرُ الله على ألسنتهم ثناءً واعترافا بعد أن سكَن قلوبَهم شهودا ومَحبّة وعَمَّ جوارحهَم انقيادا وطاعة، إذْ الشُّكر على تقسيم العارفين ثلاثة: شكْرٌ قلبي؛ وفيه الاعتقاد بأفضال الله والاعتراف بنعمه وآلائه، وشكْرٌ لساني يلهج بكلمات الحمد وعبارات الشكر على اعتبار أنّ الكلامَ على الفؤاد دليلُ، وشكْرٌ

(١) يقول ابن منظور في لسانه: الحمْدُ والشكْرُ متقاربان، والحمْد أَعَمّهما، لأنك تحمد الإنسانَ على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته...بمعنى أنَّ الشكر لا يكون إلا عن يد، أمّا الحمد فقد يكون عن يد وعن غير يد.

عملي يُترجم النّعمةَ إلى طاعةٍ وعبادةٍ ونفقةٍ في سبيل الله.

مِن هؤلاء العدَمِيِّين الذين يَشينون الحياة؛ ذلك المُريد الذي نقم على الدّهر، فشكا لشيخِه مِن فساد البشَر في المدَر والوَبر، ونشَد الانسحاب والانعزال، وتَمنّى العيشَ في زمَن النّبوة، فردّه شيخُه قائلا؛ ارْضَ بدنياك فمَن أدراك أنّك لن تكون أبا جهل..

وفي ذلك رُوِي أنَّ مجتمعا ضجّ بالشكوى وجأر بالصياح واعْتاش على التذمُّر، فما كان مِن الملِك إلّا أن اسْتدعى الحكيم وأعطاه مهلة قصيرة ليرى في الناس رأيه ويُضمِّد جراحهم؛ فجمعهم الحكيمُ في ساحة، وأمر كلّا منهم بكتابة شكواه ووضْعها في صندوق ماثل أمامهم، ثمّ هزَّ الصندوقَ هزّا ورَجَّه رَجّا، وبعدها مَدَّ كلٌّ فرد يده -حسبما اتفقوا- والتقط ورقة، فكان أن رضي كلٌّ منهم بحاله وطالب بالعودة إلى ما كان فيه؛ إذْ إنَّ مَن اشتكى فقرا في وَرَقته عَنَّ له مرضٌ في ورقته الجديدة، ومَن اشتكى عقما كان نصيبه فقرا، ومَن اشتكى مرَضا وافاه يُتم، ومَن فقد حبيبا جاءته عاهة .. وهكذا، مَن عايَن شكايةَ النّاس وعايش بلواهم؛ هانت عليه شكايتُه، وصغرت في عينه بَليّتُه.

أمّا زعماء دولة الشكر الذين يَزينون الحياة؛ فمَثلُهم سيدنا نوح -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- الذي شهد له المولى بذلك فقال: «ذُرِّيَّة مَن حملنا مع نوح إنّه كان عبدا شكورا»[١]، وخليل الله إبراهيم -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- الذي قرظه ربُّ العزة قائلا: «إنّ إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم»[٢]، وكذلك رهين المحبسيْن (أبي العلاء المَعريّ) حين قال: «إني أحمد الله على العمَى كما يَحمده غيري على البصَر»، وذلك الطفل في القصة الرمزية التي تقول؛ بأن أُمًّا عضَّها الفقرُ فسكنت مع طفلها كوخا بلا سقف، ولمَّا هطل المطر عليهم وحاصرهم مِن كل صوب، خلعوا باب الكوخ وأمالوه واحتموا به، وإذْ بالطفل يقول لأمِّه: محظوظين نحن يا أمِّي أنْ كان لكوخنا باب.

بالطبع ليس مقصودا أنْ نَغمط الحقّ في الشكوى، ولا مطلوبا أنْ نُلبس الشكوى لباس الشّكر اعتسافا؛ فبعض الشكوى تعبير عن

(١) الإسراء: ٣.

(٢) النحل: ١٢٠، ١٢١.

انزعاج داخلي، وتنفيس لضغْط وكرْب، ولفْت نظَر إلى سُوء، ومقدّمة لإصلاح، وحافز لتقدّم، ودليل على وعي، وضرورة لتوازن الفرد واستقامة المجتمع... وفي هذا شكَتْ خولةُ بنت ثعلبة زوجَها وشكا النبيُّ يعقوب حُزنَه وشكا النبيُّ موسى فقرَه وشكا النبيُّ أيوب ضُرّه وشكا النبيُّ محمّد -عليه وعليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام- ضعفَه وقلّة حيلته...

بل المقصود والمأمول هنا، أنْ نقتصد في شكوانا؛ بحيث تذهب إلى أصحاب المروءات(١) الذين يُحسنون صُنعا، وإلى ذوي الخبرة والاختصاص القادرين على الحلّ والعقد، وإلى أرباب الشفاعات(٢) الذين يُحِقّون الحقوق، وإلى مَن لا ينتظرون مِنّا

---

(١) المروءة كما ورد في المعجم الوجيز هي: «آداب نفسيّة تحمل الإنسانَ على اتّباع محاسن الأخلاق والعادات»، و فيها يغلب العقلُ الشهوة، ويعلو صاحبُها بشرف إنسانيته على رتبةِ الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

(٢) ليستْ الشكوى لغير الله دوما مَذلّة كما يُشاع على الألسنة، وفي هذا يقول الشاعر بشَّار بن برد:

«ولا بدّ مِن شكوى لذي مُروءة يُواسِيك أو يُسْليك أو يَتوجّع»

=

مُعلَّقات في الرثاء أو طقوسا في الذلّ وإراقة ماء الوجه أو البكاء حتى ذَهاب الأبصار! تماما كما هو مطلوب أن تَخلو شكوانا مِن السخط على القدر والاعتراض على المكتوب، إضافة إلى العمل على وضعها في إطار من العقْلنة والموضوعيّة.

مِن البديهي أن يبحث النّاس عن الفرِحين ويُديروا ظهورَهم للحَزانَى؛ فالفرح ترياقٌ يَشفِي بينما الحزن مرضٌ يُعدِي. ومِن الطبيعي كذلك أن نَفرَّ مِن الشّاكين ونُنقِّبَ عن الشاكرين؛ لأنّ الشكوى وقود الحزن بينما الشكر نبْع الفرح، ولأنَّ الشكوى حريقٌ يُدمّر بينما الشكر رحيقٌ يَبني، ولأنّ الشكوى طريق اليأس وبذرة الاكتئاب، بينما الشُّكر هو الحافِظ للموجود والجالِب للمفقود، وهو أيضا شطْر الإيمان كما قال الغزالي في إحيائِه، وغاية الخلْق كما قال ابن القيّم في (عدّة الصابرين) إبّان تعليقه على الآية الكريمة:

=

أما البوْح فيشجِّعه نجيب سرور حين يقول في لزومياته: «ماذا يضيرك أن تقول، أَلِق ما في القلب حتى للحجَر، أو ليس أحْفظ للنقوشِ مِن البشَر؟!

﴿ والله أخرجكم مِن بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ لعلّكم تَشكرون ﴾ [النحل: ٧٨].

«الإيمان الحق في قلة الشكوى وكثرة الشكر»

بديعُ الزمان النُّورسي

[ص]

سِحرُ الصحراء

طبيعيٌّ أنْ يعشَق البَدويُّ الصحراء فيُدبِّج في وصفِها أعذب النثر، وبديهيٌّ أنْ يهيم بها العربيّ القحّ فيَنظِم في حُبِّها درّ القصائد؛ فوسْط رمالها أَطْلق صرختَه الأولى حين وُلِد، وعلى تخوم آبارها نصب خيْمتَه وأسّس مرعاه ومارس تجارتَه، ومِن فيْض خيرها أَوْقدَ نارَه وأَنْضجَ لحمَه وحلبَ شاتَه وأكْرمَ ضيْفَه، وفي حِماها تعلَّمَ الفروسيّة فامتشق سلاحَه مدافِعا عن القبيلة، وصحَّ لسانُه فجاشتْ عواطفُه بالنّسِيب والمديح والغزَل، وفي كنَف هوائها الطّلْق وعيْشها البسيط عُمِّر طويلا قبل أن يَقضي فيها نحْبَه ويَحفر تحت رمالها لحْدَه. وقد قِيل لأعرابي: كيف تَبترِد بالبادية إذا انتصف النهارُ وانتعل كلُّ شئ ظلَّه؟.. فأجاب: وهل العيش إلّا هناك! .. يركض أحدُنا ميْلا فيَرْفَضُّ (أي يَتصبّب) عرَقا كالجُمان[1]، ثمّ يَنصب عصاه

---

(١) الجُمان هو اللؤلؤ، والمفرد جُمانة.

ويُلقي عليه كساءَه وتُقبل عليه الريحُ مِن كل جانـب، فكأنّـه في إيـوان كسرى.

إنها الصّحراء التي امتدّ سحرُها إلى جيل جديد؛ وُلِد في غـرفٍ مكيَّفـة، وارتحـل علـى مـتْن طـائرات البـوينج، وكـرع مـن حليـب المراعـي المُـثلَّج، ومـازال يـرى في تلـك البقـاع المعزولـة مُتنزَّهـا للفسحة ومَرفأ للمتعة ومُتنفَّسا للترويح...فيهرعـون إلى أحضـانها وحـدانا وزرافـات، تُقلّهـم سـياراتُ الـدفع الربـاعي، وتَصـحبهم ثلاجـات المـاء وأطايـب العصـائر، ولا يقفلـون إلّا وقـد تَغبّـرتْ سياراتُهم وفاحتْ برائحةُ الشّواء أفواهُهم وخلَّفَت النّارُ بصماتِها الحارقة على ملابسهم.

وهي ذاتها التي دشَّـن لهـا الأجانـبُ سياحة الصـحراء المُسـمّاة بالسّفارِي، ومِن أجـل عيونهـا الصُّفْر هجـروا (الشـانزلزيه) وملاهـي (ديـزني لانـد) وأبـراج (مانهـاتن) وسـاحة (الكونكـورد)، فشَـدّوا الرحال عبر البحار والمحيطات، وأَنفقوا الينّ واليورو والدولار، ثمَّ سطّروا في ذلك كتُبا ومُذكّرات غدَتْ الأكثر تـداولا والأعلى مَبيعـا، بـل ومـنهم مـن ذاب فيهـا عشـقا ووجـد بهـا العـلاج لآلام الحضـارة

الغربيـة، كالكاتـب الأمريكـي (ر.ن.س.بـودلي) الـذي قـال: «لقـد أقنعتْني الأعوامُ السبعة التي قضيتُها في الصحراء بين الأعـراب الرحّـل، أنَّ المُلتـاثين ومرضـى النفـوس والسـكّيرين الـذين تحفـل بهـم أمريكـا وأوروبا، ما هم إلّا ضحايا المدنيّة التي تتّخذ السرعةَ أساسا لها».

لماذا يا تُرى هذا العشق لبيْداء تبيد، ولماذا ذاك الحُبّ لفَلاة تفرّ وتتباعد كلّما توغّلنا فيها؟!

وما السِّرّ في الهيام بلوحةٍ صفراء باهتة، مُفْرداتها عقارب تلسع، وثعابين تلدغ، وذئاب تعوِي، وقيظ تتقطّع منه الحلوق، وقرّ تصطكّ لـه الأسـنان، وريـاح خماسـينية تعمـي الأبصـار، وسـراب بـلا شـراب، ومتاهـة بـلا قـرار، ورمـال ابتلَعـتْ في جوفهـا أُممـا تليـدة وحضـارات غابرة؟!

يُجيبك سـليلُ الصـحراء وابنهـا الـرؤوم، بلثامـه الطـوارقيّ الآتي من أعماق الصحراء الكبرى (الروائي إبراهيم الكوني)؛ فيصفها بأنها للـروح وطـن، وبأنهـا البـدن النحيـل الـذي يَكتنِـز الحقيقـة والرديـف الأكثـر حميميّـة لمفهـوم الحريّـة، وبأنهـا هـي مَـن أعـارتْ الحضـارة العمرانية كـلّ مقوّمـات الوجـود. ثـمّ يَعـزف علـى وتـرِه ويَقـرع علـى

طلبْه الشّاعرُ إيليا أبي ماضي فيقول:

«خُذوا الخُلُقَ الرّفيعَ مِن الصَّحارِي
فـإنَّ الـنّفسَ يُفسِـدها الزِّحـامُ
وكـمْ فقـدَتْ جلالتَهـا قصـورٌ
ولَـمْ تفقـدْ مروءتَهـا الخيـامُ»

ويُجيبك الدبلوماسي البريطاني (ويلفريد ثيسيجر) إبّان ذرْعه لصحراء الرُّبْع الخالي مُحاولا فكّ أختامها وفضّ بكارتها، وذلك عبْر كتابه (الرمال العربية)، فيقول: «حصلْتُ في الصحراء على حريّةٍ ما كنتُ لأحصل عليها في المدن، وعشْتُ فيها حياة لا تعرف القيود، فعرفتُ معنى الصحبة وواجبات الزمالة، وذُقتُ طعم الهدوء والطمأنينة والمتعة الحقيقية التي تنبع من القناعة والزهد».

كما يُجيبك ابنُ العِلم والإيمان (مصطفى محمود) في طيّات كتابه (مغامَرة في الصحراء) فيقول: «الصحراء كانت دائما مخبأً عظيما للحرية والحركات التحرّرية، وأوكارا للثوّار والمفكّرين، احتضنوا فيها أفكارَهم حضانة طويلة قبل أن تُفرغ زوابعَ غيَّرَتْ وجهَ الأمّة العربية».

تُرى هل هي أقلام الأدباء التي تَصنع مِن الملح شهدا ومِن الواقع أسطورة ومِن الصحراء فردوسا؟ أَمْ هي الحقيقة التي تشهد بأنَّ البداوة المتمثِّلة في الصحراء شوطٌ أساسي وطورٌ اجتماعي ومَعبَرٌ لا غِنى عنه في حضارات الأمم كافّة؟ أَم هي حيلة مَن لا حيلة له، حين تزكمه أدران المدنيّة، ويدمغه سُعار العمران، فيصبح كتاجر اضطَره الإفلاسُ لتقليب دفاتره القديمة وأوراقه العتيقة، حتى لو كانت تلك الدفاتر والأوراق ليست إلّا صحراء جرداء، مِن الصَّرف ممنوعة ومِن الجرّ بالكَسْر محرومة؟!

هنا تُجيب عيْن الحقيقة التى انجلى بصرُها فارتأتْ الشمسَ الصحراوية في نهارها أكبر حجما وأقوى ضوءا وأبهى جمالا، وأَبصرتْ نجومَ ليلها أكثر عددا وأدنى قربا وأشدّ لمعانا، وارتأتْ فيها مِن الجلال ما يفوق تأثير الجمال.

وتُجيب الأذُن التي تَناهى إلى سمْعِها قمرٌ يغرّد أغاريد الحُبّ، وسماءٌ تنشد القصائد اللازورديّة، وخريرُ ماء يعزف في الوديان أعذب الألحان.

وتُجيب النَّفْس التي استعادتْ شَمْلَها وهدوءَها وهناءَها؛ إذْ لا صحف، ولا مذياع، ولا تلفاز، ولا إنترنت، ولا ضجيج سيارات، ولا زحام[1] بشَر يَفترسون هدوءَك ويُنغِّصون صفاءَك ويَذبحون حبلَ أفكارك.

وتُجيب الروحُ التي حلّقتْ في تأمّلاتها؛ فاستشرَفَتْ الوحيَ في غار حراء، والرسالةَ فوق جبل الطور، والإيمانَ في كهف فتيةٍ ءامنوا بربّهم فزادهم هُدَى.

ويجيب الذّهن حين يَرى في البادية امتيازا على الحضَر؛ لِبعدها عن الترف الذي يسدل ستار اللهو والغفلة على الفكر، وقرْبها مِن حياة الجدّ والتأمّل الباعث على الفكر.

كما يجيب عبد المجيد دياب في معرض تقديمه وتحقيقه كتاب (مبادئ اللغة) لمؤلِّفه الخطيب الإسكافي فيقول: «ثمّ يأتي مصدر

(١) يقول رائد الطب النفسي (أحمد عكاشة)؛ بأن هناك علاقة عكسيّة بين الازدحام والصحّة النفسيّة، وأن قدرة الإنسان على الإبداع والابتكار تتطلّب العيش في مساحة جغرافية مقبولة، وأنّ البيئة المزدحمة تقلِّل من روح الجماعة وتغذِّي روح الفرديّة والأنانيّة.

رابع من مصادر جمع اللغة، كانت له قوّته وخطورته؛ وهذا المصدر هو الصحراء، وإليها كان يرحل العلماء، وفيها كانوا يخالطون الأعراب؛ يسمعون كلامهم، ويأكلون طعامهم، ويسجّلون كلّ ما يرونه هناك».

وفي هذا يُروَى عن الفرزدق أنه كان إذا استعصى عليه الشِّعر وهجَره شيطانُه، ركب ناقتَه وطاف في شعاب الجبال وبطون الأودية، فَلَان له الكلام وأَسْلَم له قيادَه. كما يَروِي التاريخُ في قرنه السابع الميلادي قصة ميْسون الكَلْبيّة؛ التي قتلها الشّوقُ إلى الصحراء، وأضناها الحنينُ إلى مسقط رأسها في البادية، فأدارتْ ظهرَها لقصر الإمارة برياضه الغنّاء وعيشه الرغيد وفراشه الوثير في كنف زوجها وأبي ولدها (معاوية ابن أبي سفيان) والي الشام آنذاك. كما أبْدت الملكة الإيرانية فرح بهلوي في مذكّراتها ندما شديدا على عدم تمكّنها من تحقيق أمنيتها في رفقة البدو لبضعة أيام والتّجوال في الصحراء على ظهر جمل. أمّا الشّاعر والوزير والسفير غازي القصيبي، فقد قال: «يُشرق الضوءُ في وجداني عندما أصلِّي وسْط صحراء شاسعة».

هي إذنْ نِسبيّة الجمال المادّي التي تجعل بعضَ الناس مبهوتا بجلال يفوق الجمال، وتجعل بعضًا آخَر مبهورا بجمال دون الجلال، بينما البقيَّة تَذمّ شفتيْها وتفتح كفّيْها وترفع كتفيْها باحثة عن الجلال الموهوم والجمال المزعوم الذي عرَّفه-الهاء عائدة على الجَمال - القاموس المحيط، فاستوْفَي رُكنيْه الماديّ والمعنويّ، وقال: «الحَسَنُ في الخَلْق والخُلُق».

وعلى طريقة قصّ الأثر، نتلمّس جانبا آخَر من روعة الصحراء، بعيدا عن صُفرة رمالها وحُمرة جبالها وزُرقة سمائها، فتبدو جليّة في شِيَم قاطنيها وأخلاق أهليها، على اعتبار أنّ البيوت بأهلها لا بسكّانها والأوطانَ بناسها لا بترابها، وذلك عبر ما سجّله صاحبُ كتاب (الرمال العربيّة) حين قال: «في خلال السنوات الخمس التي قضيتُها مع البدو لم أفقدْ يوما قطعة واحدة مِن النقود أو الذخيرة، مع أنَّ هذه كانت أثمن وأغلى شيء عندهم»، وحين قال: «ما رأيتُ أعرابيا قطّ يَضرِب جملا أو يَقسو عليه، بل رأيتُهم يُقبِّلون الجمالَ ويَربتون على ظهورها وهم يُتمْتمون بعبارات الحُبّ»، وحين قال: «قلّما يتحدَّث البدو عن الجِنس، فحُلمهم بالطعام لا بالمرأة»،

وحين قال: «سألتُ بعض بني الرشيد الذين زاروا الرياض كيف خاطَبوا المَلِك، فأجابوا في دهشة: « ناديناه عبد العزيز...بماذا كنتَ تريد أنْ نناديه)، قلت: تنادونه بياصاحب الجلالة. فأجابوا: إنَّما نحن بدو. وليس لنا مِن مَلِك إلا الله -سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ-»...ألَا ما أجمل الصَّحراء التي تَجمّلتْ بمَن فيها لا بِمَا فيها.

والحقّ أن بشرًا مرآتهم السماء وحمّامهم الشمس وحياتهم الماء لابدّ لهم من فضائل متميّزة، حتى لو فاتهم من المدنيّة الكثير، فيكفي أنهم تحرّروا من ضجيج الوفرة وحمّى التملّك ووطأة التعقيد، فنعموا بالسكينة التي هي بيت الحكمة، وبالصمت الذي هو تراب الفلسفة، وبالوحدة التي هي وقود الروح. ولا ننسى أن هذه الفضائل التى لمسها اليهودي النمساوي (ليوبولد فايس) في بدو صحراء سيناء بمصر وفي بدو صحراء الهفوف بالجزيرة كانت سببا من أسباب تحوُّله إلى المسلم الباكستاني الشهير (محمّد أسد).

وليتنا نذكر أن الحضارات القديمة كالمصرية والبابلية والسومرية والفينيقية، وغيرها، نشأت في جوار الماء وعلى ضفاف الأنهار، عدا الحضارة الإسلامية التي كانت الصحراء لها مولد

ومنطلق، وهو ما عبّر عنه الرافعي ببيت شعر بسيط رقيق قال فيه:

«إنمـا الإسـلام في الصـحراء امتهـد

ليجـــيء كـــلّ مســـلم أســـد»

وهو البيت الذي علّق عليه أديب الفقهاء الشيخ علي الطنطاوي بقوله: لو كان نثر الرافعي واضحا كله سهلا كشعره، لكـان كاتـب العربيّة في كلّ عصورها.

«ما يجعل الصحراء جميلة هو أنها تخفي واحة ما في مكان ما»

سانت إيكسوبيري

[ض]

لغة الضّاد

لو جاز التّحاسُد بين حروف الهجاء، لكان حرف الضّاد أوّل المحسودين وآخر الحاسِدين، وليس ذلك لِمالٍ آتاه الله إيّاه فأَنفَقه في سبيله أو لحكمة وهَبها إياه فعَلّمها لِعبادِه؛ ولكن لأنّه تَحوَّل مِن حرْف إلى لغة، وذلك حين خلع اللغويّون على اللغة العربية كُنيتَها -والكُنية عند العرب تبجيل واحترام- فكانتْ لغة الضّاد، وحين أصبحْنا نحن العرب أنجالَها وبَنِيها، بعدما سمّانا أبو هريرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- أبناء ماء السمّاء؛ نظرا لاعتماد حياة العرب قديما على المطر الذي تقوم عليه زراعتُهم ومَراعيهم.

ولو جاز التَّلاسُنُ بين حروف الهجاء وحرْف الضاد، لكانوا كالضفادع والحَبْحَب؛ وذلك يوْم أنْ رأت الضفادعُ حَبْحَبًا على حافة الغدير، فخرجَتْ إليه ساخطة غاضبة وراحتْ تبصق عليه، فقال الحَبْحَبُ: (ماذا فعلتُ بكم؟ ومِن أين جاءكم هذا الغضب؟)، فأجابَتْه قائلة:(وأنتَ مِن أين جاءك هذا اللمعان!)..والحَبْحَب مفرد

الحباحِب؛ وهو ذباب يُضيء ذنَبُه في الليل كالسِّراج. أمّا اللمعان فدلّ على مصدره قول الشاعر:

«ملِكُ المُلوك إذا وهَب قُمْ فاسْألنَّ عن السّبب
اللهُ يُعطي مَن يشاء فقِفْ عند حدودِ الأدَب»

واللغة بوجه عام ليستْ أصواتا أو رموزا[١] نحَتَها البشَرُ مِن الطبيعة الجامدة والحيّة، ثمّ اصطَلحوا عليها للتواصُل والتعبير والبوح فحسْب؛ بل هي وعاء الفكر والثقافة والإبداع، ومُستودَع التراث وخزانة العادات، وعنوان الهويّة ورمز الانتماء، والعنصر الحيويّ في إيجاد المجتمعات المستقرّة على حدِّ تعبير ثائر المشرِق جمال الدّين الأفغاني. ولا نُجانب الحقيقة إنْ قلنا أنَّ اللغة للشعوب فصيلةُ دم لا تتعدّد، وزِيٌّ قوميٌّ لا يَبْلَى، ونشيدٌ وطني لا يندثر، إضافة إلى أنّها كائنٌ حيّ يموج كالبحر، وينمو كالطفل، ويتجدّد كالهواء[٢]..

(١) تقول دائرة المعارف البريطانية بأنّ اللغة نظام مِن الرموز الصوتية..وعلى هذا فهي تنتمي إلى عِلم السيميولوجيا أي عِلم الرموز.

(٢) في هذا المعنى يقول الشاعر نزار قبّاني أن اللغة كالشجرة، قابلة للتلقيح والتشذيب والتقليم، بحيث تكتسب أشكالا جديدة وإيقاعا جديدا وعادات جديدة.

ولِذا كان أحد التعريفات العديدة للإنسان أنّه «كائنٌ ناطِق»، وكانتْ وصيّة الحسن بن سهْل لبنِيه: «كلّما كُنتم بالنُّطْق -أي باللغة- أَحْذق كُنتم بالإنسانيّة أَحقّ»، وكان تركيز الاستعمار على محْو الذاكرة اللغوية القومية كأحد الأدوات الرئيسة لتوطيد أقدامه وترسيخ احتلاله، حتى إنَّ أحدَ المسؤولين الفرنسيين، إبّان الاستعمار الفرنسي للجزائر، قالها صراحة ودون مواربة: «الجزائر لن تكون فرنسية فعلا، إلّا إذا أصبحت لغتنا الفرنسية فيها هي السيّدة».

أما لغة الضّاد التي وصفها ابن جنّي باللغة الشجاعة، ولقَّبها الرافعي باللغة القويّة المتينة، وعَرَّفها موقعُ الأمم المتحدة الالكترونيّ بأنها اللغة المقدَّسة؛ فقد سمّاها العقّاد باللّغة الشّاعِرة، وكَنَّاها بلغة المَجاز، وشهد لها بأنّها أقدم اللّغات الحيّة وأعرقها تطوّرا؛ باعتبار مَنشئها[1] الذي يَمتدّ إلى طلائع العرب العارِبة البائِدة مِن قوم (عاد) الذين سكنوا الأحقاف في جنوب الجزيرة العربية.

---

(١) يقول الخالدي في كتابه (القصص القرآني): «إنَّ قضية نشأة اللغة العربية، وهل هي توقيفيّة أم وضعيّة، فيها خلاف، ويَصعب الجزم برأي قاطع في ذلك، مع أننا نميل إلى أنها وضعيّة وليست توقيفيّة، وأنَّ النطق بها حادث بعد قرون من نزول آدم إلى الأرض، وأنَّ قوم عاد هم أوّل الناطقين بها».

كما أنها يَتحدّث بها ما يناهِز الأربعمائة مليون نسمة، ويَتعبّد بها ما يَزيد على رُبْع سكان العالم، وتُعتبَر خامس أو سادس لغة مِن حيث عدد المتحدِّثين بها؛ حيث يوجد في العالم ما يَفوق الخمسة آلاف لغة، يَتسنّم قِمَّتَها اللّغتان الصِّينيّة والهندوكيّة ثمّ تَليهما الإسبانية، والإنجليزية التي قد يَعجب بعضُنا مِن أنّ عمرَها لا يزيد عن خمسمائة عام فقط.

هذا وتَنتمي اللغةُ العربية إلى اللغات ذات النسَق الحُرّ، وتتفرّدْ بحرف الضاد عن بقيّة اللغات، وتمتاز بقوانينها اللغوية الثابتة في النحو والصرف والكتابة إضافة إلى خاصّيتيْ التَّثْنية والتّشكيل، كما شكَّلتْ حروفُها العمود الفقري للُّغتيْن الفارسيّة والأورديّة(١)، وغزَتْ بعض مصطلحاتها العديدَ مِن اللغات الأوروبيّة والإفريقيّة؛ كاللغة السواحلية التي يتحدّث بها الشرق الإفريقي، وتحتل فيها المفردات العربية نحو ٦٥٪ من محتواها اللفظي، وذلك بفضل

(١) كانت الحروف العربية كذلك هي عماد اللغة التركية، وذلك حتى عام ١٩٢٨م حين أقْدم أتاتورك على إبدالها بالحروف اللاتينية ضمن خطته لتغريب وعلمنة المجتمع التركي.

نزوح اليمنيين والعمانيين إلى تلك المناطق في عصور غابرة. أضف إلى ذلك سعة الاشتقاق فيها ووفرة المفردات(١) بها، حيث سبقَتْ فيها الألفاظُ الأغراضَ فأمْكَننا التعبير عن المعنى الواحد بأكثر مِن مُصطلَح، بعكس لُغةٍ كالإنجليزية التي يُعَبِّر المصطلَح الواحد بها عن العديد من المعاني، كما يُؤكّد دارسو اللّغات واللسانيات أنّ اللغة العربية تُعطي مُتحدِّثيها ميزة سهولة التعلُّم والتحدّث باللغات الأجنبية؛ وذلك لثرائِها وبَذخِها في الحروف والتراكيب والنَّبرات .. وهذا ما عَناه الإمامُ الشافعي حين قال: «لسانُ العرب أوْسعُ الألسنة مذهبا، وأكثرها ألفاظا، وما نعلم أحدا يُحيط بجميعِها غير نبيّ»، ولعلَّ في قاموس أبي هلال العسكري الخاص ببقية الأشياء ومُسَمَّياتها، مِثل ما يبقى في الضرع من اللبن وما يبقى من الطعام بين الأسنان وما يبقى من المرق في أسفل القدر، وغير ذلك من البقايا، ما يُدلِّل على هذا الثراء اللغوي وذاك البذخ الضّاديّ.

---

(١) في إحصاء مقارِن لعدد الكلمات في اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والروسية طبقا لأكبر المراجع المتوفّرة، كانت الأعداد كما يلي وبالترتيب: ١٢,٣٠٢,٩١٢/ ٦٠٠,٠٠٠/ ١٥٠,٠٠٠/ ١٣٠,٠٠٠ كلمة.

وكمـا كـان لِلُغـة الضّـاد أجـدادٌ مهَـرة وآبـاءٌ بـرَرَة صـانوها وجدَّدوها؛ بدءا بسيبويه، ومرورا بأبي الأسود الدؤلي والخليل بن أحمد الفراهيدي ونصر بن عاصم ويحيى بن يَعْمر، وصولًا إلى المحدَثين كالرافعي وأبي فهر وشوقي وغيرهم، فإنَّ لها كذلك أبناء عاقّين رفعوا عليها معاولَهم وشدّوا لها قوسَهم ورشَقوها بسهامهم؛ فهجَروها ومارسوا عليها البغاء في لافتات الشوارع(١)، ووسائل الإعلام، وقاعات الدرس، وعلى ألسنة المسئولين، وعبْر مواقع التواصل الاجتماعي .. إضافة إلى تَبنِّيهم لنهْج علْمنة اللغة؛ على غرار ما قام به أتاتورك من تغيير الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني في اللغة التركية، وعلى غرار اللبناني سعيد عقل الذي تنكَّر لعربيّةٍ صاغت منه شاعرا معروفا فنادى بلغة لبنانية تُكتب بالحروف اللاتينية وتحلّ محلّ العربية. وكذلك ما دعا إليه بعض الكُتّاب - أمثال قاسم أمين وعبد العزيز فهمي وأحمد لطفي السيد- إزاء

(١) تنبع خطورة الإعلانات التي تُكتَب بلغة تروِّج لغير الفصحى؛ مِن أنها تُعرَض على شريحة كبيرة من الناس بعد عرضها في الشوارع والأسواق والصحف والتلفاز، مِمَّا يجعل أثرها السيء ينتشر كثيرا وسريعا.

التحرُّر من قيود النحو والإعراب، وانتهاج لغة ثالثة تقترب مِن لغة الشارع الدارجة وتبتعد عن لغة الفصاحة والتراث؛ وهو ما ذمَّه المفكِّر الراحل عبد الوهاب المسيري قائلا:

«حُلم الفصحى ليس حُلم العودة، وإنّما حُلم الانطلاق نحو غدٍ يُمسِك فيه العربُ بزمام أمرهم، أمّا التحيّز إلى العامية؛ فهذا هو طريق الهزيمة، والسوق الشرق أوسطية». ولعلّنا نذكِّر أنّ اللغة اللاتينية التي ادَّعى (دانتي) أنها كانت لغة أبينا آدم وأمّنا حواء، لم تُهزم أمام اللغات الدارجة التي تتحدّث بها أوروبا الآن؛ إلّا بعد أن حُبست داخل جدران المدارس، وبعد أن هجرها اللسانُ العام وصارت عملة كاسدة لا يتداولها إلّا القلّة الضئيلة.

وقد رصد صاحبُ معجم مقاييس اللغة (ابن فارس) ذلك العقوق والهجران قبل ما يزيد على ألف عام، فقال: «كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابهم بعض الذنوب، أمَّا الآن فقد تجوَّزوا، حتى إنَّ المحدِّث يُحدِّث فيلحن والفقيه يُؤلِّف فيلحن، فإذا نُبِّها قالا: ما ندري ما الإعراب؟ إنّما نحن مُحدِّثون وفقهاء». ورصده أيضا أستاذ الحضارة الإسلامية

بجامعة بودابست المجَرية (عبد الكريم جرمانوس)؛ والذي روَى عنه محمد رجب البيومي في كتابه (مِن أعلام العصر)، أنه تعلّم اللغة العربية من بطون القواميس، وأسلم في الهند، ثمّ خطر له أن يحضر إلى الأزهر ليتلقّى علوم اللغة والشريعة، ولكنه حين وصل إلى ميناء الإسكندريّة وقدّم جواز سفره متحدِّثا بالفصحى التي تَعلّمها ودرسها، تضاحك الحاضرون وعجبوا، ثمّ ردّوا عليه بالعاميّة التي لا يفهمها، وعندها ضرب كفّا بكفّ، وقال: «لقد خفت أن أتحدث بغير العربية فأكون أضحوكة في مصر، فلما تحدثتُ بها صرت أضحوكة!».

ولا نجاوز الحقيقة هنا، إذا أكّدنا أنّ لغة الضاد هي أكْمل اللغات حقّا وأشرفها صِدْقا وعدْلا؛ وذلك بعدما شَرُفَتْ بالنبوّة لدى خاتم الرّسل، وسُطِّر بها دستورُ الحياة الخالد في كتاب لا يأتيه الباطل مِن بين يديه ولا مِن خلفه، وتَعطَّرتْ بأنفاس وألسنة أهل الحبور في جنانٍ عرضها الأرض والسماء، وصَنّفها الباحثون ضمن علوم الشريعة جنبا إلى جنب مع علوم الفقه والتفسير والحديث، وعدّها بعضُ السلف ذِكْرا حين قال بأنّ مُدارسة اللغة العربية

تسبيح، وأيضا بعدما نظَمَتْ أعْذبَ الشِّعر وصاغَتْ أحْكم النثْر في ذاكرة الأدب العربي.

ولهذا كان الاحتفاءُ(١) بها حتْما لازِما بعد أنْ ضاعتْ؛ بين مُتحدِّث مُتقعِّر يَهيم بغريب الألفاظ ووحْشيِّ الكلمات فعافَها النّاس، وبين مُتفرْنِج يَدَّعِي زورا وبهتانا أنَّها لا تستوعب عصر العِلْم والتكنولوجيا والاتّصالات وأنَّها أعقد اللغات صرفا ونحوا، وبين لهجات(٢) عاميّة شوّهتْ وجهَها الصَّبوح واحتلّتْ مِن أملاكها القصور وكانتْ أعْدَى عَوادِيها حالَما أعْمَلَتْ فيها المناجِلَ والمطارقَ والمناشير، وبين دُوَل تراخَتْ في حِفظها وصَونها فماعَتْ واضمحَلَّتْ هويّتُها وهانَتْ وذلَّتْ على موائد الحضارات.

---

(١) يوافق يوم ١٨ ديسمبر مِن كل عام احتفالية اليوم العالمي للغة العربية.

(٢) يَذكر جبران خليل في كتابه (الطرائف) أنَّ اللغة الإيطالية في القرون الوسطى كانت لهجة عاميّة يرطن بها الهمج والرعاع، ثمَّ تَبوأَتْ الصدارة وقبَرتْ اللغة اللاتينية بعدما كتَب بها (دانتي) و(بتراك) و(كامونس) و(فرانسيس داسيزي) قصائدَهم وموشّحاتهم الخالدة...وهو ما ينسحب أيضا على اللغتيْن الفرنسيّة والأسبانيّة.

وليس ببعيد عنا، أنّ الكيان الإسرائيلي الغاصب، قد أَحْيَى لغة ميتة، كانت حبيسة أفواه الكهنة وجدران المعابد؛ ففرضَها على كلِّ مُهاجر إليها، ودرَّس بها كلَّ العلوم، ونال بها الجوائزَ في المحافل العالميّة. وها هي كوريا الجنوبية وألمانيا وروسيا، تدرِّس كلَّ علومها باللّغة الأمّ. أمّا أمّتنا العربية، والتي قوامها اثنتان وعشرون دولة؛ فعلى استحياء نجد في السودان وسورية تجارب في تعريب العلوم، أمّا في مصر العروبة والإسلام فيكفي أن نعْلم أن الوزير الأديب محمد حسين هيكل أصدر في عام (١٩٣٨ م) قرارا بتعريب العلوم في الجامعة تأسيسا على قاعدة العلاقة الطّرديّة بيْن الإبداع في العلوم ودراسته باللغة الأمّ، ولكن كلية الطب -التي كانت تُدرِّس طلّابَها بالعربية في عهد محمد علي قبل أن يأتي الاحتلال البريطاني ويُحوّل قبلتَها إلى الإنجليزية بدءا من عام ١٨٩٨م- طلَبتْ استثناء لمدة عشر سنوات حتى يتمّ تقنين المصطَلحات الطبيّة العربية... وها نحن مع مطلع القرن الثاني من الألفية الثالثة؛ لا زِلنا على رصيف الانتظار -والانتظار ضرْب مِن الحِداد كما قِيل- على أمل الوصول قبل أنْ يَرِدَ الضبُّ الماءَ أو يَشِيبَ الغراب أو يَفنى الهواء!!

ورحِم الله الشاعرَ علي الجارم حين قال:

«يا ابْنة الضَادِ أنتِ سِرٌّ مِن الحُسْنِ
تَجلَّى عَلَى بَنِي الإِنسان
لغةُ الفنِّ أنتِ والسِّحْرِ والشِّعْرِ
ونُورُ الْحِجَا وَوَحْيُ الْجَنَانِ»

«لَأَنْ أُهْجَى بِالعربيَة خيْرٌ لي
مِن أَنْ أُمْدَح بالفارسية»

أبو الريحان البيْروني

[ط]

مع الطبّ والأطبّاء

ربّما كان حرف الطّاء مِن بيْن حروف الهجاء قاطبة، هو الأحقّ برعاية طبيّة فائقة والأجْدر بمظلّة تأمين صحيّ شاملة، ليس لأنَّ عِلّتَه قد استعْصتْ، أو أنّ فاقَته قد تفاقمت وبلغَتْ حدَّ المَسْكنَة؛ ولكن لسُكناه أحشاءَ الطبّ ولزومه للطبيب..فمَن جاور السعيدَ سَعِد، والأقربون أولى بالمعروف، وكما قِيل في المثل: «مِن أجْل الورد يُسقَى العُلَّيْق».

ذاك الطبّ(١) الذي وُلِد مع أوّل قدم دَبّت على الأرض، وعاش ردْحا بائسا مِن الدّهر؛ اعتنَق فيه الميتافيزيقيّة، واعْتقَدَ أنّ الأمراض أرواحٌ شِرّيرة ولعناتُ آلهةٍ ساخطةٍ غاضبة، وارتأى أنّ علاجَ البسيطِ

(١) يُعرِّف الشيخُ الرئيس (ابن سينا) الطبَّ في أرجوزته الألفيّة (١٣٦٢ بيتا) فيقول:

«الطبُّ حفظُ صحّةٍ بُرْءُ مرَض مِن سببٍ في بدنٍ عنه عرَض»

منها يَكفيه التعاويذُ والتمائم، أمّا الدّاء العُضال فلا مَناص مِن ثَقْب جُمجمة المريض عبْر إجراء عملية التَّرْبَنة، أو صَلْب المريض على جذع شجرة ثمّ استخراج تلك الأرواح مِن قِبَل الطبيبِ ومساعدِه اللذان يُوسِعان مريضَهما المصلوب لكْما ولطْما!!

كان ذلك في العصور الحجَريّة، قبل أن يُدلِي أَبُقراط بدلوه في القرن الخامس قبل الميلاد؛ فينقَل الطبَّ مَن طوْر المهنة إلى طوْر العِلم؛ حين شرَع في طيّ بساط السِّحر[1] والكهانة، وأَخضَع الطبَّ لميزان العقل والقياس والتجربة فيما عُرِف بالطبّ العقلاني، وذلك قبل أن يُبدع بعده (جالينوس) و(الرازي) و(ابن سينا) و(ابن النفيس)و(كلود برنارد)[2] و(لويس باستير) وغيرهم، فيقفز الطبُّ على أيديهم قفزات هائلة في فلسفة الدليل والبرهان، وفي وسائل

(١) تَذكر المعاجمُ اللغوية أنَّ السِّحرَ هو أحد معاني كلمة الطبّ، فيقال يُمارس الطبَّ أي يفعل السّحر.

(٢) يؤرِّخ بعضُهم للبداية الحقيقية لِما بات يُعرف بالطب التجريبي، مع جهود عالِم الفسيولوجيا الفرنسي كلود برنارد ومع اكتشاف البكتيريا على يد لويس باستير، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

التشخيص والعلاج، حتى صارت الموجات الصوتية والضوئية والمغناطيسية اليوم طوْع البنان، وأصبحتْ زراعة الكُلى والقلوب والأكباد كزرع الأشجار، وأَضحَى للخلايا الجذعيّة والأجِنَّة والقَرنِيَّات بنوك كتلك التي نكنز فيها الدينار والدولار.

وعن صناعة الطبّ أنقل عن الطبيب المُؤرّخ ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) قوله بأنَّ صناعة الطبّ قبل أبقراط كانت كنزا يكنزه الآباء وذخيرةً يدّخرونها للأبناء، وكانت حصرا لآل سقليبيوس، وكادتْ تبيد نظرا لقلة الأبناء المُتوارِثين لها، لولا أنْ عمَد أبقراط فكان أوّل مُدوِّن لها، وبادر بنقلها إلى سائر الناس وإذاعتها في جميع الأرض، بعد أن أخذ على ممارِسيها العهد وأَحْلَفَهم الأيمان بقسَمه الشهير الذي مازال يتردّد حتى اليوم في جنبات الجامعات والمدارس الطبية. وقد فرّق مؤرِّخ الطبّ المصري بول غليونجي بين فلسفات الطبّ في الحضارات القديمة؛ فقال: «يمكن القول إجمالا، وبإيجاز، أنّ طبّ المصريين سيطرت عليه الخبرة، وطبّ الإغريق الفلسفة، وطبّ بابل السِّحر». كما قِيل إنّ الطبَّ كان معدوما فأحياه جالينوس، وكان متفرِّقا فجمعه

الرازي، وكان ناقصا فكمَّله ابن سينا. هذا في الوقت الذي يسفّه فيه فولتير الفعل العلاجي للطبّ مقارنة بالفعل العلاجي للطبيعة فيقول: «يقوم فنّ الطبّ على تسلية المريض في الوقت الذي يتمّ فيه معالجة المريض طبيعيا»!

أمّا غاية الطبّ وموضوع صناعته؛ فيفسِّره خير تفسير، ما رُوي أنّ ثاني ملوك بني بوَيْه الملقَّب بعضد الدولة، لمّا قدم بغداد في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، دخل عليه مِن الأطباء أبو الحسن الحرّاني وسنانُ بن ثابت، فقال: مَن هؤلاء؟ قالوا: الأطبّاء، قال: نحن في عافية، وما بنا حاجة إليهم، فقال له سنان: أطال الله بقاء مولانا، موضوع صناعتنا حفظ الصحة ومداواة المرضى، والملِك أحوج الناس إلى حفظ الصحة. فقال عضد الدولة: صدقْت، وقرّر لهما الجاري السنوي، وقرّبهما إلى مجلسه في طائفة من الأطباء، ثمّ شرع في إنشاء البيمارستان العضدي.

وغنيٌّ عن القول أنَّ الطبَّ رمزٌ للرحمة بالإنسانية ومظهر من مظاهر الرأفة بها، وهو سبيل لصون العافية التي يواجه بها الأفرادُ الصعاب والخطوب وتستعين بها الأممُ في بلوغ الأرَب ونيْل المراد،

كما يَجلب الراحةَ للنفوس ويُسرِّي عن الأرواح بتخليصها مِن أكدار الألم وغوائل المرض. ولعِظم هذه الرسالة وسموّ مقصدها؛ كان على دارس الطبّ قديما الإلمام أوّلا بعلم المنطق ليستقيم فكرُه، وبعلم الهندسة ليكتسب الدقّة اللازمة للتعامل مع أكرم خلق الله وخليفته في أرضه.

هذا عن الطبِّ ... أمّا الطبيب؛ فقد كان كاهنا وساحرا في العصور الغابرة، ثمّ صار حجّاما وعشّابا[١] وبالنَّار كاويا، قبل أن ينصفه اسحق الرهاوي[٢] فيرفعه فوق مرتبة الفيلسوف؛ على اعتبار أنَّ الفيلسوف يُقوِّم النفسَ فقط، بينما الطبيبُ يُقوِّم النفسَ والبدنَ جميعا. وقبل أن يمدحه صاحب الرسالة (أحمد حسن الزيات) بقوله: «في الطبابة جزء من النبوّة وشطر من الحكمة». وقبل أن تستقرّ له في الأذهان اليوم، صورةُ الملَك الذي يَرفل في ثوب أبيض،

(١) كان ذلك قبل أن تستقلّ الصيدلة كعلم قائم بذاته في بداية القرن التاسع الميلادي.

(٢) مِن أطباء القرن الثالث الهجري، وصاحب كتاب (أدب الطبيب)، ويصف الأطباء بأنهم رعاة الروح والجسد.

ويَنعم بسيارة فارهة ومالٍ وفير ومسكنٍ رغيد، وزوجةٍ جميلة وأُسْرةٍ ذكيّة، وجاهٍ يُحسَد عليه. وهو ما اختصره بعضُ الحسّاد، وشاع على ألسنتهم أنَّ الطبيب يتخرّج وفي جيبه مفاتيح خمسة عيون (عمارة، عروسة، عربة، عيادة، عزبة)، وكأنّ الطبَّ سوارٌ مِن ذهب أو قلادةٌ مِن ماس! ...

إذْ لا يَعلم الكثيرون أنّ لِحال الطبيب وجها آخر غير هذا البريق اللامع وتلك الرومانسية الحالِمة؛ فرحلتَه في رواق الطب تكتنفها المسئوليات والتحديات، ولا تَخلو مِن بعض الشقاء والعناء؛ بدْءا بماراثون الدراسة الأطول بين كلّ الدراسات؛ والتي يتنقّل فيها الطبيب من مرجع إلى أطلس إلى كتاب، ومن امتحانٍ إلى مقابلةٍ إلى بحثٍ يصل فيه الليلَ بالنهار. وانتهاءً بأعباء العمل الممزوجة بالجروح والدماء والآهات، والممهورة بحشرجات الروح وسكرات الموت. حتى لَتوشك تلك الرحلةُ المُضنية المَشحونة بالتوتّر، على سحْق صاحبها نفسيّا واجتماعيّا ... بل وقد تصرعه جسديّا.

ورغم أنَّ لكلّ مهنة معاناتها؛ إلّا أنّ الطبيب بحكم وظيفته الإنسانية يُتوقَّع منه التضحية دون شرط والتجاوب دون عذر وتقديم العام على الخاص، وهو ما يُشكّل نوعا مِن الإجهاد البدني

والنفسي، ويَبدو أنّ هذا ليس وليد عصر السرعة ولا نتاج متغيّرات العصر الحديث، ففي عام ١١٧٤م عُيِّن ابن ميمون طبيبا للبلاط في مصر، وكان برنامجه اليومي كما وصفه قائلا: «أتناول شيئا من الطعام، وتكون هذه وجبتي الوحيدة في الأربع والعشرين ساعة، ثم أنصرف إلى معاينة المرضى وكتابة الوصفات والإرشادات لمعالجتهم، ويستمر المرضى في التوافد علي حتى حلول الظلام، وأحيانا أكون منهكا جدا بحيث لا أعود أقوى على الكلام».

وفي الوقت الذي يتحتّم على الطبيب مراعاة مشاعر المرضى، وتفهّم محنتهم، والتخفيف عنهم نفسيا قبل الشروع في مداواتهم دوائيا وجراحيا؛ فإنَّ القلّة مِن المرضى وذويهم يلتفتون إلى إنسانية الطبيب التي تعتمل فيها المشاعر، وتطحنها الضغوط، وتفترسها دوامة العمل...فكم مِن فرحة عِيدٍ هجَر فيها الطبيبُ أولادَه، وكم مِن زواجٍ لقريبٍ عجز عن حضور وليمته، وكم مِن صحبةِ صديقٍ أَتتْ عليها مشاغلُه، وكم مِن موعد فسحةٍ زوجيّة أو خطّةِ إجازةٍ عائليّة ذهبتْ أدراج الرياح تحت سوْط العمل وقطار المناوبات وصدمة الاستدعاء الطارئ، بل وكم مِن مناسباتٍ اجتماعيةٍ شتّى بدا فيها غريبا ومَعزولا عن تيّار الحياة ومجرياته. ويَزداد الأمر

تعقيدًا في حال الطبيبة التي تحمل صخرة (سيزيف) على عاتقها، بعد أن باتتْ محصورةً بين مطرقة التحدِّيات التي تفرضها ممارسة الطبّ الذي لا يُعطي بعضَه إلّا لمَن يُعطيه كلَّه، وبين سِندان المسئولية الأُسريّة التي لا تقبل المساومة ولا تَرضى الضّيْم.

وإن أردتَ إطلالة على الطبيب عن قُرب؛ فستجد سكون الليل الرامز لدفء العاشقين وسمير المُحِبِّين وراحة الكادحين ومُتعة العابدين، يُطلّ بوجهه الصاخب على طبيب -أو طبيبة- يَقبع خلف الجدران الباردة، في جوار الأسِرّة البيضاء، ووسط آهات المرضى وأنّات الجرحى؛ فلا للسكون موضع قدم ولا للدفء بقيّة أثر، بل هو -أو هي- بيْن يقظةٍ يَحلم فيها بالنوم، أو نومٍ يُوقِظه فيه الحُلم على نبضِ مريضٍ اختلّ، أو نفَسِ مَصدورٍ توَقّف، أو حادثٍ تَبعثَرتْ فيه الأشلاء وسالت الدماء، أو ولادةٍ علا فيها الصياح والصراخ، أو موتٍ يشيّعه النحيب والعويل[١]...وكَم مِن زميلٍ أَنهى

(١) هذه المظاهر التي تُخيّم على أجواء المستشفيات، هي ما دفعت العقّاد إبان سجنه في عهد الملك فؤاد، لتحمّل الإصابة بالنزلة الحنجرية داخل الزنزانة، ورفضه العناية الطبية داخل المستشفى.

مناوبتَه الليليّة في مَشفاه، ثم قفل عائدا بسيارته -الفارهة- يَتنازعه ألمُ الجسد المُنهَك وشتات الذّهن المُرهَق واحمرار العيْن التي أضناها السهَر، فكانت النهاية حادثا مريعا ذهب على إثره لبارئه.

أضِف إلى ذلك، الملاحقات القانونية التي يُواجهها بعض الأطباء تحت دعاوى سوء التصرّف المهني والأخطاء الطبيّة، وهي وإن كانت في نظر غيْر المتخصّصين أخطاء، إلّا أنّ جُلّها في عُرف الطبّ مبرَّرة، ومِن قَبِيل المضاعفات المقبولة التي يحتويها النصف الأوّل مِن قول العلّامة محمد الخضر حسين: «أَجمع الفقهاءُ على أنّ الطبيبَ الماهر إذا عالج مريضا فأخطأ في اجتهاده، وتَولَّد من معالجته تلف عضو أو نفس أو صفة، فلا ضمان عليه، بخلاف المتطبِّب الذي لم يتقدم له معرفة بالطب، فأقدَم على معالجة عليل، وترتّب على علاجه تلف عضو أو نفس، فإنه يضمن»، وفي هذا قال رئيس الجمعيّة الطبيّة الأمريكية: «الدعاوى القانونية غير المُحِقّة تُسبّب للطبيب الكثير مِن الأذى، كالإحراج وإضاعة الوقت والضغط والقلق». وربما لهذا السبب، صار الهاجس الأوّل لدى بعض الأطباء، هو حماية نفسه مِن الملاحقة القانونية، إلى حد التأثير السلبي الذي يُعيق سيْر التدخلات الطبية، ويكبح جماح

الرغبة في الابتكار والتطوير، ويُقلّل من الإنتاجية، وذلك على زعم أنّ مَن يعمل أكثر يخطئ أكثر!

حقًّا لا يَعرف الشوقَ إلّا مَن يُكابده، ولا يُدرك وعورة الطريق إلا مَن اجتازه..واسألوا زوجة الطبيب التي تصف حاله فتقول بأنّ الإرهاقَ صديقُه الذي لا يفارقه، والجوّالَ عدوُّه الذي يقضّ مضجعه، ومائدةَ الطعام فراشه الذي يُعاجله ويُسعفه(١)، ثمّ تختم واصفة حالَها فتقول: لا حسَد لامرأة كونها زوجة طبيب.

ورغم هذه المعاناة وذلك الكَبَد، ففي النفق ضوءٌ مُبهر وفي قاع البحْر لآلِيء ودُرَر، إذْ للطبيب أن يَتيه فخرا بأنَّ مهنته إنسانية بامتياز؛ حيث إنَّ الإنسانَ بدَنًا ونفْسًا هو المادّة الخام لصنْعته ومحلّ قيْد مهنته، وهو ما يُحتِّم عليه أن يكون شاهدَ عدل وصِدْق، وصاحبَ عفّة وشرف، وكاتِمَ سِرٍّ وصائنَ عِرض. هذا بالإضافة إلى أنَّ الطبّ مِن المهن المُتجدِّدة التي لا تَبعث على الملل، وتُكسب صاحبَها

(١) «كي تكون طبيبا جيّدا ومتفانيا، عليك أن تتخلَّى عن مُتعة النوم»... هكذا كانت نصيحة الأمّ لولدها الطبيب والسياسي البارز مهاتير محمد كما أَوْرِدَها في مذكِّراته.

احتراما وتقديرا؛ حتى إنَّ الأمير (سيف الدولة) دأب على احترام الأطباء فرفَع منزلتَهم، وكان يستضيف على مائدته أربعة وعشرون طبيبا. كما يُنمّي الطبُّ خبرةَ الطبيب الحياتيّة؛ بحكم تعامله مع قطاعات مختلفة مِن البشر، وفي أوضاع استثنائية تَسبر أغوار النفْس ومَكنون السلوك والعادات. فضلا عن الشحنة الإيمانية التي يَجنيها جرّاء اطّلاعه على أسرار الله في الخلْق ومعايشته آيات الله في الشفاء، وكذلك ما يَجنيه من حسناتٍ ويَصله مِن دعواتٍ جرّاء صبره على المرضى، واحتسابه وتجديد نيّته أثناء تقديم العون لهم.

وقد أحسن المجتمع الدولي حين خصّص يوما للوفاء بالطبيب، وهو يوم الطبيب العالمي الذي يوافق الثامن عشر من مارس كلّ عام في مصر، احتفاء بذكرى إنشاء أوّل مدرسة طبية بمدينة أبي زعبل في ذات التاريخ عام ١٨٢٧م، بينما تحتفل به أمريكا وأجزاءٌ كبيرة من العالم في الثلاثين من مارس تخليدًا لذكرى بدء استخدام مخدّر (الإثير) في العمليات الجراحية عام ١٨٤٢م. والواقع أنّ الأطباء في هذا اليوم الاحتفالي لا ينتظرون ورودًا أو حلوى، ولكنهم ينتظرون الإنصاف والعرفان لا غير، مع التذكير

بأنهم في هذا اليوم وغيره، لا يَعدون بالشفاء بقدر ما يَعدون بإخلاص النية وزرع الأمل وإتقان العمل.

حَيَّا اللهُ حرف الطّاء الذي ذكر علماء اللغة أنه الأقوى بين حروف الهجاء لخلّوه من صفات الضعف كالهمس واللين والرخاوة وغيرها، وصحَّ لسانُ مَن وصَف مهمّة الطبيب خيْر وصْف فأبْدع قائلًا:

«لو غضبَتْ روحٌ على جسمِها
أَصلَحَ بين الرّوحِ والجِسْم
كأنّه مِن لُطْفِ أفكارِه
يَجولُ بين اللحْمِ والعظْم»

«لا أعلم علما - بعد الحلال والحرام - أفضل من الطب»

الإمام الشافعي

[ظ]
الظلم المُركَّب

الشِّعرُ فاكهةُ القوْل وترجمانُ النّفس ومِداد العاطفة؛ إذْ يَحوِي ما يَعتمِل في صدورنا مِن زفراتٍ محمومة محبوسة وما يَغلِي به الدّم في عروقِنا مِن آهاتٍ حارّة مكتومة، وكأنّه يَغرف مِن نفوسنا ويَصبّ في كؤوسنا؛ فهذا شاعرُ المُعلَّقات (طَرَفة بن العبد) الذي عاش في القرن السادس الميلادي، وقَضَى دون الثلاثين بعد أن دفع حياتَه ثمنا باهظا جرّاء طول لسانه؛ مات أبوه وتركه يتيما، فعدا عليه أعمامُه واقتنصوا ميراثَه وهضموه حقَّه، فاحترق فؤادُه جمْرا وتفتَّت كبدُه أسًى ونظَم ما لذ مِن الشّعر، إذْ ما يَضنّ به الواقعُ يُسعفنا به الخيال، وما يُعجِز الفِعالَ لا يُعجِز الكلمات.

لا شكّ أنَّ القَرابَةَ تَفرض التزاماتٍ شرعيّة وحقوقا عُرْفيّة؛ تَقضِي بالسَّنَد عند الانكسار، والتلْبية عند الطلب، والنَّجدة عند الغوْث؛ وهذه فطرة بشَريّة وسليقة بدهيَّة؛ يرتفع بها سقفُ

التوقُّعات، ويبلغ العشَمُ مداه، ولذا يحلّ الإحباط وتحضر الخيْبة والحسْرة التي نسمِّيها خذلانا عند خواء تلك الآمال وتَهاوِي تلك السقوف، وهو ما يقع كطعنةٍ نافذة وخنجرٍ مسموم وسُمٍّ زعاف، وكلما زادت درجة القرابة كان الغضب أشدّ والخصومة ألدّ، وعَزّ عندها الجبْر والصفْح، والحقيقة كلُّنا في ذاك الهمِّ شرْق على حدّ تعبير أمير الشعراء شوقي في قصيدته(١) الدِّمَشْقيَّة، أو على حدّ قول المثلِ العربي الذي يُعبِّر عن تضرُّر الأقارب بعضهم مِن بعض فيقول: «الدخان القريب يُعمِي».

وقد صدَق مَن قال أنَّ عداوةَ الأقارب كلسْع العقارب؛ فبعضُ النّاس يَقبَل الإساءة مِن غريب ولكنّه ينتفض لها إنْ جاءتْه مِن قريب، وتَطيب نفسُه للعفو والصّفح عن غريمٍ بعيد بينما يَعيش أسيرا لبعض ظُلْم ناله مِن قريبٍ حميم، ويحتكِم لذاكرة العزاء

(١) في عُرف الشعر العربي؛ كلّ قطعة شعرية تَزيد على سبعة (أو عشرة) أبيات، تُعَدّ قصيدة، وما دون ذلك تُعَدّ مقطوعة.

والنسيان مع الغرباء بينما يحتفظ بذاكرة العقاب والقصاص[١] للأقرباء؛ وكأنَّ قلبَه مِن زجاج لا يُجبَر له كَسْر، أو أنَّ ذاتَه قارورةٌ لا يُقبَل فيها الخدْش والثَّلْم ...

أَلَيْسَ الأقربون أوْلى بالعفْو وأجْدر بالصبر؟

أَمْ أنَّ العفوَ والصبرَ ليْسا بمعروف!!

وأَليْسَ الحُبُّ يُعمِي ويُصِمّ؟

أَمْ أنّ هذا للنِّساء يَخصّ وللأقارب يَمتنِع!!

وأَليْسَ الزيْتُ في العجين لا يَضيع كما ورَد في المثَل[٢]؟

أمْ أنَّ قحْطا أصابنا فصِرنا نعجن بلا زيْت!!

وإذا كان الظلم هو التصرّف في مُلك الغير على خلاف الإذن والمصلحة، أو هو مُجاوزة الحقّ والتعدِّي عنه إلى الباطل، فإنّ

(١) يُذكر أنَّ حرب البسوس التي دامتْ أربعين سنة، كانت بين (بكر) و (تغلب) اللذان ينتميان إلى ذات القبيلة وهي قبيلة رَبيعة!

(٢) ورَد المثَل في فرائد (الخويي) وأمثال (الميداني)، ويُضرَب في الحَثّ على الإحسان إلى الأقارب.

هناك مَن يَظلم اللهَ جلّ وعلا فلا يَعترف بألوهيّته ولا يُقرّ بربوبيّته ويُشرك معه أحدا غيره وهذا مِمَّن تُودِّع منه، وهناك مَن يظلم نفسَه فيوردها المهالك وهو في ذلك أحمق الظالمين؛ إذْ كان كمَن يَمدّ يدَه في نار ملتهِبة أو كمَن يَمشي على بساط مِن زجاج محطوم، وهناك مَن يظلم غيرَه بحرمانه مِن حَقٍّ أصيل له أو تقصيره في واجبٍ حَقّ عليه وهو في ذلك يَستعدِي الله جلّ في علاه ليكون خصمه وخَصِيمه ومُمهِله وليس بمُهمِله، وهناك مَن ظلَم قرابتَه في الدّم والنّسب فكان في عِداد مَن عناهم (طرَفة) وقبَّحَهم (الحارث بن كلدة)[1]، وفاعلُ ذلك ظالمٌ مُركَّب؛ لأنّه بَقَرَ بطْن العدالة حين ظَلَم، ثمَّ زاد فذبَح صلة الرَّحِم حين خصَّ قرابتَه بذلك الظُّلم ... وفي هذا قيل: «الدواوين ثلاثة: ظُلمٌ لا يَغفره الله؛ وهو الشِّرك به. وظلمٌ يغفره الله؛ وهو ما بين العبد وربّه. وظُلم لا يتركه الله؛ وهو ما بين العباد».

---

(١) في هذا قال (الحارث) الملقَّب بطبيب العرب:

«مِن الناس مَن يَغشى الأباعدَ نفعُه ويَشقَى به حتى الممات أقاربُه»

كثيرةٌ هي مظاهر ظُلْم ذوي القُربى الذين حثَّ القرآن على الإحسان إليهم في سياق آية الحقوق العشرة الواردة ضمن سورة النّساء: «واعْبدوا الله ولا تُشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصّاحب بالجَنْب وابن السبيل وما ملَكت أيمانُكم»؛ ففي الإساءة إليهم ظُلم، وفي هجرهم وقطيعتهم ظُلم، وفي التّخلِّي عن نصرتهم ومدِّ يد العون لهم ظُلم، وفي مخاصمتهم ومعاداتهم ظُلم، وفي الترفُّع عنهم والتعالي عليهم ظُلم.

يَقينًا مَن لا خيْر فيه لأهله لا خيْر فيه لأَحَد، ومَن لم يُنصفْه الأقربون تجرّأ عليه الأغرابُ وعدَا عليه الأَبْعدون[١]، ولِذا كان الأقربون أوْلى بالمعروف وكانتْ صلةُ الأرحام نسْأ في العُمر وبرَكة في الرِّزق[٢]، وهو عيْن ما عناه النَّبيّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين وجَّه

(١) يقول أمير الشعراء شوقي:

«مَن خذلَتْه أُسْرتُه، لَمْ تأتِ مِن الأباعِد نُصرَته»

(٢) قال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «من أَحبَّ أن يُبسَط له في رزقه ويُنْسَأ له في أثره فليصل رحمَه» والنَّسْأ هو التأخير، بينما الأثَر هو الأجَل.

الصحابيَّ الجليلَ أبا طلحة ليجعل البيرحاءَ التي وهبَها لِلّه صدَقةً -وهي خيْر ماله- قِسْمةً في قرابتِه وعشيرتِه وحين أَفتى لزينب الثقفيّة بأنَّ لها في صدقتها على زوجها المُستحِقّ لها أجران، وفيه -أي في صلة الرحم- نقمتْ العرب على من يَتنكّر لعشيرته فقالتْ في المثَل: «الشجرة التي لا تُظِلّ أهلَها تستحقّ القطعَ من جذورها».

لو مدَدْنا خطَّ القرابة على استقامتِه؛ لكان لِلْجار قُرْبَى السّكَن، وكان للزّميل قُرْبَى العمَل، وكان للصَّديق قُرْبَى الصّحبة، وكان للبشرِ جميعهم قُرْبَى الآدمية والإنسانية وذلك على قول قاضي القضاة (الشهاب الخفاجي): «مَن كان أصله مِن تراب فكلّ الناس أقاربه»، بما يَعني تَرامِي بساط المعروف وانْتفاء داعي الظُّلم وامتداد رُقْعة العدْل الذي قرّظه ابن مسكويه حين قال: «ليستْ العدالةُ جُزْءا مِن الفضيلة وإنَّما هي الفضيلة كلّها».

ومِن لطيف ما رُوِي في وصْل الرّحِم الإنسانيّة العامّة؛ أنَّ رجلا دخل على سيدنا معاوية باسم الرَّحِم، ولم يكن يعرفه، فلما دخل عليه سأله عن تلك الرحِم، فقال: أنا رحِمك من آدم -عَلَيْهِ السَّلَامُ-،

فأعطاه درهما، فقال: أسألك برحِم آدم وتعطيني درهما فقط، فقال معاوية -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: لو أعطيتُ كلّ مَن سألني بالرحم الذي سألتني بها لما وجدتُ لك هذا الدرهم، وذلك لأنّ هذا رحم بعيد وعدد الأرحام فيه كثير.

واليوم وفي ظل الزمن الصعب الذي قلَّ فيه إخوان الصّفاء[١] وعَزَّ مَن يُقدِّرون القرابة حقّها ونَدَر مَن تستوعِب عقولُهم مدَّ خط القرابة حقَّ مَدِّه، ربَّما كان مِن الحصافة -عِوَضا عن مضْغ الحنظل وقبْض الجمْر ووَطْأ الشوْك- أنْ نتوقَّع الأقلّ ونبذل الأكثر[٢]، وأنْ نصبر مَليّا ونعفو سَويّا، وأنْ نتمثَّل قول الشاعر الأموي (المقنَّع الكندي) حين قال:

(١) يقول أبو عبد الله الهزلي: «إذا شئتَ أنْ تلقى خليلا مُصافِيا،،تَعِبْتَ وإخوانُ الصفاءِ قليلُ»

(٢) في هذا المعنى يقول غاندي: مقابل قدَح من الماء أَعْطِ وجبة طعام عظيمة، ومقابل تحية لطيفة انحنِ إلى الأرض في حرارة، ومقابل الدرهم البسيط قدِّم دينارا ذهبا.

«وإنَّ الــذي بينــي وبــين بَنِــي أبِــي
وبــيْن بَنِــي قــومِي لمُختلِــفٌ جِـدّا
فـإنْ يَـأكلوا لحمِـي وفَّـرتُ لحـومَهُمُ
وإنْ يَهـدموا مَجْـدي بنَيْـتُ لهـم مجْـدا
ولا أَحمِـل الحِقـدَ القـديمَ علـيهِمُ
وليس كريمَ القومِ مَنْ يحمِلُ الحِقْدَا»

وظُلـم ذوِي القربـى أشـدُّ مَضَاضـةً
على المرْء مِن وقْعِ الحُسامِ المُهَنَّـدِ[1]

(١) البيت مِن معَلَّقة طرَفة بن العبْد (٥٤٣-٥٦٩م)، والمَضاضَة هي الألم والوجع، والسيف المهنّد هو السيف المطبوع مِن حديد الهند وكان خيْر الحديد.

[ع]

إيمان العجائز

يُروَى أنّ الإمام الموسوعيّ فخر الدين الرازي[١] -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-، مَرّ على عجوز مع تلامذة له يُبجّلونه ويرفعون قدْره، فحارت العجوزُ في سبب التبجيل وسِرّ المَهابة التي يُولونها إيّاه، فسألَتْ أحدَهم: مَن هذا الذي تُبجِّلون ؟، فقال لها: اسكتي يا امرأة، هذا إمامٌ جليل وجَد أَلْفَ دليل على وجود الله، فتعجّبَتْ، وقالتْ: لو لم يكن عنده ألْف شكٍّ في رأسه لما وجد ألْف دليل، وعندما وصل الخبر إلى الرازي قال: «اللهمَّ إيمانـًا كإيمان العجائز»، وهو ما قال به أيضا صاحبُ كتاب(المِلَل والنِّحَل) والمعروف بالإمام (الشّهرستاني): «عليكم بدِين العجائز فهو مِن أَسْنى الجوائز».

---

(١) عاش في النصف الثاني من القرن السادس الهجري (ت٦٠٦هـ)، وله تفسير (مفاتيح الغيب) الذي ينتمي إلى مدرسة التفسير بالرأي. وقد عدّه السيوطي مجدِّدُ القرن السادس، ووصفه ابنُ الأثير في كامله بأنه إمام الدنيا في عصره.

تقول المعاجمُ اللغوية التي جاء اسمُ أقدمها على حرف العين[١]؛ أنَّ العجائزَ جَمعٌ يُطلق على مَن كبر سنُّه وبلغ به العمر مداه مِن الرجال والنساء على السّواء، وأنَّ مفردها عجوز في الرَّجُل، أمّا الأنثى فلها مثل حظّ الذَّكَرَيْن حيث يَصحّ إفرادها على عجوز وعجوزة، ثمّ زادتْنا المعاجمُ مِن الشِّعر بيْتا فقالت أنّ للعرب أياما يَدعونها أيّام العَجوز؛ وهي سبعة أيام تأتي في آخر فصل الشتاء، حيث يشتدّ فيها البرد، فيَتألّم العجوز ويَعجز الشابّ.

قد تختصّ هذه القصة بتلك العجوز ولا يَنبغي إخراجُها مِن سياقها، ولكنّها تنشِّط ذاكرتَنا وتفتح عقولَنا على جيل نادر مِن أجدادنا وجدّاتنا وآبائنا وأمّهاتنا العجائز مِمّن لم ينالوا حظّا مِن التعليم ولم يحالفهم الثراء ولم تبتسمْ لهم الحياة إلا لماما، فعاشوا حياتَهم في كنف الريف والطبيعة يَكِدّون ويَكدحون حتى الرمق الأخير، ومع ذلك كان إيمانُهم الذي سكن قلوبَهم وانْطبع في

(١) في إشارة إلى (معجم العين) لمؤلِّفه الخليل بن أحمد الفراهيدي والذي رتَّبه على حسْب مخارج الحروف الصوتيّة مِن الحلق إلى الشفتيْن، وبدأه بأعمق الحروف مَخرجا وهو حرف العين.

أقوالِهم وانْسكب في أفعالِهم؛ لا تُخطئه الأعين...وهو ما وصَفه أحمد لطفي السيّد الملَقَّب بأستاذ الجيل حين قال: «فأمّهاتُنا نحن القَرَويِّين مع مالَهُنَّ مِن بساطةٍ في المدارك العقلية وبُعْدٍ عن العلوم والمعارف، إلا أنّهنَّ على جانب عظيم مِن الذّكاء الفِطري ورِفعة الأخلاق وعزّة النفس والذوْق السليم في الحُكم، والطِّيبة والتقوى في المعاملات».

مَلَك هؤلاء العجائز قلوبا بلا أبواب فوسعتْ القريبَ والبعيد، ولهجتْ ألسنتُهم بالدّعاء للغريب والنّسيب، ورغم ضيق ذات اليد كان سباقهم في الخيْر حثيثا؛ فكانوا أوّل المهنِّئين في الأفراح وأسْبق المُعزِّين في الأتراح، كما كانوا أوّل يد ممدودة وآخر قدم منصرفة في كلِّ باب خيرٍ نما إلى عِلْمِهم وعايَشوه؛ أنَّاتُ الجيران كانت لهما هَمّا، ومرَضُ الأقارب كان لهم غمّا، ووفاةُ مَن صادفَتْه أعينُهم كانت لهم حدادا. امتلأَتْ نفوسُهم قناعةً ورضا؛ فكانتْ كسرة خبزهم اليابسة مائدة عامرة، وجرعة مائِهم من الجَرّة الفخارية سلسبيلا، وبيوتهم الطينيّة المسقوفة بالخشب قصورا باريسيّة وعروشا فارسيّة، كما كانتْ ضحكاتُهم صافية رائقة وأحزانهم سحابة صيف عابرة والوفاء والإيثار لهم ديْدنا وعنوانا.

لم يتعلَّموا فِقها ولم يَقرؤوا حديثا ولم يَحفظوا مِن القرآن إلّا فاتحتَه ومعوّذتيْه، ومع هذا يَشعُّ الإيمانُ مِن وجوههم وتلمح الصِّدقَ في أعينهم وتسمع الذِّكْرَ فيّاضا مِن ألسنتهم وتلمس الإخلاصَ في دعواتهم، وما كان ذلك إلا ثمرة إيمان طفوليّ فِطري غضّ؛ لم تلوِّثه المادَّة، ولم تحرِّفه الفلسفات ولا الهرْطقات وعلوم الكلام، ولم تحرقْه الشهوات ولا الشبهات، فكان إيمانهم بأقدارهم يقينا راسخا، وكانت بصيرتهم النافذة مِن الله لهم مِنّة وعَطيّة، وكأنّهم هُم المَعْنِيّون لا غيْر بقول الشاعر العذْب الرقيق محمود غنيم:

«حيَّيْتُ فيك الثّابتينَ عقائدًا
والطّاهرين سرائرًا وقلوبَا
والذاهباتِ إلى الحقولِ حواسرًا
يَمشي العفافُ وراءَهنّ رقيبَا»

وقد وصف أحمد أمين في كتابه (فيض الخاطر) إيمانَهم بأنه سهْل بسيط، إذْ يُدركون فيه أنَّ الإيمانَ معناه أنَّ اللهَ خالِقُ كلّ شيء ومُدبِّر كلّ شيء، وأنّه يَعطف بالخيْر على مَن يُحبّه ويَنتقم مِمّن

لا يُؤمن به عاجلا أو آجلا، وفي تلك العقيدة على بساطتها كفاية ليَسير الشخصُ سيْرا حسنا حميدا، فيَفعل الخيرَ ويَجتنب الشرّ. ثمّ شَبَّههم في ذلك بالفيلسوف اليوناني الذي سَأله سائل: مَن هو الله؟ وأين هو الله؟، وبعد أن استمْهله يوميْن ليفكّر في الجواب قال: يا هذا كلما فكَّرتُ في الجواب ازددْتُ حيرة ... بمعنى أنّ الإصغاءَ لصوتِ الفطرة ولسانِ القلب -كما فعلَت العجائز- أدْعى إلى الاطمئنان والثبات، وأقرب إلى الاستمساك بعُرى الإيمان، وحالهم في ذلك كحال الجارية التي سألها نبيُّ الهدى -عليه الصلاة والسلام- أين الله؟ فقالت في السماء، ثمّ سألها: مَن أنا؟ فقالت رسول الله، فقال لصاحبها: اعْتقها فإنها مؤمنة.

وربّما هؤلاء العجائز وحدهم، هُم مَن يَنجحون في اجتياز ذلك الاختبار الأسطوري لأوزوريس، الذي نصّبه المصريون القدماء رئيسا لمحكمة الموتى التي لا استئناف فيها ولا نقض، إذْ يَنصب لهم بعد البعث ميزانا، ويَضع القلبَ في كفّة، ويَضع في الكفّة المقابلة ريشةً خفيفة تمثّل رمز الطُّهر والنّقاء، فمَن رجحَتْ كفّةُ قلبه خاب وخسر ورُمِي مع قلبه لوَحْش كاسرٍ يُدْميه ويُفْنِيه، ومَن رجحَتْ ريشتُه فقد نجح وربح وفاز بالخُلْد والجنان في زعمهم.

تُرى..أين إيمان تلك الجوهرة العجوز في قرنها السادس الهجري، مِن إيمان شابّاتٍ متعلِّماتٍ في قرنهنّ الخامس عشر الهجري؟! لاشك أنَّ بَصَرَ المُقارِن سيَرتدّ خاسئًا حسيرًا حين يَرى هاتيك الشابّات يرْفلن في الثّراء والنعيم، ويُجِدْن مِن اللغات العديد، ومع هذا هُم كما تَعلمون مِن التبرّج والسُّفور والشكّ واللهْو واللغْو ما الله به عليم.

ولعلَّ في ذلك درْسا بليغا بأنَّ البساطة -التي هي وسَط بين التكلّف والإهمال وبين الإفراط والتفريط- هي الجمال والكمال، وهي أقرب الطرق إلى الوصول الصحيح، وهي فنّ يَنبغي تَعلُّمه وتطبيقه وتعليمه، خاصّة بعدم حلول المدنيّة والحضارة وما صاحبَها مَن طوفان التكنولوجيا الحديثة وتعقيد العلوم والآداب والفنون. ومعلوم أنّ كلَّ تعقيد في الحياة بمختلف مناحِيها العقائديّة والعِبادِيّة والمُعامَلاتيّة؛ يُربك النفْسَ، ويُثقِل الكاهلَ، ويُشوِّش العقلَ، ويَخدش صفاء الرّوح، ويُصعّب من عملية التغيير واتخاذ القرارات، ويزيد في حجم الضغوط، ويُخفِّض سقف الحريّة، ويُضيّق أفق الهدوء، ويَجلب الفوضى، ويَستهلك الوقت ويَستنفد الطاقة. بينما تكمن عبقريّة العيْش في تبسيط المُعقَّد لا في تعقيد

البَسـيط، وكـذلك في تسـهيل الصـعب وتفكيـك المُركَّـب، وفي التخلّص مِن فضول العيْش وترهّلات الحياة وتخمة الأشياء.. وفي هذا نُؤمِّن على قول القائل: الطبيعةُ تُسَرّ بالبسيط، والحياةُ بسيطةٌ بينما نحن المُعقَّدون.

وإذْ يَطيب الحديث بسيرة ذلك الجيل الفِطري البسيط الفريد، فلا يَطيب ذِكْر حرف العين إلّا بالإشارة الخاطفة إلى معركة (عين جالوت التي وقعت في عام٦٥٨هـ الموافق ١٢٦٠م وانتصر فيها الملِك المُظفّر سيف الدين قطز على التتار فأوْقف بذلك زحفَهم وحمى بيضة المسلمين مِن همجيّتهم، وبالتنويه كذلك إلى أنَّ أَحَبَّ الأسماء إلى الله تعالى تبدأ بحرف العين حسبما ورد في الحديث الشريف عن ابن عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-: «أَحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» ... أمّا مسك الختام فيَحين بالعروج على بيت شِعر رقراق خطَّه شرف الدين الأنصاري وقال فيه:

«سِـتّ عُيـونٍ مَـنْ تَأَتَّـتْ لـه

كانـتْ لـه شـافيةً كافيـهْ

العِلـــمُ والعَليــاءُ والعَفــوُ والعِـــ
زَّةُ والعِفّــــــــــةُ والعَــــــــــافيهْ»

«خير الدين ما أتى عن طريق القلب، والعجائز إيمانهم عن طريق قلوبهم»

أحمد أمين

[غ]

أنّات الغرباء

منذ قديم الأزل والإنسانُ يُقدَّم على مسرح الحياة باعتباره كائنا مدَنيا اجتماعيا بطبْعه؛ فيَألَف ويُؤلَف، ويَأنس ويُؤنَس، ويَعيش ويَتعايش، ويُؤثّر ويَتأثّر، ويَفعل وينفعل. كما يُساق في عُرف المتصوِّفة على أنّه اشتقاقٌ مِن الأُنس الذي هو ضدّ الوحْشة والغُربة، ولعلَّ الكثيرِين مِنَّا قد جرَّب؛ كَم هو مُؤلمٌ أن يَحيا الشخصُ بعيدا عن أهله فيكابد وحدتَه، وكم هو مُوجعٌ أن يَعيش غريبا خارج وطنه؛ فيجْترّ ذكرياته ضمن سجن فسيح بلا جدران، ويجتاحه إحساسٌ مُمِضٌّ بأنّه كائنٌ مؤقّت لا دائم، وطبْعةٌ مُقَلَّدة لا أصليّة، وإنسانٌ مِن الدرجة الثانية لا الأُولى. علاوة على ما تُمليه ظروف الغربة مِن حكم باتٍّ بتأجيل أو حتى وقْف تنفيذ الأحلام والآمال، فكما لا تنشأ الحضاراتُ إلّا مع الاستقرار، يصعب تحقيق الأحلام والأمنيات في خيمة الاغتراب أو على متْن قارب التّرحال.

ولكن الأنْكى ألما والأشدّ وجعا هو أن يعيش الإنسانُ حالة من الغُربة وسط أهله وبني عقيدته وفوق ثرى وطنه، فلا يَسمع صدى لأفكاره ولا يَرى تطبيقا لقناعاته ولا يَلمس أثرا لبوْحه وأطروحاته، بمعنى أنَّ الغُربة هنا غربة إنسان لا غُربة مكان وغربة أرواح لا غربة أبدان وغربة معنويّة لا حِسيّة، وربّما هذا ما عناه الأديب والفيلسوف الصوفيّ أبو حيّان التوحيدي حين وصَف الغريب بأنّه: «مَن إذا قال لم يَسمعوا قولَه، وإذا رأوه لم يَدُوروا حوله، ومَن إذا تنفَّس أحْرَقه الأسى والأسف، وإنْ كتَم أكْمدَه الحُزنُ واللهف»، ولعلَّها أيضا هي ما قال فيها الشاعر عليّ بن النضر:

«أَرَى غُربـةَ الإنسـانِ أخـتَ وفاتِـه
ولـو نـالَ فيهـا مُنتهَـى طلباتـهِ»

وبالعودة إلى قواميس اللغة؛ فإنّ كلمةَ الغُربة تُطلَق على النَّوى والبُعد عن القوم، أو النزوح والرحيل عن الوطن، كما تُطلَق حال الغموض والخفاء وعدم الشهرة، وكذلك عند الذَّهاب والتّنحِّي عن النّاس، فيُقال رجلٌ غريب أو غُرُب ورجالٌ غرباء. وقد كان العالِمُ

الكبير أبو الريحان البِيروني، والذي نبغ في الفلسفة والرياضة والتأريخ، يُلقِّبه أهلُ بلدته في خوارزم، بالغريب؛ وذلك لطول غيابه، وكثْرة أسفاره، وقلّة لُبثه بينهم.

والحديث هنا عن غُربة معنويّة مرَضِية وغيْر صِحيّة، تبدأ بوادرُها عندما تتلبّد سماءُ الحاضر بظلم اجتماعي، وتُوحل أرضُ الواقع بقهر سياسي، ويَفسد ما بينهما مِن هواء بتخلُّف عِلمي وتسفُّل أخلاقي، ولا تكتمل ولادتُها إلّا عندما يَتلفّع المستقبلُ بوشاحِه الأسود، ويُسدل اليأسُ سدولَه على نوافذ الأمل، فيَعجز الشخص حيال ذلك أو يَجبُن عن المواجهة والتّحدِّي، ويَغترب عن الواقع؛ ليصبح ماضيه، حاضرَه ومستقبلَه في آن واحد، إذْ يرتدّ نفسيًّا وذهنيا إلى حضن ذلك الماضي، فيَمحو ما به مِن سيئات، ويُضاعف ما فيه مِن حسنات، ويفتح له ثمانية أبواب، ثمّ يجعله جنّتَه الموهومة وفردوْسَه المفقود ووطنه المسلوب...وهذا ما يُسمِّيه علماء النَّفس (التعلُّق المرَضِي بالماضي) أو النوستالجيا. وقد وصَّفوه مرَضيًّا؛ لأنَّ التعلُّق بالماضي وهْم بعيد، وعودته ضرْب مِن المستحيل، بعد أنْ طواه بساط الزمن؛ وأصبح تاريخًا يُتلى بعد عيْش، وأثَرًا يُروى بَعد عيْن.

وإذا كان العيْشُ في جلباب الماضي مرَضا؛ يَفرّ فيه صاحبُه مِن قهر الحياة، ويَهرب مِن تكاليف العيْش، ويَنسحب مِن ميدان الإصلاح، فإنَّ أخبث الأمراض هو ما يُعرف بالانهزام الحضاري أو الاستلاب الذاتي، حيث تمتدّ نقمة الشخص إلى الماضي المُجَرَّم في زعمه؛ لأنه ولَدَ حاضرا آثما بغيضا، وأَجْهضَ مُستقبَلا مشرِقا واعدا؛ فيَنسلخ -بموجب هذا التفنيد- مِن ذاته الأصيلة وكيْنونته الحضاريّة، ليمسك بأهداب حضارة أخرى مضادّة لقناعاته وأفكاره، ولكنّها ذات أضواء مُبهِرة وظلال وافرة، فينتحلُ شخصيَّتَها ويتقمَّص كيْنونتَها، بل ويدافع عنها ويَدعو إليها ويبشِّر بها، انتقاما مِن ذاته القديمة لا اقتناعا بذاته الجديدة، وذلك جرْيا على قاعدة أنَّ الضعيفَ مَفتون بالقويّ، والمهزومَ مُغرَم بالمُنتصِر، وفي هذا توثيق لمقولة الجاحظ: « النّاس مُوكَّلون بتعظيم الغريب واسْتطراف البعيد».

قد تكون تلك الإصابة فرديّة، ولا تتعدَّى أشخاصا هنا وهناك، فتخفّ وطأتُها وتقلّ آثارُها، ولا تعدو نقيق ضفدع وصرير صُرصور. وقد تتفاقم فتتحوّل إلى جائحةٍ تجتاح المجتمع، ووباءٍ

يفتك بالأُمّة، وعندها تكون الطامّة والصاخّة، إذْ تَعني السقوط مِن عَلِ الحريّة وعِزِّ الاستقلال وسجلّ الحضارة، إلى قعْر سوق نخاسة يُصبحون فيها مثاقيلَ بالدرهم والدينار وبَضائعَ كاسدة مُزجاة ومطايا جاهزة للاحتلال، كما يُصبحون عندها أضحوكةً كدجاجةٍ تمشي مشية الدِّيك، فلا هي باضتْ كالدجاج، ولا صاحتْ كالدِّيَكة.

ولأنَّ المنشأَ واحدٌ في كلا العِلَّتين -التعلُّق المرَضِي بالماضي والهزيمة الحضارية- اللتان تَمخَّضتا عن الغربة النفسيّة، فإن الدّواء أيضا واحد، ألا وهو استعادة التّوازن النّفسي والثّقة بالذات، والتَّحلِّي بإرادة فولاذية ترِد المحيطات ولا تقنَع بالبحيْرات، واستحْضار نيّة التغيير وطاقة الأمل ووقود الإيمان، والعضّ بالنواجذ على الهُوِيَّة التي تُعرَف بأنها «حقيقة الشيء وصفاته التي يتميّز بها ويُعرَف بها»، والتي نبَّه الشيخ سلمان العودة إلى ضرورة الحفاظ عليها حين قال: «الحفاظ على الهويّة مطلب جوهري، ويجب النظر إليها كمنصّة انطلاق نحو الآخَر لنؤثّر ونتأثّر بحكمة، وليس كسجن نحبس فيه أنفسنا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا»...

وساعتئذ ستكون الغُربة طبيعيّة والوَحشة صِحيّة، تماما كغُربة المؤمنين[١] وسط الملاحدة وغُربة المُوحِّدين وسط المُبتدِعة وغُربة العلماء وسط الجهّال وغُربة الأحرار وسط العبيد، وكغُربة الطيِّبين في آخر الزمان حين يَبلى الدِّينُ كما تَبلى الثياب ولا يَبقى على وجه البسيطة إلّا شِرار النّاس، وهي ما تُعرَف بالغُربة الثانية[٢] التي أَلمح إليها سفيان الثوري بقوله: «اسْتوصُوا بأهل السُّنَّة خيْرا فإنّهم غُرباء»، وكذلك الحديثُ الشريف الذي خصّ هؤلاء الغُرباء بالمديح فقال:

«بدأ الإسلامُ غريبا ثمّ يعود غَريبا كما بدأ فطُوبى للغُرباء، قِيل يا رسول الله مَن الغُرباء؟ قال: الذين يُصلِحون إذا فسَد النّاس».

---

(١) يقول ابن القيّم: «أهلُ الإسلام في الناس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السُّنَّة الذين يُميِّزونها مِن الأهواء والبدع غرباء، والداعون إليها والصابرون على أذى المخالفين هم الأشدّ غربة».

(٢) على اعتبار أن الغُربة الأولى هي الفترة المَكيّة التي كان يَطوف فيها -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المجالس والأسواق قائلا: مَن يؤويني؟ مَن يَنصرني حتى أُبلِّغ رسالةَ ربي؟

كما ستكون تلك الغُربةُ أيضا فضيلةً لا مندوحة عنها؛ إذْ تتّسق مع وصيّة الحبيب -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- لأحد العَبادِلة[١] وهو عبد الله ابن عمر: «كُن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وذلك لأنّ الغريبَ حتْما سينشغل بالخالق عن الخلْق وبذاته عن غيره، فيَسلم مِن الرذائل التي تنشأ مِن خلطته بالناس والانبساط إليهم، ليُصبح قليل الحسد والحقد والنفاق والنزاع، ويَسلَم مِن الوقوع في أعراض الناس والوشاية بهم، ويَتخلّق بأخلاق الزُّهّاد النُّسّاك، ويَقنع في العيش بحدّ البُلغة والكَفاف.

كثيرٌ مِن الأفكار العظيمة وُلِدَتْ وعاشَتْ وربّما ماتَتْ غَريبة وشاذّة، حتى وُصِم أصحابُها بالجنون، بعد أن رمَتْهم الدهماءُ بأحجار السّخرية وسهام الاستهزاء، ولكن ذلك لم يُسْلِمهم للطوفان ولم يُدَجِّنْهم كالقطعان، بعد أنْ استعصَتْ فطرتُهم على الإغراء والإغواء، وبعد أنْ منَّ الله عليهم بالثّبات ولزوم الجادّة، ولا

(١) العبادلة؛ لقب أطلقه أهلُ الحديث وجمعٌ من العلماء على أربعة من الصحابة الكرام وهم؛ عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهم أجمعين.

أَدَلّ على ذلك مِن حمَلة وحْي السماء مِن الأنبياء والرسل، حتى إنّ بعضَهم يأتي يوم القيامة ولا تابع له، بعد أن عاش في ربوع الأرض غَريبا يُنادِي ولا مجيب ووحيدا يَدعو ولا مُستجيب، ويَنسحب ذلك على تجارب أخرى في الغُربة الفكريّة؛ كعباس ابن فرناس في محاولاته للطيران، وتوماس إديسون في تجاربه على المصباح، وجاليليو في نظْرته للكون، وابن النفيس في تفسيره لعمليّة الإبصار، وماركوني في فكرته عن نقل الأصوات، فكلّهم كانوا في نظر معاصِرِيهم غُرباء حَدّ الشذوذ وفُرادى حَدّ الهوان ومجانين حتى النخاع، وكأنّ قدَر هؤلاء أنْ يَتألَّموا مَثنى ويَدفعوا الضريبة مرَّتيْن؛ مَرّة في سبيل تحصيل الوعْي والفكْر، ومَرَّة أخرى حين يعشون فرادَى في مجتمع بلا وعْي فيَكثُر فيه المُنابِذون والمُخالِفون والمُخذِّلون، وهو ما لخَّصه الدكاترة زكي مبارك حين قال بأنَّ المفكِّرين في جميع العصور غرباء، ونظَمه الشاعر علي الجارم فقال:

«كَتب اللهُ أن يَعيش غريبا

كُلُّ ذي دعوةٍ إلى الحقِّ نابِهْ»

بعد رحلة اغتراب في أمريكا دامَتْ عشرين سنة، وعلى طريقة أطباء الأرواح، لخَّص ميخائيل نعيمة تجربتَه حول الغُربة المَكانيّة[١] فقال: «الدَّرس الذي علَّمَتْنِيه الغُربة هو أن لا غُربة في الكون على الإطلاق إلّا غُربة الإنسان عن ربِّه وغُربته عن ذاتِه»...أمَّا عن الغربة الثانية التي يحياها المسلم المعاصر في بلاد الغرب والشرق على السواء؛ فإنَّ الشفاء منها يَكمن في اليقين بأنَّ الحقَّ حقٌّ بذاته لا بأعداد معتنقِيه والباطلَ باطلٌ في نفسِه لا بِنُدرة تابِعيه، وأنَّ الكَثرةَ لا تعني الصِحّة حتى وإنْ سدَّت جموعُها عينَ الشّمس والقلّةَ ليستْ دليلا على الفساد حتى ولو وصلَتْ حدّ الفذّ والفرد؛ فقد كان خليلُ الله أُمّة[٢] وكان فتيةُ الكهف قِلّة، بينما كان أكثرُ النّاسِ –حسب الوصف القرآني– هم مَن (لا يَعلمون) و(لا يَعقِلون) و(لا يُؤمنون) و(لا يَشكرون) و(لِلحقّ كارِهون).

وقد تَحدَّث النفيسي في كتابه (على صهوة الكلمة)؛ عن أزمة الاغتراب التي يعيشها المسلم المعاصر، نتيجة التناقض بين ما

---

(١) يُذكر أنَّ اللبنانيين واليونانيين هم أكثر الشعوب عراقة في الهجرة والاغتراب.

(٢) بمعنى أنّه -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كان فردا في الوجود العددي، وأُمّة في التأثير الفعلي.

يُـؤمن بـه ومـا يـراه علـى أرض الواقـع، وفنَّـد الخيـارات الثلاثـة المطروحـة، فأكَّـد أنَّ خيـار الانسـحاب مـن مسـرح الحيـاة سيؤدِّي بصاحبه إلى الـذبول فيَـذوِي دون أن يشـعر بـه أحـد، ثـمّ ثمَّـن فدائيـةَ وفروسيةَ خيار الثورة ولكنّه شكك في قدرتها على الحـل نظـرا لعـدم تكـافؤ القـوى، واختـار الخيـار الثالـث الـذي يـتلخَّص في تحقيـق مـا يمكـن تحقيقـه مـن مقاصـد الشـريعة ضـمن النظـام العـام للأوضـاع والأشياء، وذلك بعد أن وصف هذا الخيـار بأنّـه يُشـبه المشـي مـدى الحياة على حدّ الخنجر!

أَجارَتَنـــا إنّـــا غَريبـــان هـــا هنـــا
وكـــلُّ غريـــبٍ للغريـــبِ نســـيبُ

امرؤ القيس

[ف]

مُتلازِمة الفِكر والفقر

إذا لم نُؤمِّن على ما تَجرِي به ألسنةُ العامّة؛ بأنّ هذا النَّفر أو ذاك مكتوبٌ على جبينه الفقر، فإنَّ ما يَسوُقه الواقع وتسرده التجارب؛ كفيلٌ بأن نُؤمِّن على أنَّ جُلّ المُبتلين بداء الكتابة والمُتيَّمِين بالأقلام والأوراق والمُنتَمِين لعالَم الفكر والأدب، محفورٌ على جباههم وسْم الفاقة والمسْغبة، ومختومٌ على ظهورهم خاتم الفقْر والخَصاصة، حتى جاز أن ندشِّن (متلازِمة الفكر والفقر) على غرار المتلازِمات[1] التي تعجّ بها المراجع الطبيّة مثل (متلازِمة داوِن) و(متلازِمة بَارِيه) و(متلازِمة تِرنَر)، وهو ما عناه الأديب والمؤرّخ الأندلسي (ابن بسام) حين قال: «حاملُ الأدب أضْيع من قمَر

(١) المُتلازِمة مصطَلح يَشيع استخدامه في الأوساط الطبية، ويَعني مجموعة من الأعراض والعلامات المتزامِنة التي تصف في مجموعها مرضا معيّنا، وعادة ما يتمّ اشتقاق اسمها من سماتها المَرَضية أو مِن اسم الطبيب الذي قام باكتشافها.

الشتاء»، وقصَده الشاعر أبو إسحاق الصابئ (ت/ ٩٩٤م) الذي نظَم قائلا:

«الضَّبُّ والنُّونُ قد يُرجَى اجتماعُهما
وليس يُرجَى اجتماعُ المالِ والأدبِ»

لم يكن العصر العباسيّ الأوّل[1] دوْحة للأدب والفكر، وأيّاما لذهَبه وماسِه؛ إلّا بعد أن تنعَّم الأدباءُ والمفكِّرون باستضافتهم في القصور، وبعد أن تناوَب على بنوّتِهم الملوكُ الذين أمَّنوا لهم أكْرَم عيْش وألْيق مكانة، حتى إنَّ (المأمون) كان يزِن ما يُترجِمه حنين بن إسحق مِن كتُب ويُعطيه ثقلها ذهبا[2]، علاوة على أبيه هارون الرشيد

(١) هي فترة المائة الأولى الزاهرة(١٣٢-٢٣٢هـ)من تاريخ الخلافة العباسيّة التي عمَّرت ما يزيد على خمسة قرون (٥٢٤عام)، وكان أبرز خلفائها (المنصور) و(الرشيد) و(المأمون) و(المعتصِم).

(٢) من طريف ما ذُكر؛ أنّ القيِّم على دار الحكمة، اشتكى للخليفة المأمون بأنّ حنين بن اسحاق استغل قرار الخليفة بإعطائه وزن ما يترجِم ذهبا، فصار يكتب على ورق سميك مصقول ويكتب بخط كبير ويباعد بين السطور، لزيادة الوزن والأجر، ولكنّ المأمون لم يصغ للشكاية، إيمانا منه بأنّ ما يترجمه (حنين) هو من كنوز الحضارات التي يتضاءل أمامها كلّ الذهب.

الذي كافأ الأصمعيّ بعشرة آلاف درهم لإجادته وبلاغته في وصْف فرَس له. وكذلك فعَل سيف الدولة الحمداني، الذي نقَد أبا الفرج ألف دينار على كتابه (الأغاني)، قبل أن يزيده خليفة الأندلس ألْفا أخرى من الدنانير الذهبيّة. كما لم تكن قرطبة مركزا للثقافة في أوروبا؛ إلّا بعد أنْ بلغ فيها الغرام بالكُتب والمكتبات، حدّ اقتنائها والزهْو بها كالكنوز الثمينة والقطع الأثريّة الفاخرة.

قَضَى (بنو العبّاس) تحت سنابك خيْل التتار في عام ٦٥٦هـ، وضاعتْ الأندلس على أيدي (بني الأحمر) بعدها بمائتي عام، فكان أن لاحتْ نذُر الفقر في سماء أهل الفكر، وجفّت المياه في جداول الأدباء؛ حتى تَظاهَر عزيز نيسين -الملقَّب بموليير الأدب التركي- بالألم في أسنانه؛ ليخلع الذهبيّة منها ويَقتات بثمنها. وباع الكاتبُ الروائي ثروت أباظة ما ورثه مِن أطيان لينفق على موهبته الكتابيّة، وعجز الرافعي عن تدبير عشرين جنيها لِيُلحق ابنتَه خديجة بالقسم الثانوي فلم تُكمِل تعليمَها، وأَنفق الدكاترة زكي مبارك على أوراقِه ومدادِه أضعافَ ما أَنفق لطعامِه وشرابِه، حتى رَثَى حالَه قائلا: «جنيْتُ على نفسي حين أَضعْته بين سواد المِداد وبياض القرطاس في زمن لا ينفع فيه غير الاتّجار بالتراب». وعلى نغَمهم

الشجيّ عزف المازني[١] حين نَعى على الأدب أنَّه لا يَكفل للمتجرِّد له حياةً أو معاشا؛ فقال إنّه لو فتح دكّانا لِبيْع (الطعميّة) لكان ذلك أكْسب له مِن إنتاج الأدب. ثمّ كان الأديب محمد السباعي الذي قال: «انقطعْتُ للأدب سنين عدّة، وكنتُ أعتقد أنّه سيجيئ يوم أربح فيه مِن الأدب ما لا يقلّ عن راتب أكبر موظّف في الحكومة، ولكن هذا الحُلم كان سرابا خادعا»، ثمّ نصح الشبّانَ بالانصراف عن طريق الأدب قائلا: «إذا أَمكن أن يكون هناك دواء يُبغِّض إليكم الأدبَ وصناعته، فلتسألوا عن مكانه وتشتروه بأغلى ثمن».

بل إنّ الأمرَ تَعدّى الشرق إلى الغرب في بعض الأحايين، فقد روَى الأديب الأمريكي راي برادبيري عن نفسه أنه تزوّج مِن زوجته الأديبة مارغريت ماكلور وفي حسابهما ثمانية دولارات فقط، فأخذ منها خمسة دولارات، وذهب بها إلى القسّ كي يدفع له بعد انقضاء مراسم الزواج، ولمّا سأله القسّ: ما هو عملك؟ أجاب برادبيري:

---

(١) عندما اتُّهِم المازني بأنه يكتب مِن أجل المال، وأنّه أصبح تاجر مقالات يهمّه ملاحقة السوق أكثر ممّا تهمه جودة البضاعة قال: «لا تنس أنّ الأديب في بلدكم جُبِر على أن يسلك هذا السبيل ليكسب عيشه وعيش أولاده، وليستطيع أن يحيا حياة كريمة تُشعِره بأنّه إنسان».

كاتب. فقال له القسّ: إذنْ ستحتاج إلى هذه الدولارات أكثر منّي، خذها، فأخذها وذهب.

وفي هذا عقد الكاتب أحمد أمين مقارنة مفجعة؛ ترسم مأساة الأدب، وتُظهر القطيعة بين الأديب والمادّة، فقال: «تتدفّق الأموال على الراقصة الخليعة والمغنّي المهرّج، بينما يعيش الأديب عيشة سوداء كحبر قلمه، ومن مجرى ضيِّق كشقّ قلمه!». وهو ما جسّده حال الكاتب المغربي محمد أديب السلاوي، الذي أفنى عمره في رواق الصحافة، وألّف نحو خمسين كتابا في مجالات الأدب والسياسة والفن والعلوم الإنسانية، وحاز الجائزة الوطنية الكبرى للصحافة المغربية عام ٢٠١٦م، ومع ذلك حاصره الفقر حصار اليهود لغزّة، إلى الحدّ الذي دفعه لطلب منحة ملكيّة تعينه على العيش في سنّ الثمانين!

وإذا كان هذا حال سادة الأدب المبرَّزين وقادته الغُرّ المَيامِين، فالحال أنكى وأبأس مع مَن دونهم، حيث يُواصل الانحدارُ مداه كجلمود صخر حطَّه السَّيْل مِن عَلٍ، فيَقرع قلبَك قبْل عينك ويَصفع قفاك قبْل ناظريك، إعلاناتٌ سمِجَة تبصق على الكلمة وتنتعل الفكرة وتهزأ بالكتابة؛ فتنثر الملحَ على الجرح وتطلب كُتّابا

للمقالات، وبعد أن تَشترط عليهم إتقان الفصحى بنحْوها وصرْفها وبلاغتها، يَعِدونهم بغنيمة مقدارها خمسة جنيهات عن كلِّ مقالة يبلغ عدد كلماتها الخمسمائة!! أكثر من ذلك، نجد جريدة الكترونية تشترط على كتّابها جزْية سنوية، نظير نشْرها لمقالاتهم! ... ولله درّ الشاعر إيليا أبي ماضي حين قال:

«أشْقَى البريّةِ نفسًا صاحبُ الهِمَمِ
وأتْعسُ الخلْقِ حظًّا صاحبُ القلَمِ»

وفي هذا يُحكَى على سبيل التندُّر والتّفكُّه، أنّ جزّارا ضاقتْ به الجِزارة فلمْ تُعطِه جاها ولمْ تُطعمْه مَنًّا ولا عسَلا، فبدا له احتراف الشِّعْر عساه ينال الجوائز والأعْطيات، ولما باء بالخيبة والخسران، وكانت بضاعة الشِّعر أرْخص مِن الكرّاث، قال:

«كان فضلي على الكِلاب
ومُذْ صرتُ أديبا رجَوْتُ فضلَ الكِلاب»

والواقع أننا لم نكن لنغرق في هذا المستنقع الآسِن؛ لولا الجهل بقيمة الكلمة المكتوبة وعمْق تأثيرها في المجتمع، ولولا الانتقاص مِن أهميّة الفِكر ولزوميّته في إحراز نهضة وإجراء تغيير؛

وهو ما يتّضح جليًّا عبر مطالعة نسب الأميّة الأبجديّة والحضاريّة المرتفعة، وعبر الإحصاءات التي تقول بأنّ العالَم العربي بدوله الاثنتيْن وعشرين والمُوزَّعة في قارّتيْن تنشر حوالي خمسة آلاف كتابا جديدا سنويا، بينما يبلغ متوسِّط ما تنشره أمريكا -رغم أنّ عدد سكانها أقلّ من عدد سكان الدول العربية- سنويا حوالي ٣٠٠ ألف كتاب!

هذا بالإضافة إلى الترتيب المُتأخِّر -إن وُجد- للثقافة في قائمة أولويات النُّخبة الحاكمة؛ ففي حين تعتبرها بعضُ الحكومات خِدمة تنفق عليها وواجبا تحرص على أدائه وشرفا[١] تسعى لحيازته، فإنَّ حكوماتنا -الرّشيدة- تنحُو منحَى التسْليع والتّشَيُّؤ؛ فتصنِّف الثقافة على أنّها سلعةٌ ترفيهيّة وبضاعةٌ تجميليّة، وتروِّج لها إنْ جنتْ الأرباحَ مِن ورائِها، وترفع قدْرَها إنْ كانتْ مطيّة ذلولة

(١) خطب رئيسُ الوزراء الإنجليزي ذات مرّة فقال: إنَّ إنجلترا لا تشرُف بشيء قدر شرفها بأنَّ منها شكسبير ... ولِم لا، ومئات الألوف مِن السائحين يتوافدون كلّ عام مِن كافة أرجاء المعمورة، لزيارة بيته في شارع (هنلي) وسْط بلدة (ستراتفورد).

تَسوقها ودابّة صمّاء بكماء تحمل شعارَها، وإلّا كان التنكّر لها والإعراض عنها هو مآلها ونصيبها، ويكفي أنْ نعلم أنَّ ميزانيّة وزارة الثقافة في أُمّ الدنيا -!- لا تقترب مِن حاجز الواحد بالمائة مِن الميزانيّة العامّة، وأنّ نصيبَ الفرد مِن تلك الميزانية الهزيلة -بعد صرف أغلبها على مرتّبات موظّفيها في الأحد عشر قطاعا- لا يَتعدَّى أصابع اليد الواحدة مِن الجنيهات.

وقد ذهب صاحبُ المقدِّمة ورائدُ علم الاجتماع (ابن خلدون) وراء هذه الظاهرة، التي لم يفلت منها إلّا القليل أمثال الروائي حنّا مينهْ الملقَّب بأديب البحر والذي صرّح بأنّ قلمه ينقط ذهبا لا حبرا، وأمثال المفكّر محمّد عمارة الذي قال بأنه أحد القليلين الذي يعيشون مِن رِيع كُتبهم؛ فأَرْجَع -أي ابن خلدون- أسبابَها إلى أنَّ هؤلاء النَّفر المُنتِجين للأفكار، والسّاهِرين بين دفّات الكتب، والذين يُعمِلون العقل فيما هو معلوم بغْية الوصول إلى ما هو مجهول؛ هُم أعِزَّة عن الخلْق وعند نفوسهم، فلا يَخضعون لأهل الجاه ولا يَبتذلون أنفسَهم لأهل الدنيا لينالوا منهم حظّا يَستدِرُّون به الرزق، علاوة على أنَّ أوقاتهم لا تَفرغ لِطلَب الرزق لِما هُم فيه مِن

الشُّغل بهذه البضاعة الشريفة المُشتمِلة على إعمال الجنان وقدْح الأذهان.. وكأنّي به يُصدّق على ما قِيل: المتقدِّمُ في الحذق متأخِّرٌ في الرزق.

بينما فسّر طاهر أبو فاشا ذلك في كتابه (الذين أدْركتهم حُرفة الأدب)[١] فقال إنّ الأدبَ فكر وموقف ورأي، وغالبا ما يكون أصحاب الفكر والرأي مستهدَفِين ومُضيَّق عليهم، خاصة إذا كانت أفكارهم وآراؤهم معارِضة للسلطة. وحلّله ميخائيل نعيمة -وفي حلقه غصّة وفمه بالماء مليء- بقوله: «العالَم العربي فقير، وقد لا يكون فقيرا، لكنه لا يدفع أجرا إلّا للّذين يملؤون فراغ بطنه ويسترون عرْي جسده. أمّا الذين يعصرون أرواحهم وقلوبهم ويقدّمونها إليه، فلا يقبلها منهم إلّا إذا قدّموها في طاسات من جماجمهم. ولا يدفعون عنها أجرا سوى (بخٍ.. بخٍ) و(نِعمّا.. نِعمّا)، وكأنّ (بخٍ) و(نِعمّا) تكفيان غذاء للحم الكاتب ودمه وعظمه!

(١) حُرفة بضم الحاء وتعني الحرمان وسوء الحظ.

أمّا الفقيه الأندلسي ابن حزم الذي نَجا مِن كمَّاشة الفقر ونَعِم ببحْبوحة العيْش، فيرى أنَّ الفقر مجلَبَةٌ للعِلْم وأنَّه ألْيق بطلّابه ومُشتغِليه؛ إذْ إنَّ كثرة المال وطِيب العيش تسدُّ مسالك العِلم إلى النفوس، وتُسهِّل باب اللهو الذي يُغلق منافذَ نور المعرفة ويَطمس نورَ القلب ويُعمي البصيرة. وهو على النقيض ممّا يراه أديب المهجر ميخائيل نعيمة بقوله: «لو عرف الناس قيمة الإلهام لقالوا لذويه: لا تهتموا بما تأكلون أو تشربون أو تلبسون وأين تسكنون. أعطونا من إلهامكم وكلّ ذلك نقدّمه لكم مجّانا».

وهنا قد يسأل سائلٌ نَابِهٌ فيقول: إذا كان هكذا القِدْر وذاك الغطاء، وهكذا الطريق وذاك المصير، فما المُبرِّر لولوج هذا الباب؟، وما الداعي لإشعال ثقاب العِلم وقدْح زناد الفكر في كتابة المقالات وتسويد الصفحات وتأليف الكُتب؟ وحتّام السير في هذا المضمار؟

وعليه يجيب المؤرِّخ واللغوي الأديب (أبو العباس القلقشندي)، فيقول بأنّه ليس مِن طبقات الناس مَن يُساهم الملوكَ في جلالة القدر سوى الكُتَّاب. ويرى أنيس منصور في الكتابة خلْطا للحبر بالأوراق، بغرض صناعة معنى للحياة. بينما يُعدِّدُ صاحبُ

كِتاب (أهل القلم وما يَسطرون) دواعي الكتابة، فيقول: إنها بديلٌ للقوْل والفعْل، ووسيلةٌ للحفْظ والبقاء، وقناةٌ للتوصيل والتواصُل، وأداةٌ للفِكر والبوْح والمُتعة. وهو ما عبّرتْ عنه الكاتبةُ الأمريكية ماري كار، حين قالت «إنني أكتب لِأحلم، لِأتّصل بالآخَرين، لِأوثِّق، لِأوضِّح، ولِأترك بصمة في العالم، إضافة إلى أنني أحتاج النقود» ... بمعنى أنَّ للكتابة بواعث ذاتيّة وأُخرى تاريخية وأخلاقيّة.

أمَّا الإمام المجاهِد والمجتهِد (عبد الله بن المبارك) فقد تكفَّلَ بإجابة الشقّ الثاني مِن السؤال-إلى متى الاستمرار في الكتابة؟-حين قال: لعلّ الكلمة التي أنجو بها لم أكتبْها بعد.

لا ضيْر إذنْ[١] أن يَعجز القلمُ عن إطعام الأفواه، ولا غضاضة في أنْ ينأى بأربابه عن سكنى القصور والأبراج، ولا عيْب في أن تكون عمامة الأدب وقميص الفكر[٢] صنوا لجلباب العوز وسروال

(١) يقول صاحبُ (الكامِل): همَمْتُ أن أكوِي يدَ كلّ مَن يكتب إذًا ... فصوابها إذَنْ.

(٢) على طريق تحديد المصطلحات، يُذكر أنَّ المُصلِح فوق الداعية ودُون العالِم، وأنَّ المفكِّر فوق المثقَّف ودُون الفيلسوف.

الفاقـة، ولا حيلـة في أن يكـون الـرزق عنـد ذوي الأدب أرْوغ مِـن الثُّعْلُبان؛ فهكذا كتبَت الدنيا الفانية على أصحاب الرسالات وحمَلة المشاعل؛ فكانوا أكثر مَن يُعانون، وأقلّ مَن يَستفيدون، وأوّل مَن يَستيقظون، وآخِر مَن يَنامون.. وصدق فولتير حين قال: «لا يُضيرني أن ليس على رأسي تاج مادام في يميني قلم».

وبالعودة إلى حرف الفاء الذي يصنفه علماء اللغة كأضعف الحروف نظرا لخلوّه من صفات القوّة كالجهر والاستعلاء والقلقلة وغيرها، وبعيدا عن متلازمة الفكر والفقر؛ يجوز القول بأنّ حرف الفاء حرف ملَكيّ علَويّ، وذلك بعدما استحوذ على نصيب وافر مِن أسماء الأسرة العلَويّة؛ فالملك فؤاد الأوّل جاء من رحم أمّه (فريال)، ثمّ سمّى أولاده الخمسة من زوجته نازلي على حرف الفاء (فوزيّة، فايزة، فائقة، فتحيّة، فاروق). والملك فاروق غيّر اسم زوجته صافيناز إلى فريدة، ثمّ أنجب منها (فوزية وفايزة وفادية)، بل إنّ ابنه الملك فؤاد الثاني الذي لم يهنأ بالعرش من بعده سوى شهور سار على ذات النهج وكان له فخر الدين وفوزية .. وذلك جريا على

نهج البعض بجعْل أسماء أولادهم يبدأ بذات الحرْف من حروف الهجاء.

هيهـــات مـــع حِرفـــة الأدب
بلـــوغ وطَـــرٍ أو إدراك أرَب

ياقوت الحموي

[ق]

وقفات مع سورة ق

لو رُتِّبت حروف الهجاء على حسب الشرف والمجد، خلافًا لما رتَّبها عليه اللغويّ (نصر بن عاصم) في تبويبه الشَّكلي الذي اعتمد على الأشباه والنظائر في رسم الحروف؛ لجاء حرفُ القاف بخطٍّ بارزٍ على رأس القائمة، وذلك لِما ناله (مُناصَفة مع حرف الصاد) مِن شرفِ المكانة وعلوّ المقام، حين تَسمّتْ باسمه السورة الخمسون ضمن مائة وأربع عشرة سورة في كتاب الله العزيز وقرآنه المجيد، خاصّة إذا سلَّمنا بما أَوردَه الإمام الزركشيّ في برهانه والحافظ السيوطي في إتقانه؛ مِن أنَّ تسمية السُّوَر توقيفيّ لا مجال فيه لتوفيق فقيهٍ أو اجتهاد عالِم. وانظر هنا -رعاك الله- كيف أنّ الحرفَ بذاتِه في ميدان اللغة، مجرّد مفردَة كتابيّة ووحدة صوتيّة، لا يُفيد معنى ولا يُؤسِّس فائدة، ولكنه حين ينتظم في عِقد أشْرف كتابٍ وأجلّ كلام، يصبح نورًا ربّانيا وهَدْيًا سماويّا. واقرأ في ذلك ما قاله ابن القيّم؛ بأنّ حروف الهجاء الي افتَتح بها الربُّ سبحانه بعض

السور، أتت أحاديّة (ق) وثنائيّة (حم) وثلاثيّة (الم) ورباعيّة (المص)وخماسيّة (كهيعص)، ولم تُذكر قطّ في أوّل سورة إلّا وعقَّبها بذكر القرآن مُقسِما به أو مُخبِرا عنه-ما خلا سورتي (مريم) و(ن)-وفي هذا تنبيهٌ على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها؛ إذْ هي مباني كلامه وكتابه.

وتأتي سورة (ق) في خاتمة الجزء السادس والعشرين وبداية حزب المُفصَّل(١)؛ في آياتٍ قصيرةٍ زاجرة، وبوتيرةٍ سريعةٍ عاصفة، بلغَتْ خمسة وأربعين آية ضمن ستّة آلاف ومائتين وخمسة وستين آية (٦٢٦٥) بين دفّتي المصحف، وبترتيب نزول احتلّ المنزلة الرابعة والثلاثين بعد سورة المرسَلات. أمّا توقيت نزولها، فكان قبيْل الهجرة النبوية (ماعدا الآية الثامنة والثلاثين) التي وافقَت العام الثاني والعشرين بعد المائة السادسة للميلاد، ولذا فقد جاءتْ مُصطبِغة بطابع القرآن المكيّ؛ مِن حيث قِصَر الآيات، ومِن ناحية تناولها للكليّات دون التفصيلات وللعقائد دون الأحكام، إضافة إلى ذكرها لجانبٍ مِن قصصِ الأنبياء وتاريخِ الأُمم الغابرة.

(١) سُمِّي بذلك لقصر سوره، وقرب انفصال بعضهنّ عن بعض.

وكمثيلاتها التسعة والعشرين[(١)] من السُّوَر ذوات الحروف المقطَّعة، بدأت بحرف القاف كأحد الحروف الأربعة عشرة التي نظَمها ابن كثير في جملة «نصّ حكيم قاطع له سِرّ»، والتي وقَف عندها علماءُ التفسير مَلِيًّا ثمّ قالوا بأنّها مِن المُتشابِه الذي يُرَدّ علمُه إلى الله سبحانه... ﴿ق والقُرآنِ المَجِيد﴾ [سورة ق: ١].

أمّا عن نهج السورة الرئيسي وخطّها الموضوعيّ، فهو توكيد الركن الإيماني الخامس ألا وهو الإيمان باليوم الآخِر على اعتبار أنّ الدنيا هي اليوم الأوّل؛ وذلك عبر تقرير عقيدة البعث التي يَجري فيها ردّ الأجسام الفانِية المتلاشِية إلى أرواحها ضمن خلْق جديد، ثمّ عقيدة النّشور والحساب[(٢)] والجزاء بذكْرِ النَّذْر اليسير مِن مَشاهد

(١) (البقرة-آل عمران-الأعراف-يونس-هود-يوسف-الرعد-إبراهيم-الحجر-مريم-طه-الشعراء-النمل-القصص-العنكبوت-الروم-لقمان-السجدة-يس-ص-غافر-فصلت-الشورى-الزخرف-الدخان-الجاثية-الأحقاف-ق-ن).

(٢) يُعرَف الحسابُ بأنه إظهار تفصيل العمل الصالح وتمييزه مِن غيره، وإظهار المقبول والمردود، ومقدار الثواب والعقاب، وتذكير الناسي لعملِه.

القيامة وأهوال النار ونعيم الجنان... ﴿أَفَعَيِينا بالخلْقِ الأوَّلِ بل هُم في لبْس مِن خلْق جَدِيد﴾ [سورة ق: ١٥].

وقد رُوي أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة لمَّا رأت أباها مستلقيا في بيته يعاني سكرات الموت، ردَّدت بيتًا لحاتم الطائي يقول فيه:

«لَعمرك ما يُغني الثراءُ عن الفتى
إذا حشرجَت يومًا وضاق بها الصدر»

فكشف الصدِّيق -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- عن غطائِه وقال: يابنيّه: لا تقولي هذا، ولكن قولي: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تَحيد﴾[1]، ومعلوم أنّ سكرةَ الموت وما يتبعها مِن سلْب الروح هي قيامة الإنسان الصغرى، أمّا القيامة الكبرى فهي البعث الذي يتزامن مع النفخ في الصور، وإليها أشارت الآية الكريمة: «ونُفخ في الصّور ذلك يوم الوعيد»[2].

هذا وقد تَطرّقت السورةُ إلى ذِكر الصفات الستّ التي استحقّ بها مُجترِحُوها دخول جهنّم فقالت: ﴿ألقيا في جهنّم كلّ كفّارٍ عنيد منّاعٍ

(١) [سورة ق: ١٩].
(٢) [سورة ق: ٢٠].

للخير معتدٍ مريب الذي جعل مع الله إلها آخر﴾، ثـمّ أردفَت بالصفات الأربع التي أهَّلت أصحابَها إلى دخول الجنّة فقالـت: ﴿وأُزلفت الجنّة للمتّقين غير بعيد هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ مّن خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلبٍ مُنيب﴾.

ومع عِلْمنا بأنّ فضلَ كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلْقه، وأنَّ القرآنَ كلَّه فاضلٌ وليس فيه مَفضول؛ فقد خصّها -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالقراءة في الركعة الأولى من صلاة الفجر وفي صلاة العِيدَيْن وفي خطبة الجمعة، حتى إنَّ الصحابيَّة أمّ هشام بنت حارثة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تَروِي أنّها حفظتْ السورة من تكرار تلاوتها على منبر الجمعة مِن قِبَل سيّد الخلق وخيْر الأنام -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-... ويا بركة الحفظ مِن شفاه خيْر الخلق وسيّد الأنام!

وهنا قد يظن ظانٌّ أنَّ حديث البعث والنشور مضى أوانُه، وأنّ المخاطَبين به مِن رهط (أبي جهل) و(أميّة بن خلف) و(العاص بن وائل) قد ولَّى زمانهم وبادتْ عظامهم، وفي هذا افْتِئاتٌ على كوْن القرآن مُجرّدا مِن حدود الزمان وقاهرا لحواجز المكان، كما يَنمّ عن قصورٍ في فهم معنى الاعتقاد والإيمان؛ إذْ يَختزله هؤلاء الظانّون

في قول اللسان وتصديق الجنان دون أن يصدِّقه العمل[١] أو ينطبع به السلوك، زِد على ذلك أنّ (أبا جهل) و(أمَيّة) و(العاص) ما زالوا حاضِرِين هنا وهناك، وإن اختلفَتْ أسماؤُهم وتباينَتْ سحناتُهم، أو سكنوا القصور دون الخيام ورطنوا بالعجميّة دون العربيّة.

وقد يَفهم غيرُ نابِهٍ، أنَّ استحضارَ البعث والنشور إلى مقدّمة الذّهن وبؤرة التفكير، هو بالضرورة دعوة لتطليق الدنيا والانعزال عن تيار الحياة، على قاعدة مزعومة بأنَّ الحياةَ للموت وأنَّ الدنيا مرضٌ والموت ترياقها؛ فيَلزَم بذلك الفهم السقيم الصوامعَ ويَتسوّر المسابحَ ويَلبس الخشنَ ويقتصر على يابسِ الخُبز وعسِر الماء ونعال الحفاء، وهو بذلك لم يَسمع بقول لقمان الحكيم: «يا بني: لا تدخل في الدنيا دخولا يضرّ بآخرتك ولا تتركها ترْكا تكون كلًّا على الناس»...فحديثُ البعث والنشور الذي احتلَّ مرتبة القلب في سور (ق)، والذي جمع شتاتَه الحافظ البيْهقي فنظَمه كالدرّ في كتابه (البعث والنشور)؛ هو عاصمٌ للضعفاء مِن الأقوياء، وإنذارٌ

(١) تلازَم الإيمانُ والعملُ الصالح في القرآن عبر عشر آيات (آمَنوا وعملوا الصالحات)، مِمَّا يعني انتفاء أحدهما في غياب الآخَر.

للظالمين والمُتجبِّرين، وسلوى للمظلومين والمقهورين، وبُشرى للصابرين المحتسِبين، فضلا عن كونه وجْبةً لترقيق القلوب، ووقودا لإشعال فتيل العمل، وزجْرا للاستقامة على الطريق المستقيم، وحشْدا للوسائل بعد تجلية الغايات والأهداف، وهنا يتجلّى عدلُ الله في إقامة الحجّة على عباده وفي تعدّد الأدلّة الساطعة والقرائن الدامغة؛ فتارة يُقرّ العبدُ بلسانه، وتارة يَقرأ ما سُطِّر في كتابه، وتارة يُختَم على الأفواه فتنطق الجوارح، وتارة تَشهد الرّسل.

في كتابه (جمالية الدِّين) يقول فريد الأنصاري أنَّ: «جوهر التفكُّر في القرءان قَلبيّ»، وربّما هذا ما يَجعل كلَّ الكلام يُمَلّ بالتكرار ويَخلَق بالتّرداد فيَنقطع عطاؤُه وتَنضب دلالاتُه بعد قراءة أو بضع قراءات[1]، إلّا هذا الشّافِع المُشَفَّع والمَاحِل المُصَدَّق والحاكِم غير المحكوم مِن كلام الله؛ فكلماتُه حيّةٌ لا تَموت وشابّةٌ لا تَشيخ وخضراء لا تَذْبل وطرِيّةٌ لا تَيْبس، وهو ما تحكيه السّيرة مِن أنَّ النَّبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قام ليلة كاملة بآية المائدة التي جاءت

(١) يقول الإمام السيوطي: إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد، ومثله ما قاله الزهري: إعادة الحديث أشد من نقل الصخر.

على لسان سيدنا عيسى -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-: «إنْ تعذِّبهم فإنَّهُم عبادُك وإنْ تَغفِر لهم فإنَّكَ أَنْتَ الْعزيزُ الحَكِيم»، فمازال يَقْرؤها -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويُردِّدها حتى أَصبَح، وهو ما جرَى في كلام العرب جريان المثَل فقِيل: «كلُّ مكرَّرٍ مَمْلولٌ إلّا القرآن»، وعبّر عنه أحدُهم شِعرا فقال:

«جميع الكُتُب يُدرِك مَن قرأها
ملالٌ أو فتورٌ أو سَآمه
سوى هذا الكتابِ؛ فإنَّ فيه
بدائعَ لا تُمَلُّ إلى القيامه»

وقال آخَر:

«جاء النبيُّون بالآياتِ فانصرمَت
وجئتنا بحكيمٍ غير منصرم
آياته كلَما طال المدُ جددٌ
يزينهنّ جلالُ العِتق والقِدم»

وحَريٌّ بنا هنا أن نجدّدَ العهدَ مع القرآن، ونتعامل مع كتاب الله بتعظيمٍ يليق بقدسيّته ومكانته، خاصّة إذا لاحظْنا أنّ السورةَ بدأت بالقسَم بالقرآن ثمّ خُتِمت بالتذكير به والتخويف بما فيه مِن زجْر

ووعيد ﴿فذكّر بالقرآن مَن يخاف وعيد﴾[1]، وإذا دقَّقنا في قوله تعالى: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لِمَن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد﴾ وما فيه مِن إشارةٍ إلى أنَّ قارئ القرآن يجب عليه أن يفتح قلبَه بالحضور والخضوع ويَفتح سمعَه بالإصغاء والاستسلام؛ ليقطف الثمرةَ يانعة كاملة ويَنعم باللذّةِ موفورة غير منقوصة، وكذلك إذا علمنا أنَّ علَّامة الهند (الإمام الدهلوي) قد عَدّ تعظيمَ القرآن مِن أهمّ المقاصدِ الكُلّية للتشريع، علاوة على ما قاله صاحبُ الظلال في مقدّمته البليغة؛ بأنّ الحياةَ في ظلِّ القرآن نعمةٌ تبارك العُمرَ وتزكّيه ولا يَعرفها إلّا مَن ذاقها.

وفي تعظيم القرآن وإعلاء مكانته؛ ورَد في (معجم الأدباء) لصاحبه (ياقوت الحوي) أنَّ يهوديًّا جاء (أبا عثمان المازني) النحوي بمائة دينارٍ ليقرأ عليه الكتابَ لسيبويه، فامتنع، رغم أنّه كان في غاية الحاجة والفاقة، فقِيل له: لِمَ رددْته؟ قال: لأنَّ في الكتاب أكثر من ثلاثمائة آيةٍ مِن كتاب الله -عَزَّوَجَلَّ-، ولستُ أُمكِّن هذا

(١) سورة ق: ٤٥.

اليهودي منها، غِيرة على كتاب الله وحميّة له، ثمّ دعا الخليفة الواثقُ المازنيَّ ليصحِّح له بيتَ شِعر، فأعطاه ألف دينار، فقال: ردَدْنا لله مائة فعوّضَنا ألفا.

أضِف إلى ذلك أنَّ القرآنَ الكريم قد ضَمن للعربية -كما يقول الشرباصي في كتابه يسألونك- معاني القداسة والبقاء والاستعمال المستمرّ والفرْضيّة التعبديّة، ولذا فالعناية بتحفيظ القرآن وتلاوته[١] وتجويده في المدارس والجامعات؛ هي أنجع الوسائل لتكوين قاعدةٍ لغويةٍ مضبوطة خالية مِن التصحيف والتحريف الذي يَعجّ به اللسان العربيّ هنا وهناك، وهي السبيل الأقْوم لتنمية ملَكةٍ لغويّة وذائقة قِرائيّة تُثري المعرفةَ وتُعزّز الثقافة. ولعلّ بعضنا قرأ عن قصص الذين أسلموا قديمًا وحديثا، ووقف على أنّ السبب الأوّل

(١) في عِلّة قراءة القرآن الكريم بالترتيل يقول الإمام الغزالي: «الترتيلُ مُستحَبٌّ لا لِمجرد التدبّر، فهو أقرب إلى التوقير والاحترام، وأشدّ تأثيرًا في القلب مِن الهذْرمة والاستعجال»، ثمّ يقول: «تلاوة القرآن حقّ تلاوته، هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب؛ فاللسان يرتّل والعقل يترجم والقلب يتّعظ».

وراء إسلام أغلبهم، كان اهتزاز القلوب لسماع آيات الله تُتلى على مسامعهم، وشعور السكينة الغامر الذي حلّ بدار أرواحهم، وهذا هو الإعجاز الحقيقي للقرآن، والذي يغفل عنه الكثيرون حين يصطنعون بعضًا ممّا يُسمّى الإعجاز العددي والعلمي، القرآن في غنى عنه.

ومِن طريف ما رُوي، أنّ فارس التلاوة وقيثارتها الشيخ (مصطفى اسماعيل)، كان يقرأ سورة (ق) في إحدى الأمسيات التي يحتشد لها الجماهير، وعلى عادته ملَك بصوته البديع وأدائه المُحكم قلوبَ السامعين وعقولَهم، حتى بلغ الوجْد بأحد السامعين كلّ مبلغ، فخرج عن شعوره وشقّ جلبابه كأنّ جنًّا مسّه أو خبلًا أصابه!

﴿إنّ في ذلك لَذِكرى لِمَنْ كان له قلبٌ أو أَلقَى السّمْعَ وهو شهيد﴾

[سورة ق: ٣٧]

[ك]

ميزان الكَمّ والكَيْف

على جناحَي الكَمّ والكَيْف يتأرجح حرفُ الكاف، فيُحلّق عاليا بسلام حين يرفّ الجناحان في تناسُق وتناغُم، بينما يتعثّر مُتملْمِلا ويَسقط متألّما حين تَجنح الكفّة إلى عالَم الكَمّ دون الكَيْف أو إلى عالَم الكيْف على حساب الكمّ...وغنيٌّ هنا عن البيان أنّ كَمّ الشيء هو مقداره وعدده، أمّا كَيْفه فهو حاله وصِفته وهيْئته ونوعيّته.

والحديث عن الكَمّ الذي هو نِتاج حركة اليد ويُمثّل البعد الأفقي للعمل والإنتاج، وعن الكيْف الذي هو ثمرة إعمال الذّهن ويُمثّل البعد الرأسي لحركة الحياة؛ ليس حديثا جدليّا فلسفيّا تنظيريّا، ولكنه حديث في صلب معضلة التخلّف الحضاري الذي ضرب بأطنابه في مجتمعِنا، ونشب أظفارَه في كلِّ زوايانا الحادّة والقائمة والمنفرِجة، فطال التعليمَ والتجارة والصناعة والصحّة والعبادة، وغيرها مِن مجالات الحياة المختلفة، وبالتالي هو حديث الوقت والضرورة في آنٍ واحد، وهو الواجب الأوّل أمام أيّ مجتمع يَروم البناء ويَتوخّى النهضة ويَحثّ الخُطى نحو التقدّم.

«الكَثرة تَغلب الشّجاعة»، «ضعيفان يَغلبان قويّا»..هذه عيّنة مِن اللافتات التي يَتبنّاها ويَستظلّ بها أصحاب نظرية الكَمّ، حتى لو رافقها العشوائية والارتجال، أو خالطها الهواية دون الاحتراف، أو ساءَتْنا بنتائجِها وفضحتْنا بآثارها. وهُم في ذلك أصحاب يدٍ طُولَى وأغلبيّة كاسحة، فلا يَحتاجون إلى داعم أو نصير ولا تُعوزهم الأيدي للتصفيق أو الحناجر للتهليل، وانظر حولك في تجارتنا وصناعتنا وتعليمنا وصحّتنا وعبادتنا يَأتيك الخبر اليقين..وهو ما عبَّر عنه الكاتب أدهم الشرقاوي قائلا: «عندنا محاكم كثيرة وعدْل أقلّ، وأدوية كثيرة وصحّة أقلّ، وعائلات كثيرة وصلة رحم أقلّ، وساعات كثيرة وإحساس بالوقت أقلّ، وكُتُب كثيرة وثقافة أقلّ».

أما نظريّة الكَيْف؛ التي تُؤمن بأنَّ عُصبةَ العميان يَهزمها مُبصر واحد، وتَتبنّى المثلَ القائل: «إذا فاتوكم بالكَثرة، فُوتوهم بالبُكْرة»[1]؛ فتعتمِد النّوعَ قبل العدد، والتخطيط دون الفوضى،

(١) البُكْرة هي أول النهار إلى طلوع الشمس، والمثل يَعني أنّ مَن سبقك بكثرة رجاله ومتاعه، يمكنك اللحاق به والتغلب عليه بالاستيقاظ المبكّر والعمل بجدّ ونشاط.

والأَنـاةَ دون العجلـة، والحقيقـةَ قبـل الصـورة، والموضـوعيّة دون الغوغائيّة، وتُثمِر تميُّزا أفضل ومتعة أكبر وعطاء أسرع وربّما جهدا أقلّ..ولكـن هـذه النظريـة –وللأسـف– يتيمـة الأب وسـط اللئـام ومهيضـة الجنـاح بيـن الـذئاب؛ ومـا ذلـك إلّا لأنّهـا تتطلّـب رسـوخَ إيمانٍ ومزيدَ جهدٍ وغزيرَ عرَقٍ وعميقَ فكر وأَيّوبَ صبْر .. وهـو مـا استوعبه الشيخ الرئيس (ابن سينا)؛ الذي ما فتـئ يـدعُو ربّه أن يهَبه حياة عريضة ملؤها الكيْف، وإن لم تكن طويلةً حافلـةً بـالكَمّ .. ولِـم لا؟! والعَظائم كُفؤها العظماء.

وفي كتابـه (فـيض الخـاطر) يُنظِّـر الأسـتاذ أحمـد أمـين للكيْـف ويَضعه في الواجهة فيقـول: «تقـدير الأشـياء بـالكيْف لا بـالكمّ منزلـةٌ لا يصل إليها العقلُ إلّا بعد نُضجه، أمّـا الطفـل في نشـأته، والأُمَـم في طفولتهـا، فـأكثر مـا يعجبهـا الكـمّ، وقـديما عَـرض علمـاءُ البلاغـة للكيْـف والكـمّ في الأدب وسَـمّوهما اسـما خاصـا هـو الإيجـاز والإطناب، وعَدُّوا الإيجازَ –الـذي يُقابـل الكيْـف–أشْـرف الكـلام، ومَثَّلوا للإيجاز والإطناب بـالجوهرة الواحـدة بالنسبة إلـى الـدراهم الكثيرة»، وفي هذا السياق الذي ينأى عن الكـمّ ويحـثّ الخُطـى إلـى الكيْف؛ تَبوّأ المثَلُ والحكمـةُ قمّـةَ القـول، وجـاءت مقولـة فردريك

نيتشه: «أطمح أن أقول في عَشر جُمل ما يقوله آخَرون في كتاب كامل»، ومقولة برتراند راسل بأنَّ مئةَ دماغ تزيد أو تنقص، كانت خلف أسرار النهضة والتفوّق العلمي الذي حدث في أوروبا.

أمّا المفكّر الراحل عبد الوهاب المسيري فقد فسّر الكيْف والكمّ بطريقة فلسفية إنسانية بقوله: حينما كان أحدُهم يعطيني هديّة ملفوفة كنتُ آخذها كما هي فأشكر صاحبها ولا أفضّ غلافها. وحينما نبّهني أحدُهم في الولايات المتحدة الأمريكية إلى ضرورة فضّ غلاف الهديّة وإظهار الإعجاب بها، أدركت أنّنا في مصر لا نفعل ذلك أبدا، ففضّ غلاف الهديّة وعرضها يعني تحوّلها من قيمة إنسانية (كيْف) إلى ثمن محدَّد (كمّ)، وفي هذا إخراجها مِن عالم التّراحُم إلى عالم التّعاقُد والتّبادُل.

ولو فتّشْنا في ميدان الصناعة، لوجدْنا أنّ اليابانَ في بدء نهضتها الصناعية أَقدمَتْ على إنتاج سلع زهيدة الثمن وقليلة الجودة بناء على نظرية الكمّ، فأَغرقَتْ الأسواقَ وحققّتْ الانتشار، لكنَّها لم تصمد ولم يَثبُتْ لها قدم أو يَعْلُ لها كعْب إلّا بعد أن اعتمدَت الجودة والدقّة والتميُّز في إطار مُفرَدات نظرية الكيْف، ولعلّ هذا هو

لبّ ما يُعرَف بنظام الأيزو العالمي؛ والذي يَصدُر عن المنظَّمة الدولية لتوحيد المقاييس، بهدف التحسين المستمرّ للإنتاج، وضبْط جودة الخدمات والمُنتجات التي تقدِّمها الشركات والمؤسَّسات الراغبة في الحصول على شهادات الأيزو.

وعلى ذات الدرب وفي ميدان الحرب؛ لم تدحر العصاباتُ الصهيونية سبعةَ جيوش عربية وتبتلع فلسطين في عام ١٩٤٨م، إلّا بتبنِّيها لنظرية الكيْف. ولم تُنهِ أمريكا الحربَ العالمية الثانية وتُجبرْ اليابان على الاستسلام، إلّا بسبْقها في نظرية الكيف. ولم يَسحقْ جيشُ الأكفان المسلمين ذو الخمسة عشر ألف مقاتل بقيادة السلطان السلجوقي ألْب أرسلان جحافلَ الروم التي بلغتْ عشرة أضعافه في معركة (ملاذكرد) إبّان القرن الخامس الهجري، إلّا بتفوّقهم في نظرية الكيْف.

وهو ما أَجْمَله المفكِّر عبد الكريم بكّار بقوله: «التقدّم الحضاريّ كثيرا ما يَتطلّب تفوُّق الكَيْف لا الكَمّ»، ثمّ فصّله بقوله: «يدلّ حديث القصعة (ولكنكم غثاء كغثاء السيل) على أنّ مشكلة الأُمّة في آخر الزمان هي مشكلة نماذج رفيعة، لا مشكلة أعداد

وفيرة، فهل آن الأوان لانصراف اهتمامنا إلى الكيْف عوضا عن الافتتان بالكمّ؟»، وكذلك المؤرِّخ عماد الدين خليل الذي استنبط من كتاب الله العزيز ما يُدلّل على هذا النهْج فقال: المسألة ليستْ مسألة أعداد وأرقام، وإنَّما مسألة القُدرة المُكثَّفة على الفاعليّة والتّغيير، فالقرآن الكريم ضرَب مرارا وتكرارا قاعدة الأرقام واستبدلَها بقاعدة الفِعل التاريخيّ النوْعي لا الكَمِّي: ﴿إن يَكُن منكم عشرون صابرون يَغلبوا مِائتَين وإن يَكُن منكم مِائة يَغلبوا أَلفا مِن الذين كفروا﴾ [الأنفال: ٦٥].

وتَتجلَّى نكبتُنا في تطبيق نظرية الكَيْف -وبوضوح- في مؤشّر جودة التعليم العالمي الذي تَصدّرَتْه سنغافورة ذات الحفنة ملايين، بينما تَذَيّلَتْه مصر التي تَربو على المائة مليون وذلك في العام ٢٠١٥-٢٠١٦م؛ ولا غرابة أو أعجوبة في ذلك، فلدينا جامعات[1] تقوم على التعليم دون البحث، وعلى التخريج قبل التأهيل، وعلى مَنْح شهادات دون اعتبار لمُتطلَّبات سوق العمل أو ربطها

(١) يقول المفكر محمد عابد الجابري: «إنّ جامعاتِنا تُعيد إنتاج الأميّة».

باحتياجات المجتمع. وكذا الحال والمنوال في مدارسنا ومعاهدنا؛ التي تتبنّى مناهج التلقين والحشو، وتَزهد في المناهج القائمة على رياضة العقل، والهادفة إلى تنمية ملَكة التحليل والنقْد، والجادّة في تحصيل ثمرة الفهم والوعي عبر التعليم التشاركي النشِط، وهذا ما أكّده الأستاذ الأميريّ في كتابه (زدني علما)، حين أَقرَّ كشاهد عيان ومُعلِّم في مراحل الدّراسة المختلفة على مدار رُبع قرن من الزمان، بأنّ (٢٠٪) ممّا يَجترّه الطلّابُ لا فائدة تُرجَى منه في دنيا ولا نفع له في آخرة، وذلك في تأكيدٍ على أنّ ما قلَّ وكفَى خيْرٌ مِمَّا كَثُر وأَلْهَى.

أمّا في عبادتنا فحدِّث ولا حرج؛ عن إيمان بلا عمل، وصلاة بلا خشوع، وتلاوة بلا تدبّر، وعبادة بلا إخلاص، وعمل بلا إتقان، وليس ذلك إلّا لتخلِّينا عن نظرية الكيْف التي رجَح بها إيمان (أبي بكر) على إيمان أمّة بأكملها، وسبق بها درهم وحيد مائة ألف درهم مُجتمِعة، وعدَل بها (القعقاع بن عمرو) جيشا عرمْرما، وفاقتْ بها آيةٌ واحدةٌ ختمةً كاملةً نثَرها قارؤها نثْر الدّقَل وهَذّها كهذِّ الشِّعر.

وما الإخلاص أو الإحسان الوارد في كتاب الله الكريم، إلّا تعبيرٌ قرآني متفرّد عن الكيْف وحَثٌّ وحَضٌّ على لزوم غرْزه

والتمسّك بأهدابه، وإلّا كنّا كغثاء السيْل الذي جرَّ في ذيله الخزي والخسران كما ورد في الحديث الشريف الذي قال: «تُوشك الأممُ أن تَداعى عليكم كما تَداعى الأكلةُ إلى قصعتها»، فقال قائل: أو مِن قلّة نحن يومئذ يا رسول الله، قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل»، والغُثاء هو ما يَحمله السّيْل مِن فتات الأشياء التي على وجه الأرض، وهو مع كثْرته لا طائل مِن ورائه...إذْ ليْس بالكمّ وحده تُقاس الأشياء.

ولعلَّنا جميعا نذكر في هذا الصدد قصة الرّجل الذي دخل المسجد فصلَّى، ثمَّ أقبل على النبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِيُسلِّم عليه، فأمره النبيُّ أن يعودَ ثلاثا لِيصلِّي صلاةً تتوفَّر على الجودة والإتقان، إذْ إنَّ الله طيِّب لا يَقبل إلا طيِّبا...والطيِّب مِن الشيء هو كلّ ما خلا مِن الأذى والخبث. وجدير بالذّكر أنّ في جسم الإنسان نحو ٤٠٠عضلة، بينما بعض الحشرات بها ٤٠٠٠عضلة، ورغم هذا التفوق الكمِّي العضلي للحشرات؛ فإنّ الإنسان أقوى. وأيضا نجد في عين الإنسان عدستين فقط، بينما تحتوي كل عين لفراشة (أبي دقيق العيد) ١٧٠٠٠عدسة، ورغم ذلك فالإنسان أبْصر.

ومِسكُ الختام في ذلك، ما أَوْجزَه أستاذُ الحضارة ومُفكِّرُ النهضة مالك بن نبي، وعلى طريقة خيْر الكلام ما قلّ ودلّ، فقال: «ما كان لِحضارةٍ أنْ تقوم إلّا على أساس التعادل بين الكمّ والكيف، وأينما اختلّ هذا التعادل في جانب أو في آخَر كانت السَّقْطة رهيبة قاصِمة».

«الكم في الأشياء كالحواس في البدن، والكيف فيها كالروح للجسم»

المؤلّف

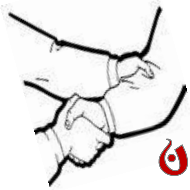

[ل]

لغاتٌ يَجهلها اللسان

رائعٌ هذا الخَيَّال وذاك الجَمَّال، الذي يكسب قوتَ يومه عبر التجوّل بحصانه وناقته حول أهرامات الجيزة وتمثال أبي الهول، متحدِّثا لِبقا لأفواج السّيّاح مِن مختلف الأصقاع.

وجذّابٌ هذا السياسيّ المثقَّف، الذي يُتقن أكثر مِن لسان، يُمكِّنه من التفاهم مع أقرانِه مِن عديد البقاع، دونما وسيط طُفَيْلي يُطعمُه اللغةَ فيقضم المعنى ويجلِب الحرَج.

ومُبهِرٌ هذا الكاتبُ المبدِع، الذي يمتلك مِن المقدرة اللغوية، ما يجعل قلمَه قادرا على مصافحة عقول قُرَّائه مِن شتّى الأجناس.

وعجيبٌ هذا الصحابي الجليل زيد بن ثابت الذي أمره الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بتعلُّم اللغة السريانية، فلبّى الأمرَ وتعلَّمها وأتقنها في سبعة عشر يوما لا غير!

ومُلهِمةٌ تلك الدراسة الحديثة التي أفادتْ بأنَّ مَن يتحدثون لغة ثانية غير لغتهم الأصلية يستعيدون وظائفهم الإدراكية والمعرفية الطبيعية

بواقع الضِّعف عمَّن يتحدثون لغة واحدة فقط، وذلك بعد إصابتهم بالسكتة الدماغية. علاوة على ما ذكرَتْه الأبحاث، من أنَّ تَعلُّم لغة ثانية يؤخِّر الإصابة بأعراض تدهور الوظائف العقلية ... بما يعني أنّ لِتعلُّم اللغات فوائد صحيّة إلى جانب فوائدها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وهو ما لخّصه الفيلسوف البريطاني ذو الأصول النمساوية (فيتجنشتاين) بقوله: إنّ حدود لغتي هي حدود عالمي.

ولكن الأروع والأجمل هم أولئك النّفر الذين يُجيدون لغاتٍ[1] أخرى أكثر أدبًا وتلميحًا كما وصَفها مهاتير محمد .. تلك اللغات التي لا تنتمي إلى عالم اللسانيات، ولكنها تضيف إلى الحواس الخمس حواسّ أخْريات، فيملك أصحابُها مقاليد التواصل الإنساني الفعَّال؛ ليُذيبوا جليد العقول ويَفتحوا مغاليق القلوب ويَدُكّوا حواجز النّفوس، وليَحتلُّوا بها مقعدا وثيرا وذكرى طيّبة في حياة كلّ مَن سعِد بلقياهم وأنِس بالتعامل معهم ... ولا غرو؛ فالإشارات تَسبق الكلمات.

(١) يُعَرِّف ابنُ جنِّي اللغةَ في كتابه (الخصائص)، بأنّها: أصواتٌ يُعبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم.

إذا أردْتَ أنْ تغزو إنسانا فأَنْصِتْ[١] إليه...فلغةُ الإنصات فنٌّ راقٍ، يَتخطَّى مُجرّد التحليق في المتحدِّث وإعارته شحمة الأذن وصِوانها، إلى ذلك السلوك الحضاريّ والفعل الأخلاقي الذي يُصبح فيه البدن كلّه آذانا صاغية، فلا يتوقّف عن بثّ إشارات إيجابيّة وإرسال رسائل ضمنيّة تحمل معاني الاحترام والتقدير والاهتمام، وذلك بعد كبْح جماح اللسان وإغماد سيف الفضول، فلا تشويش على رأيٍ أراد صاحبُه التعبير عنه، ولا قطْع لحبل أفكارٍ اجتهد في فتْله ونظْمه، ولا قفْز إلى استنتاج لم يُرِدْه ولم يَنْتويه، وعلى هذا صنَّف ستيفن كوفي في كتابه (العادات السبع للأشخاص المؤثِّرين) الإنصات إلى أربعة أنواع؛ وهي الإنصات السلبي الذي يتجاهل فيه المرءُ ما يقوله المتحدِّث جُملة وهو أسوأ الأنواع، والإنصات المُصطَنع وهو متابعة المتحدّث بترديد عبارة نعم نعم من أجل إيهامه بأنّه ينصت بجدّ واهتمام، والإنصات الانتقائي وهو

(١) شتّان ما بين السّمْع الذي هو عمليّة لا إراديّة، وبين الإنصات الذي يتطلّب اختيارا واعيا، وهنا أشير إلى خطأ مَن يقول (أجهزة التصنّت)، فليس في قواميس اللغة (تصنّت) بل (تنصُّت) مِن الفعل نصت ينصت.

سماع الشخص ما يريده وما يهمّه دون سواه، والإنصات الفعّال وهو ما نحن بصدده.

وفي فضل هذا الإنصات الفعّال ومَردوده الإيجابي على صاحبه، أُثِر عن أحد الحكماء قوله: «إذا جالسْتَ الجهّالَ فأَنصِتْ لهم، وإذا جالسْتَ العلماءَ فأَنصِت لهم، ففي إنصاتِك للجهّال زيادة في الحِلم، وفي إنصاتك للعلماء زيادة في العِلم»، إذْ إنَّ الإنصات يساعد على إنماء الحصيلة اللغوية والتقاط المزيد مِن الألفاظ والمترادفات وربّما الحِكم والأمثال مِن أفواه المحدِّثين، بل إنّنا يمكن أن نتعلّم عبْر الإنصات أكثر بكثير ممّا يمكن أن نتعلّمه عبْر التكلّم.

كما رُوِي أنَّ لقمان الحكيم رأى نبيَّ الله داوود يَصنع شيئا من الحديد، فهَمَّ بمقاطعته وسؤاله عن ماهيّة ما يَصنع، ولكنّه احتكم إلى لغة الإنصات فأَرْجأ سؤالَه، ليأتيه الجواب على طبق مِن ذهب، وذلك بقوْل سيدنا داوود -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- بعد فراغِه: «نِعمَ الدّرع للحرب»...وفي هذا درس لمواصفات الإنصات الجيّد الذي يجعل همّه الفهم لا الردّ والتعلُّم لا النقد، كما يَطمح إلى التقاط مالم

يُصرِّح به الشخص؛ وهو ما يحقِّق اتصالا فعالا يُوفّر الوقت والجهد، ويُقلِّل من سوء الفهم الناتج عن خطأ التلقِّي.

أمّا البسْمة[١] التي هي أقلّ الضحك[٢] وأحْسنه، وخاصة تلك التي ترتدي الإخلاصَ كالشِّعار والمَحبّة كالدِّثار؛ فهي لغة البِشْر والحُبور، ومفتاح الدخول والقبول، وذلك حين تُشرق على الوجه كالشمس وتُنيره كالبدْر، فتُرحِّب بالحياة بلا لسان وتُعانقها بلا ذراع وتُعطيها بلا يد وتُؤنِسها بلا حديث وتَغزوها بلا جيش وتُعْديها بلا مرض، حتى قِيل في المثل: «وجْهٌ بلا ابتسامة كحديقة بلا شجَر»، وقد اشتُهر الإمام ابن قدامة بأنه كان لا يناظر أحدا إلّا وهو يبتسم، حتي قال بعض الناس: «هذا الشيخ يقتل خصمه بتبسّمه».

ومع أنّ البسمةَ هيّنة ليّنة؛ إذْ هي صدَقةٌ طيِّبةٌ يُسامحنا بها الغَريم ويفدينا بها الصّدِيق، ولا تتطلّب سوى نيّة إدخال السرور على البَشَر

---

(١) عدَّد الباحثون تسعة عشر هيئة للتبسّم، وذلك بحسب مدى انفراج الشفتيْن وظهور الأسنان.

(٢) أبدَع الرافعيُّ حين وصَف الضحكةَ الصادقة، بأنها ارتعاشات قلْب في عضلات وجه.

ثمّ رفْع الوجْنتيْن وزاويتيْ الفم لأعلى. ومع لزوميَّتها في الحياة التي تتوالد فيها المحن كالفِطر وتتكاثر كالأرانب، وضرورتها في المعامَلات اليومية حتى قِيل في المثَل لا تفتحْ دكّانا إذا كنتَ لا تستطيع الابتسام، ومردودها الإيجابي(١) علينا حتى قِيل إنَّ كلَّ ابتسامة تجعلك أصغر بيوم.. إلّا أنَّ بائعيها قليلون، ومُشتريها كثيرون؛ خاصّة مَن ضيَّق عليهم المللُ والأرقُ الخناق، ومَن سَدَّت عليهم الكآبةُ والسّآمةُ كلّ مَنفَذ، وهو ما عبّر عنه الأستاذ أحمد أمين حين قال: «ما أحْوجَني إلى ضحكة تَخرج مِن أعماق صدري؛ فتكون حيّة صافية، ليستْ مِن قبيل السخرية والاستهزاء، ولا هي بالضحكة الصفراء، وإنّما أُريدها ضحكة أمسك منها صدري وأفحص منها الأرض برجلي».

وهنا أنقل أجمل تعريف قرأته(٢) للابتسامة فيقول بأنها «انحناء

---

(١) تُسهم الابتسامة في إفراز الإندورفينات التي تُحسِّن المزاج وتُخفِّض ضغط الدم، كما تعمل على تَريُّض ٢٦ عضلة في الوجه ممّا يقيه التجعّدات.

(٢) جاء ذلك في كتاب بعنوان (أراك على القمة) لمؤلِّفه الأمريكي زيج زيجلار.

صغير عند أطراف الفم يَضع العديدَ مِن الأمور في نصابها الصحيح»، ثمّ يردف قائلا بأنّنا لا نبتسم لأننا نشعر بالسعادة وإنّما نشعر بالسعادة لأننا نبتسم، بمعنى أنَّ السعادةَ بابٌ مِفتاحه البسمة، وأنها صناعةٌ يُجيدها مَن لا يُعطِي كلَّ ذِي حُزن حقَّه.

ثم يَأتي المظهرُ الطيِّبُ(١) كأوّل حرف في لغة التواصل وفاتحة الكلمات في معجم اللقاء، ليخاطبَ أعين ناظريه بهندام رائق وألوان متناسِقة ونظافة بادِية متأنِّقة، ويُداعب شعيْرات أنوفِهم برائحة مِسْك أو عبق نرجس أو شذا عنبر، فيَزرع الراحةَ ويَنثر البهجةَ ويُحرّك الأعماق، ويُعيد للروح بريقَها وإشراقها، ويَجذب الآخَرين حتى لَيتهافتون عليه تهافُت الفراشات على الضياء والنَّحل على الأزهار، وعلى هذا كان الهدْي النبوي الذي رأى شخصا ثائر الشَّعر فنبّه إلى تسكينه ورأى غيرَه رثّ الثياب فوجَّه بتنظيفه

---

(١) في هذا المعنى قال الشاعر:

«تَجمَّلْ بالثيابِ ولا تمارِ   فإنَّ العيْنَ قبل الاختيار»

بينما يقول المثَل:

«الثيابُ الجميلةُ تفتح كلَّ الأبواب»

وتنقيته، كما حثَّ -صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- الصحابةَ وتابعيهم على أن يكونوا قدوة في ذلك فقال: «**أَحسِنوا لباسَكم، وأَصلِحوا رحالَكم، حتى تكونوا كأنّكم شامة بين النّاس**».

هذا مع الأخْذ في الاعتبار، أنَّ البساطةَ تُضاعِف الجمال بينما التكلّف يقتله، وأنّ خيرَ الثّياب «مالا يَزدريك فيه العظماء ولا يَعيبه عليك الحكَماء»، وأنَّ النّاسَ قد يغفرون الرَّثاثة إنْ صاحبَتْها ابتسامة ولكنهم أبدا لا يغفرون العُبوس حتى لو تَسرْبل صاحبُه بالذّهب وتَحمَّم بماء الورد وتَعطّر بأطْيب الطِّيب، حتى إنَّ ابتسامةً صفراء أفْضل مئات المرات مِن تكشيرة سوداء. ولعلّنا لاحظنا في واقعنا المعاش؛ كيف أنَّ المظهرَ الخارجي قد يمثّل نواة لحُكم أوَّلي على الأشخاص، وفي أحيان كثيرة يكون بوّابةً للدخول ومفتاحا للقَبول، ولعلّ مّن المناسب هنا ذكر التوجيه النبوي الكريم الذي جاء فيه: «إذا أَبْردتم إليّ بريدًا؛ فاجعلوه حسَن الوجه، حسَن الاسم».

أمَّا المصافحَة، فهي اللغة التي تبتسم فيها راحةُ اليد ويُعانقُ الكَفُّ الكَفّ، فينفث فيه روحَ العاطفة وحرارةَ الودّ وبَرْدَ الرّحمة، لتتناثر عندها الخطايا ويَفنَى الغِلُّ وتُولَد المَحبّة ويدوم الوصْل،

ولهذا قِيل: «الحُبّ يَكمن في راحة اليد»، ولربّما كان ذلك هو السبب وراء تسمية الكفِّ بالرَّاحة وجَعْل المصافحة تنطلق مِن وضْع البسْط لا وضْع القبْض.

مع مراعاة أن لا تكون تلك المصافحة(١) قويَّة كنزال المصارِعين، ولا رخوة كسلام الأموات، ولا سريعة كنقْر الدِّيَكَة، ولا باردة كلوْح الثلج أو عاصفة الشتاء ... بل رطِبةً دافِئةً حانِيةً كهدْي الحبيب -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

والمصافحة ضرب من ضروب اللمس الذي يُعدّ مُثيرا قويّا يُسهِّل من عملية التواصل ويُذيب الحواجز عند التعامل، ودائما ما يُنصح به -أي اللمس- لبناء الشخصية الجذّابة المؤثِّرة (الكاريزماتية)؛ لأنّه يعمل على استرخاء الآخَر، ويجعله أكثر ميلًا لأفكارك وأسرع قبولًا لشخصك. والواقع أننا لن نصل إلى المعنى

---

(١) يقول علماء النّفس أنّ طرق المصافحة التي يتبعها الأفراد تكشف عن سمات شخصياتهم، ويضربون لذلك مثلا بالرجل الذي يصافح بقوّة، فيقولون بأنه شخصية يغلب عليها الانبساط والميل إلى التعبير عن عواطفها وتقلّ فيها سِمات الخجل والعصبيّة.

الحقيقي للمصافحة؛ إلّا إذا تذكَّرنا أننا لا نصافح يدًا من لحمٍ ودم، بل نصافح روحًا اقتُطِعت من جوف السماء، وقلبًا حِيك مِن نسيج الإيمان، ونفسًا مُوكَّلةً عن الله في الأرض. ولعلّنا نذكر أنّ المصافحة رمزٌ قديم للتعبير عن السلام، وإشارةٌ للتأكيد على أنّ كلا المصافحيْن لا يحملان سلاحًا ولا ينويان قتالا، وهو ما يزال قائمًا حتى اليوم عند وضع حدٍّ لخصامٍ وإحلالِ وفاق، أو لتوثيق عقدٍ وإبرام اتفاق.

على أَنّ أنجع اللغات وأجلّها، هي لغة السّلوك القويم الذي يَعكِس صورة الإنسان الباطِنة، فيَفتح حقيبةَ الأخلاق[1] الفاضلة وخزانة المكارم الحميدة، ويَسيرُ في ربوع الحياة ذهَبًا مَعصوما مِن الصّدأ، كريمًا كنخيلٍ يُلْقِي تَمْرَه على السّابلة، وجَوادًا كدَوْحةٍ تَمنح فيْأَها لكلِّ عابر، ومِعطاءً كوردةٍ لا تَبخل بعطرها على كلِّ مارّ؛ فإذا صادف شرْخا رمَّمَه، وإذا ارْتأى جرحا داواه، وإذا الْتقى دمعةً كفْكَفَها؛ لا يَبغِي مِن وراء ذلك نفْعًا ولا عِوضا، ولا يَنتظر مِن جرّائه جزاءً ولا شُكورا، بل واضِعًا نصْب عينيْه الفوز بالقِيمة

(١) جاء في مُجمّع الأمثال للميداني: «جواهرُ الأخلاق يتصفَّحها المُعاشِر».

لا مطاردة الغنيمة، وطامحًا طامعا في رِضاء ربِّ البَشَر لا ثناء البَشَر، وهو ما عبّر عنه إيليا أبو ماضي قائلا:

«فلسْتَ الثِّيابَ الّتي ترتدي
ولسْتَ الأسامِي الّتي تحمِلُ
ولسْتَ البلادَ الّتي أَنجبَتْك
ولكنّها أنتَ ما تَفعلُ»

بينما تبقى أعجب اللغات هي تلك اللغة الذاتيّة التي يتحدّث بها الشخصُ مع نفسه ويهمس بها في روْعه، ليشيع الثقة في أرجائها وينزع الخوف مِن جنباتها ويعيد تشكيل قناعاتها وأفكارها، مُستخدِما في ذلك المعاني الإيجابية والتعابير الآنيّة ونبرة الصوت الهادئة المطمئنة، وهو ما يُعَدّ نوعا مِن البرمجة الذهنية، ويُشابه التنويم المغناطيسي، ويَرتكز على أنَّ اللغة والتفكير والسلوك قنوات يتّصل بعضها ببعض في سياق التأثير والتّأثُّر.

وإذا كانتْ الدراسات العِلميّة تقرِّر بأنّنا نفكّر ونَشعر أسرع بكثير مِن قدرتنا اللسانيّة(١)، حتى إنَّ لسانا ثرثارا لا يُسعفنا في التعبير

(١) ذُكِر أنّ السرعة العادية التي يتحدث به الإنسان تتراوح بين ١٠٠–١٢٠ كلمة في الدقيقة، بينما يستطيع الإنسان العادي التفكير فيما يقارب =

عن نصف ما نفكّر به ونشعر، فلا مَناص إذَنْ مِن اللجوء لتلك اللغات الإضافية؛ كبوابات نطلّ منها على البشر، وأوعية نسكب فيها أفكارَنا ومشاعرَنا تجاههم، ومسارب مختصَرة نسلكها للوصول السريع إلى عقولهم والولوج إلى سويداء قلوبهم، خاصّة إذا علمنا أنّ الكلمات تمثّل ما نسبته٧٪ فقط مِن الاتصال الفعّال، وأنَّ استخدام نبرة صوت مناسِبة -لا مرتفِعة فتجلب الصداع والتوتر ولا منخفِضة فتستدعِي الملل والنوم- ترفع هذه النسبة إلى ٣٨٪، وأنَّ تدعيمها بحركات الجسد يرتفع بتلك النسبة إلى ٥٥٪.

بِقَدْرِ لُغاتِ المَرءِ يَكثُر نفعُه
فتِلكَ لهُ عندَ الملمّاتِ أعوانُ
تَهافَتْ على حِفْظِ اللّغاتِ مُجاهِدًا
فكلُّ لسانٍ في الحقيقةِ إنسانُ

الشاعر صفي الدين الحِلّي

٨٠٠كلمة في الدقيقة الواحدة.

[م]

موْت الفَوَات

لوكان للحروف طعْمٌ تتمايز به كسائر الأطعمة في تَقلُّبها بيْن الحلو والمُرّ والمالح والحامض؛ لكان حرف المِيم في قائمة المُرّ ومذاق العلقم، وليس ذلك لانتمائه إلى عائلة الصبّار، ولكنْ لأنّه لصيق بذِكر المرض والمُصيبة والموت.

وإذا جازتْ تسميةُ المرض مصيبةً باعتبار أنَّ كلَّ ما آذى المؤمنَ مصيبة كما ورد في الحديث الشريف الذي روَتْه أمُّ المؤمنين عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا-، ونزولا على تشبيه المرَض في الأمثال بالنّار والعداوة مِن جهة أنّ قليلَهم كثير؛ فإنّ الموْتَ هو عِلّة العِلل على حدّ تعبير الشاعر الذي قال: «والموتُ آخرُ علّة يَعتلّها البدنُ العليل»، وهو الرّدَى والثكل والمَنون والسّام والحِمام كما تقول المعاجم اللغويّة. وهو أيضا الدَّيْن الذي يَرمي به اللهُ كلَّ حيّ حسب تعبير الميداني في مَجمَع أمثاله حين قال: «رماه اللهُ بدَيْنه». فضلا عن أنّه عيْنُ المصيبة على حدّ وصْف القرآن الكريم له في سورة المائدة:

﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾؛ حيث تنطفئ فيه شمعة الحياة ويفترق عنده الأهل والأحباب وينقطع معه الوصْل بالخِلّان، فتصبحُ النِّساء أراملا ويُمسِي الأطفال أيتاما وتَبيت الدُّورُ على عروشها خاوية.

على أنّنا نُخطئ إنْ حصَرْنا مصيبة الموت في مفارقة الحياة وسلْب الروح على يد ملَك الموت، أو فيما يَلي ذلك مِن علامات محدَّدة يتمّ بها تشخيص الموت؛ كتوقُّف القلب، وانقطاع النفَس، وشخوص البصَر مع ثبات الحدقة، وبرودة الجسم، وعدم استجابة الجسم لأيّ منبه حسيّ، مع غياب جميع الأفعال المنعكسة ... إذْ إنّ ما يَتبع ذلك مِن فتْك الدُّود بالجسد، وغارة الغُرَماء على الحسنات، وهوْل الحساب والصراط والميزان، هو ما يَجعل لذكر الموت طعما يفوق الحنظل، وطعْنا أشدّ مِن السيف، وألَما أنْكى مِن الخنجَر .. ويكفيك من هذا قول الحق جلّ علاه: ﴿والسّاعةُ أَدْهى وأَمَرّ﴾ [القمر: ٤٦].

وتَعظُم المصيبة ويَفدح الخطْب، مع حدوث موت الفجْأة؛ الذي يُطلَق عليه الموت الأحمر إنْ كان قتْلا، والموت الأسود إنْ

كان خنْقا، والموت الزّؤام إنْ كان غير ذلك.. وذلك تمييزا لهم عن الموت الأبيض الذي انتفت فيه الفجْأة وغابتْ معه شُبهة الجناية بالقتْل والخنْق، بل يعاني صاحبُه مرضا مزمنا يُلزِمه الفراش ردْحا من الزمن، قبل أن يفتح له الموت بابا تغلقه الدنيا وراءه. وهو ما تعرِّفه الدوائر الطبية بأنّه حدوث الوفاة خلال أقلّ مِن ساعة زمنيّة منذ بداية الشكوى، وتُرجع أسبابه إلى أمراض القلْب والحوادث...فهذا شابٌّ في الثلاثينيّات من عمره وبلا سابق مرض يَنام ولا يَصحو، وذاك شيخٌ سجَد في محرابه فكانت النهاية بلا آه ولا واه، وذلك عاملٌ جلَس ورفع اللقمة إلى فِيه فلم تبلغْه، وهنا شابٌّ ركب سيارته مُنْتشِيا فما غادرَها إلّا أشلاء، وهناك لاعبٌ يُهرول وسط صيحات الجمهور ثم يخرّ أرضا بلا حراك، وغير ذلك كثير وكثير مِمّا عمَّ وطمّ هذه الأيام ... ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء٤٠].

وتنبع الخطورة مِن أنّ موت الفجْأة يباغِتُ صاحبَه؛ فلا وقت لاستغفار، ولا مُهلة لوصِيّة، ولا فرصة لردّ حقّ. ومعه يُصبح طلَب الصّفح مِن العباد أملا لا يتحقّق، ويَبيت الدعاء بالغفران مِن ربّ

العباد حلما لا يقظة منه. زِدْ على ذلك أنه ينزل كالصاعقة على الأهْل، ويَنقضُّ على الأحباب كالبرْق والرعد؛ فتَذهل العقول وتنهمر الدموع ويذوب القلْب وتعتلُّ الأبدان، وعندها يُوقن العقلاء أنَّ حياتَنا ليستْ إلّا مشهدا قصيرا في فيلم الزمن الطويل، وأنها طيف يمرّ كغمض العيْن أو أقلّ. وفي هذا رُوي أنّ أحد تلامذة أرسطو وقف على تابوت الاسكندر الأكبر إبّان وفاته؛ ليواسي الخاصة مِن كبار الرجال ويعظ العامّة من الدهماء، فأشار إلى التابوت قائلا: كلّ الحياة الطويلة العريضة تُطوَى في هذيْن الذراعيْن!

وفي إحدى المَراثي تَساءل أميرُ الشعراء أحمد شوقي قائلا:

«وأيّ المصرَعَيْن أشدُّ: موت
على عِلم، أم الموت الفوات؟»

وهو هنا لا ينتظر جوابا بقدر ما يدفعنا دفعا للإقرار بأنّ الموت الفوات خطْبٌ جلَل وخطَرٌ عظيم. وفيه أُثر عن عبد الله بن مسعود وأمّ المؤمنين عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- قولهما: «هو أسف على الفاجر، وراحة للمؤمن»، وذلك لأنَّ الفاجر يُحرَم الإمهال الذي قد يُدرِك به التوبة، بينما المؤمن المُستعدّ للقاء ربه قد خُفِّف عنه ولم يعاني وطأةَ مرض أو ألمَ احتضار.

ولعلنا نلحظ في أيامنا هذه، ذلك الحضور الكثيف والانتشار العارم في معدّلات حدوث موت الفوات، الذي لا يُفرِّق بين طفل وشيخ أو بين فتاة وعجوز، وهو ما يُرجِعه بعضُهم إلى أمراض الحداثة الخطيرة كالسكتات القلبية والدماغية، وإلى ما أَبدعتْه العقول مِن أسلحة فتّاكة تحصد ضحاياها بالجملة وتهدم المدن على رؤوس ساكنيها، ولا أدل على ذلك من القنبلتيْن النوويتيْن اللتان حصدتا ما يزيد على مائة وأربعين ألفا من أرواح اليابانيين في غمضة عين. ولا نغفل هنا وسائل المواصلات الحديثة السريعة التي تتحفنا يوميا بعشرات الحوادث للطائرات والقطارات والسفن، والتي تُودي بحياة العديد مِن ركابها في ذات اللحظة، هذا فضلا عن كثرة الزلازل والبراكين التي تنشط هنا وهناك فتُشارك في مهرجان موت الفوات.

وإذا كان انتشار موت الفجأة اليوم نذيرٌ بقرْب آخر الزمان كما ورد في الحديث الذي رواه الطبراني وحسّنه الألباني: «إنَّ مِن أمارات الساعة أنْ يظهر موتُ الفجأة»، فإنّه بالقطع لا يُؤشِّر على مصير صاحبه، ولا يدُلّ على صلاحِه أو طلاحِه كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان. إلّا أنّه مِن جهة أخرى؛ يُمثّل محكّا عمليّا واختبارا حقيقيا

لعبوديّة الضرّاء -التي هي الصبر- لدى أهل المتوفَّى ومُحبِّيه على أثر صاعقته التي تبهتهم وتزلزل كيانهم، كما يُعدُّ درسا بليغا للعظة والاعتبار في زمَن كثُر فيه المُعتبَر وقَلّ المُعتبِر.

وفي واقع الأمر؛ نحن لا نعرف عن كُنه الموت وماهيّة حدوثه شيئا، بل نعرفه بآثاره ونتائجه، كما أنّه لا فُجائيّة البتّة في حدوثه أيّا كان الباعثُ عليه؛ فمنذ أنْ لفظَتْنا أرحامُ أمّهاتنا، ونحن نمشي في موكب جنائزي صوْب أحضان الرّدَى؛ نحمل فيه نعوشَنا، ونلبس له أكفانَنا، وندوس بأقدامنا طريقًا تملؤه حفَرٌ تفغر فاهَها لابتلاعنا، ولا يَدري أيٌّ مِنَّا أيْن هي حفرته، ربّما تكون هي الماثلة الآن تحت قدميْه، وربّما تكون اللاحقة أو التي تليها، «فما الحياة إلّا خفقات يخفقها القلبُ في مطلع العُمر، وما الموت إلّا غاية كلّ حيّ»، على حدّ تعبير أديب الحُزن وصاحب النظَرات والعبَرات (المنفلوطي).

المَشهدُ إذنْ كما وصفه أحدُهم؛ أنَّنا نزلاء سجن كبير ألا وهو الدنيا، وقد حُكِم على جميع مَن فيه بالإعدام بطرق مختلفة، ثمّ يُنادَى على مَن يُنفَّذ فيه الحكم بعد التنفيذ لا قبله، لينهض الباقون فيُشيِّعوه، وينتظروا نداء تاليا لأيٍّ منهم .. على أنّ هذا لا يُسوِّغ

لليأس والقنوط، ولا يَدعو إلى الإعراض عن الدنيا وقذْفها بيمين الطلاق؛ فعلى هذه الأرض ما يَستحقّ الحياة كما قال محمود درويش.

ولِأنَّ الأخطاءَ لا يَعجَل إليها الموتُ كما ورَد في المثَل، ولا تَسقط بالتقادُم كحال الجرائم الكبرى، فإنَّ مِن الحصافة في زمن الإمهال أن نهجر الغفلة؛ فنستعيد ذاكرة الواجب والحرام والمُستحَبّ والمكروه والمباح، ونعزم على تعويض ما فاتنا مِن صلاة واستغفار وذِكْر وبِرّ، ونَجِدّ مِن فورنا فنُشمِّر عن ساعد النيّة[1] وساق العمل؛ فالعمَل خيْل والنيّة فارسُه، وكلُّ حي يَموت إلّا الحيّ القيوم، وطوبَى لمَن تَزوّد قبل السفر وتَجهّز قبل الرحيل فنفَّذ وصية الإمام البخاري:

«اغتنِم في الفراغِ فضلَ ركوعِ
فعسى أن يكونَ موتُك بغْتة
كم صحيح رأيتَ مِن غير سقَمِ
ذهبَت نفسُه الصحيحةُ فلْتة»

(١) تُعرَف النيّة بأنها طلب مرضاة الله تعالى بفعل طاعة أو ترك معصية.

وتبقى هنا إشارة إلى أنّ الكثيرين يحضرون الجنائز ولكنّهم لا يظفرون بعِبرة الموت، ذلك لأنّ قلوبهم غفلت عن الميت وما هو بصدده مِن سؤال وحساب، وتعلّقت ببكاء الأهل ونحيب الأصدقاء من حوله، مع أنّ هؤلاء على وجه الحقيقة يبكون أنفسَهم التي باتت أقرب إلى الموت، وينعون أرواحَهم التي تَقدَّم بها الطابورُ خطوةً نحو القبر، ذلك الطابور الذي ينتظم فيه البشرُ جميعا بمجرّد ولادتهم، ليتخطَّفهم فيه الموت كما يتخطّف الطيرُ الحَبّ.

قَدِّم لنفسِك قبل موتِك صالحًا
فالموتُ أَسْرعُ مِن نزولِ الهاطِلِ

الأحوص (ت ١٠٥هـ)

[ن]

بين نارٍ ونار

سجّل فلاسفةُ الإغريق القدماء أنَّ النّارَ أحدُ العناصر الأربعة (النار–الماء–التراب–الهواء) التي تُكوِّن جميع أشكال المادّة، وأقام الفيلسوف الباكي (هرقليط) فلسفتَه على أنّ تلك النّار هي الجوهر الأول وأصْل الكون. بينما يَشهد المؤرِّخون أنَّ اكتشافَ الإنسان الأوّل للنّار قبل خمسمائة ألف سنة عبر حكّ الأحجار(١) بعضها ببعض، كان خطوةً واسعةً نحو الرقيّ والتقدّم، بل يَعتبرها بعضُهم ضربة البداية الحقيقية في ماراثون الحضارة البشريّة، ولهذا لقَّبوها (شمس الأرض) بما لها مِن ضوء وحرارة ونفْع وقوّة تُشابه شمسَ السماء، ثمّ جاء الكاتب أحمد أمين فتَغزَّل في جمالها قائلا: «أَنصَف العربُ إذْ سمُّوكِ (النار) قريبًا من (النور) لِقُرب حقيقتك مِن حقيقته وجمالك مِن جماله».

(١) في هذا يقول علي بن الجهم:

«والنارُ في أحجارها مَخبوءةٌ   لا تَصطلِي إنْ لم تُثِرْها الأَزْنُدُ»

والحقيقة أنَّ النارَ ما زالت أحد المجاهيل الكونيّة التي تُشعل روحَ الفكر وتُلهب ذهن البحث؛ سعيًا وراء تفسير طبيعتها وماهيتها بشكل أكثر دقّة وأشدّ عمقا. فمنذ آلاف السنين قبل ميلاد المسيح -عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-؛ كان لهَبُ النَّار مصباح إضاءةٍ يهدي وسط ظلام الكهوف، ويعصم من افتراس الوحوش، ويدلّ التائهين في مجاهل الصحراء. كما كانتْ جذوتها[1] موقد الطّهي الذي يأوِي الغريب ويقرِي الضيْف؛ فتَخبز الخُبزَ وتُنضِج اللحم وتُعِدّ القهوة، حتى قِيل في المثَل «فلانٌ كثير الرّماد» و«فلانٌ لا تَنطفيء نارُه» دلالة على جُودِه وحاتِميَّته. أمّا حرارتها، فكانتْ -قبل أن تهلّ عصور الفحم والزيت والكيروسين والبخار والغاز- المدفأة في البرْد والقرّ، وذلك بعد أن تلتهم ما جُمِع لها مِن أجْود الحطَب الأكثر جمْرا والأقلّ دخانا، وهو ما وصَفه ابنُ الروم فقال:

«النَّارُ فاكهةُ الشتاء فمَن يُرِدْ
أكْلَ الفواكهِ شاتِيا فليَصْطلِ»

(١) الجذْوة هي الجمْرة، وفيها قال الراغب في (المفرَدات): هي ما يَبقى مِن الحطب بعد الالتهاب.

وفي سوق التداوي؛ كانتْ النّارُ حاضرةً للكيّ كعلاجٍ شعبيٍّ مارسَه العربُ عبر قرون طوال، وقامتْ فكرتُه على نظرية الصدْمة، وذلك بإحداث ألمٍ كبير يشغل المريضَ عن ألمه الأساسي الذي يتضاءل ويتوارى أمام هوْل الحرق بالنّار، وهو ما استنْسخه الصينيّون اليوم في أحدث صيحةٍ للعلاج البديل (المكمِّل)؛ فيَحرقون بها الرؤوس التي أصابها الصداع، ويَسلخون الجلود التي أضناها الحكّة، ويَشْوُون الأقدامَ التي داهمَها الألم، وذلك بوضع خلطةٍ عُشبِيّة عجيبة على المكان المصاب ثمَّ تغطيتها بقطعة قماش مشبَّعة بالكحول ومِن ثَمَّ يَجري إشعال النّار فيها. وفي ربوع الثقافة الإيرانية، هنالك احتفالية تُعقد في الثلاثاء الأخير من كلّ عام، اعتاد فيها الإيرانيون على إشعال نار، ثمّ القفز فوقها، بغْية التخلّص ممّا علق بأرواحهم وأجسادهم من سلبيات على مدار العام الفائت، إذْ يعتقدون أنّ اللهب يلتهم تلك السلبيات، ويمنحهم عوضا عنها النورَ والدفء استعدادا لخوْض عام جديد! زد على ذلك ما تقوم به النار كطرف رئيس في صياغة البخور؛ ذلك الطقس الشعبي الذي يحلو للبعض التداوي به من العيْن الحسود، بعد خلط النار بحفنة ملح، أو بمواد كريهة الرائحة كثيفة الدخان، ليتأفّف منها الجنّ

ويهرب شرّ مهرب! بينما يحلو للبعض الآخَر التطيُّب به في مناسبات الأفراح والأعياد، بعد إلقام النار أعوادًا زكيّة الرائحة من الأخشاب العطرية كالصندل وغيره.

وفيما قبل القرن السابع عشر الميلادي، سجّل التاريخُ انحراف البشَر في استخدام النّار كأداة للقتل والتعذيب خروجا على القاعدة الحدِيثيَّة التي تقول: «لا يُعذِّب بالنّارِ إلّا ربُّ النّار» ، فسَطَّر -أي التاريخ- محْرقةَ الدولة الرومانيّة إبّان اضطهادها للمسيحيّة، وحكَى فظائعَ محاكم التفتيش التي أَحرقَتْ أحياءً جرّدَتْهم الكنيسةُ مِن الدِّين ووَصَمتْهم بالهرطقة، قبل أن يأتي القرآنُ فيقصّ علينا خبرَ النّار التي نقم بها أصحابُ الأخدود على المؤمنين، ومعجزةَ النار الباردة التي أعدَّها (النمرود) لطمْر دعوة التوحيد والانتصار لآلهة مزعومة صَيّرَها أبو الأنبياء وخليل الله إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- جُذَاذًا بفأسه، أمّا أشهر النيران وأضْوؤها فتلك النار المقدّسة التي شهدت مهبط نور الوحْي على سيدنا موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.. ﴿فلمّا جاءها نُودي أن بُورك مَن في النّار ومَن حولها وسبحان الله ربّ العالمين﴾[1].

(١) النمل: ٨.

واستنادا إلى منافعها الجمَّة[١] وطاقتها النّاريَّة القاهِرة، واصلَت البشريّةُ الحيْف، فبوَّأها المجوسُ منزلة القداسة حين أَلَّهُوها وأقاموا لها المعابد ووأَوْقفوا على خِدمتها الكهّان، علاوة على ما كان في المجتمعات البدائية القديمة التي خطَّتْ مِن النار طريقا للخلاص مِن الأرواح الشرِّيرة وسبيلا للتبْرأة مِن الخطيئة بعد فرشها كسجّادة ووَطْئها بالأقدام، ومازالتْ الهندوسيّة والبوذيّة في ربوع آسيا تتخِّذ منها سبيلا لإطلاق الرّوح مِن عقالها وتحريرها مِن غلافها، بحرْق الأبدان وذرّ رمادها في أنهارهم المُقدَّسة، لتبدأ بعدها الأرواحُ في دورة تناسُخها حسْب زعمهم الباطل، بل إنَّ الهندوسيةُ زادت الطينَ بلّة باعتمادها تقليدًا يُدعى (ساتي) الذي تُقدِّم فيه الأرملُ نفسَها جَبْرا أو طَوْعا قربانا للنَّار التي حُرِّق فيها زوجُها، وذلك في مشهد جنائزيّ تَجفّ فيه الدماءُ وتتفحَّم الدّموع وينتحر المنطِق.

تلك هي نارُ الدنيا التي حذَّرنا مِن خطَرها نبيُّ الرحمة -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- فقال في حديث رواه الشيخان: «إنَّ هذه النّار إنّما هي عدوّ لكم، فإذا

---

(١) مِن جميل أمثال العرب في النّار قولهم: «صاحِبْ الناسَ كما تُصاحبْ النار، فخُذْ ما يَنفعْ ودَعْ ما يَحرِقْ».

نِمتم فأطفِئوها عنكم»، والتي وصَفها ابنُ مسعود بقوله: «نارُكم هذه سبعين جزءا مِن نار جهنم، ولولا أنّه ضُرب بها البحرُ عشر مرات ما انتفعْتُم منها بشيء»، والتي لم تكنْ اختراعا بَشَريًّا مِن العدم، بل هي مخلوقٌ هدى اللهُ الإنسانَ لاكتشافه بغية تحصيل حِكْمتَيْن اثنتَيْن تزخر بهما كلُّ النِّعم التي امتَنَّ الله بها على العباد، ألا وهُما التّذْكِرة والمُتعة، ولهُما أشارتْ الآية الكريمة في سورة الواقعة: «نحنُ جَعلْناها تَذكِرةً ومَتاعًا للمُقْوِين» ... فالضوء والدِّفء والطعام والشراب والعلاج وغيرها مِن المنافع الجمّة، هي المُتعة التي سخّرها الله للمسافرين المُقْوِين الذين هم أهل الدنيا الرُّحّل على ظهْرها قبل أن يقرّ قرارُهم في حياةٍ أُخْرويَّة خالدة، أمَّا التذكِرة والعِبرة -وهي الحكمة الأتَمّ والأهَمّ- فهي التخويف والترهيب مِن النّار العُظمى التي توعَّد الله بها مَن عصَى وبغَى وأشرَك.

على أنَّ نارَ الدنيا لا تُضارع نارَ الآخرة إلَّا في اسْمها ورسْمها، فمِن حيث المعنى والجوهر؛ لا مُتعةَ ولا عِبرةَ في نار الآخرة بعد أن قُضِي الأمرُ ومَضى زمنُ الإمهال، بإغلاق منافذ التوبة مع الغرغرة، ولم يبقَ للنّار حينئذ مِن وظيفةٍ إلّا العذاب. أمَّا مِن حيث المبنى؛ فقد وصَفَها أمينُ الوحي جبريل قائلا: «إنَّ اللهَ تعالى لمّا خلَق جهنّم

أوْقدَ عليها ألْف سنة فاحْمرَّتْ، ثم أوْقد عليها ألف سنة فابْيضَّتْ، ثم أوْقد عليها ألف سنة فاسْودَّتْ، فهي سوداء مظلمة لا يَنطفئ لهَبُها ولا جمْرُها».

وقال عنها -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**اذكُروا مِن النّار ما شِئتم، فلا تَذكرون شيئا إلّا وهي أشدّ منه**»...

أمّا ساكنوها فقد وصفَهم ابن الجوزي فقال: «دارٌ خُصَّ أهلُها بالبعاد، وحُرِموا لذَّة المُنى والإسعاد، بُدِّلَت وَضاءةُ وجوههم بالسّواد وضُرِبوا بمقامع أقوى من الأطْواد، حُزنهم دائمٌ فما يَفرحون ومقامهم محتوم فما يَبرحون».

ومِن لطائف التفسير ما ذكَره الرازي في تفسيره الكبير المُسمّى (مفاتيح الغيب) تعليقا على الآية الكريمة: «خَلق الإنسانَ من صلصال كالفخّار وخلق الجانّ من مارج من نار فبأي آلاء ربكما تكذّبان»[١] حيث قال بأنّ الإنسانَ خُلق من أصلٍ كثيف كدِر سمّاه الصلصال وهو الطين اليابس الذي لم يُطبخ، وخلق الجانّ من أصل

(١) الرحمن: ١٤، ١٥، ١٦.

لطيف وهي النار(١)، ورغم ذلك فقد فضَّل الله الإنسانَ على الجانّ، وفي ذلك ليعلم كلُّ إنسان أنّه ما نال هذا الشرف إلّا بفضل الله لا بفضل مادّة خَلقه، فيعظِّم ربَّه ولا يكذِّب بآلائِه.

ورغم معرفتنا بأنَّ للنّارِ أسماءً عديدة وردَت في القرآن وذخرَت بها معاجمُ اللغة، مثل الجحيم والسعير والحطَمة والهاوية والصلاء وغيرها، إلّا أنّ لِلَّهجات العامية قولًا آخَر يُثير الدهشة ويَدعو إلى العجب ويَتسبَّب أحيانا في بعض الحرج، فقد ذكَر صاحبُ كتاب (سلطان اللغة)، أنَّ أحد الأساتذة الجامعيين زار تونس، ودخل بقالة لِيشتري ما يحتاجه، وعند انصرافه دعا لِصاحب البقالة الطاعن في السنّ قائلا: الله يعطيك العافية، فغضب البقّالُ غضبًا شديدا واشْمأزّ من هذا الدعاء، إذْ لا يَدري الأستاذ الجامعي أنّ العافية في اللهجة التونسية تعني: النار! وهو ما يذكّرنا بالذوق العالي لفاروق الأمّة

(١) ينحو الشيخ السعدي في تفسيره لتلك الآية منحًى مغايرًا لِما يراه الرازي فيقول؛ بأن الطين والتراب محل الرزانة والثقل والمنافع، وفي ذلك شرفٌ للعنصر الآدمي، بخلاف النار التي هي محلّ الخفّة والطيش والشرّ والفساد.

عمر بن الخطاب الذي دأب على تفقُّد الرعيّة ليلا، ولمّا مرّ بقومٍ يتحلّقون حول نار، استنكف أن يلقّبهم بأهل النار التي أوقدوها والتفّوا حولها، فألقى عليهم السلام قائلا: السلام عليكم يا أهل الضوء.

وخيرُ الختام ما كان أكثر دعاء النّبي -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما رَوَى أنسٌ -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، وهو: ﴿ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حسَنة وفي الآخرة حسَنة وقِنا عذابَ النّار﴾ [البقرة: ٢٠].

مَن يزرعِ النارَ لم تسلمْ أصابعُه
ومَن يَعِشْ أهْوجا أَوْدَى به الهَوَجُ

أبو الفتح البستيّ

[هـ]

الحـــرب (الهيجاء) النبيلة

جُبِلت البشريّةُ بفطرتها النّقيّة السّويّة على السِّلم والأمْن والعيْش المشترك، وما كانت الهَيْجاءُ أو الهَيْجَا [١]-وكلاهما يَصِحّ- في عُرف العقلاء وأُولي الألباب، إلَّا مبضع جرّاح أو كيّة نار أو شرًّا لابدّ منه، لدفْع شرّ أعمّ واجْتناب ضرر أشدّ وتَوقّي مفسدة أعظم؛ ذلك لأنّ للحرب -التي يُعرِّفها خبراء العلاقات الدوليّة بأنها حالة صراع مسلَّح بين دولتيْن أو أكثر، وأنّها الوجه العنيف للسياسة- مآسيها التي تطال البَشَر والشّجَر والحجَر، وتتجاوز آثارُها الجيلَ[٢]

---

(١) قال الشاعر ربيعة بن عامر والمُلقَّب بمسكين الدارمي:

«أخاك أخاك إنّ مَن لا أخَا له كسَاعٍ إلى الهيْجا بغيرِ سلاحِ»

(٢) الجِيل هو متوسّط الفترة الزمنية بين ولادة الآباء وولادة أوّل أبنائهم، وتُقدَّر مدّتُه بنحو ٣٣ سنة، وقد أحصى أحدُ الباحثين وحتى منتصف القرن الماضي نحو ١٨٥ جيلا منذ بدء الخليقة، كما سجَّل أنَّ عشرة أجيال منهم

=

تلو الجيل؛ حتى قِيل إنَّها مَأْيَمة؛ إذْ يَلقى فيها الرجالُ حتوفهم ويَكثر في أعقابها الأيامى مِن النّساء[١]. وقِيل إنَّ أوّلها نجْوى وأوسطها شكْوى وآخِرها بلْوى، وأنها غَشوم هَشوم؛ إذْ فيها تُسفَك الدماء وتُزهَق الأنفسُ وتُسلَب الأوطان، كما تَذهب معها الأموالُ سُدى ويَعمُّ الديار الخراب وتُنتَهك الأعراض وتُدَنّس الحُرُمات، فضلا عن الخوف والعنف والرّصاص الذي يصبح درْسَ المدارس وحديثَ المجالس وطعامَ الموائد. وهذا ما يعطي مصداقية لمقولة رئيس الوزراء الفرنسي(كليمينصو) مِن أنَّ الحربَ أصبحت أمرا أكثر خطرا مِن أن يُترك أمرُها في يد الجنرالات؛ خاصة مع تسخير العِلم في زيادة القدرة التدميرية للأسلحة التقليدية، وظهور الأسلحة غير التقليدية التي تروم دمارا شمالا، يعضّده تقنيات التجسّس الحديثة التي ترصد البرّ والبحر والجوّ وتهيئ مسرح القتل أمام القتلة الكبار.

=
فقط هي مَن نعمتْ بالسِّلم بينما البقيّة عانتْ من ويلات الحروب ولم تذقْ طعم السِّلم.

(١) عبَّر أحدُهم عن ذلك قائلا: «الحروب يَصنعها الرجال، ويَخوضها الرجال، أمَّا النساء فنصيبهنّ ارتداء السواد».

وتستمدّ الحربُ مشروعيّتها، مِن الحفاظ على الكليّات الخمس التي قصَدها الشَّرع بالرعاية، وشملها بالعناية، وتكفّل لها بالحماية؛ فمَن اعتدى على الدِّين أو هتَك العِرض أو أَهلك النّفس أو نهَب المال أو سلَب العقل، وجَبَ ردُّ بغيه ودحْر عدوانه ضمن شروطٍ وجَب الالتزام بها؛ حمايةً للحياة من الزوال، وصيانة للأمم مِن التحلُّل، وحفظا للفضيلة مِن الاندثار ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾[1] ... وفي هذا ترجمة أمينة لِما يُعرَف بالحرب العادلة؛ التي تَشنّها سُلطة مُؤَهَّلة ذات نيات أخلاقيّة مِن أجْل قضيّة حَقّة، فتَنأى بنفسها عن غطرسة القوّة وشهوة الهَيْمنة، التي تتحرّق شوقا لنهْب الثروات واستعباد الشعوب وتدمير الحضارات، حتى لو كان الثمنُ مزيجا من الأنقاض والأشلاء وخليطا من الدموع والدماء. وهي -أي الحرب العادلة- بذلك تطبيق أمين للقاعدة التي تقرّر أنّ بعض الشرور لا تُدفع إلّا بالشرور، وأنّ الشرّ الذي يَدفع شرّا أعظم منه يصبح خيرا لا شرّا.

(١) البقرة ٢٥١

والحقيقة أنَّ الحروبَ لم تَعرف نُبْلا ولا إنسانيّة، إلّا مع قدوم الإسلام العظيم الذي لا يأذن في حرب دون عدوان على دياره: «وقاتِلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يحب المعتدين»(١)، وجعل مجرَّد الجنوح للسّلم مسوِّغا كافيا لإنهاء المعركة والإقلاع عنها، على مبدأ حقْن الدماء لا سفْكها وعلى قاعدة كسْب القلوب لا كسْب المعارك(٢)، حتى أنّ لفظة السِّلم والكلمات وثيقة الصلة بها وردت في القرآن الكريم نحو ١٤٠ مرّة بينما لفظة الحرب ومشتقاتها لم تَرِد إلّا ستّ مرّات، وذلك في دلالة على أنّ السِّلم هو نقطة الارتكاز وحجر الزاوية في الرؤية القرآنية. علاوة على أنّ الإسلام نثَر الرحمةَ على تخوم ساحات الوغى وأشاع الإحسان بين جنَباتها؛ حين خطَّ دستورا أخلاقيا يَحكُم العمليّات الحربية ويَمنع الجُند من الانسياق وراء نشوة النّصر وسَكْرة المعركة وغرور القوّة وحَمِيَّة الثأر والانتقام، وذلك بقُرون

(١) البقرة: ١٩٠.
(٢) هذا على النقيض مِن المثل الإنجليزي الذي يقول: «في الحُبِّ والحرْب كلّ الوسائل مشروعة» ... «all is fair in love and war».

سبَقَتْ اتفاقيات جنيف الأَربع، التي وُلِدت في منتصف القرن العشرين، وبحَثَتْ في تنظيم السلوك أثناء النزاعات العسكريّة والعمليّات المُسلَّحة...

وهذا ما أكدَّه الزيات في (وحي الرسالة) حين قال: «ما إنْ دخلت الحروبُ تحت سلطان الدِّين حتى نظَّمها بقيوده وحدوده تنظيمه للشرِّ الذي لابدّ منه، فغدَتْ سلاحا من أسلحة الحقّ يَظهر بها على الباطل، ثمَّ انْشعب من نظامِها المُهذَّب أنظمة أخرى كالفروسية والفتوّة والمرابَطة والكشّافة، وما يدخل في بابها ممّا يقوم على المروءة والشهامة والشجاعة والإيثار والوفاء والعفّة»، كما شهد شاهد مِن أهلها فقال المؤرّخ الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): «إنّ العالَم لم يشهد فاتحين أرحم ولا أعدل من العرب».

«اغْزُوا باسم الله فقاتِلوا عدوَّ الله وعدوَّكم بالشام، وستجدون فيها رجالا في الصوامع مُعتزِلين فلا تتعرَّضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا، ولا تَقطعوا شجرا، ولا تهدموا بناء» .. كانت هذه وصيّة المصطفى -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لجيش مُؤتة وقائدِها زيْد

بن حارثة، حين تأهّب لحرْب الروم في السنة الثامنة للهجرة، ردّا على قتلهم لسفراء رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وعلى ذات النّهج سار صدِّيق الأُمّة في وصيتّه الجامعة لقادة الجيوش التي أَوْكل إليها حروب الردّة ونشْر رقعة الإسلام، فأكَّد حُرمة التمثيل بالجثث، وحُرمة الاعتداء على الكنائس والأديرة والمعابد، وحُرمة هتْك الأعراض وانتهاك الحُرُمات.

كما كان الفاروقُ خيْرَ خلَف لخيْر سلَف؛ فحين بلَغه أنّ أحدَ المجاهدين المسْلمين أمَّن محارِبا فارسيّا ثمّ غدر به وقتَله، كتَب إلى قائد الجيش قائلا: «بلَغني أنَّ رجالا مِنكم يَطلبون العِلْج حتى إذا أسند في الجبل وامتنع، قال رجل: لا تخَفْ، فإذا أدرَكه قتَله، وإنِّي والذي نفسي بيده لا أعلم مكانَ واحد فعَل ذلك إلا ضربْتُ عنقَه»

وبهذا كانت أخلاقُ الإسلام في الحروب سببا في إسلام المفكِّر والفيلسوف الفرنسي رجاء جارودي؛ فبعدما تمَّ اعتقاله في الجزائر من قبَل القوات الألمانية، وعند فراره مِن الأَسْر، أمر القائدُ الألماني قوّات الحراسة الجزائرية بإطلاق النار عليه، ولكنّهم رفضوا، ممَّا

أثار دهشة جارودي الذي سألهم عن السبب فقالوا: إسلامُنا يحرِّم علينا إطلاق النار على رجل أعزل، وذلك في برهان على أنّ الرحمة بالأصدقاء تطبيق عملي لأخلاق الإنسان، بينما الرحمة بالأعداء تطبيق عملي لأخلاق الإسلام.

كما كانت أخلاق الفرسان هذه سببا في التّرحاب بقوافل الفتح الإسلامي، فسارعتْ دولٌ وشعوبٌ للانضواء تحت راية الإسلام؛ راغِبة غير راهِبة، ومُحِبَّة غير كارِهة، وهو ما شهد به البطريرك بنيامين حين وصَف شعور المصريِّين إبان الفتح الإسلامي الذي وضع نهاية لعصر الشهداء الثاني، فقال: «فرحوا كما تفرح الأَسْخال إذا ماحُلَّتْ لهم قيودُهم وأُطلِقوا ليرتشفوا مِن ألبان أُمّهاتهم».

وإذا كان هذا هو منطق الإسلام في الهيْجاء، فمِن الظلم البيِّن أن نأخذَ ما كدَر وندَعَ ما صَفَا؛ فنحاكِم الإسلامَ اليوم ببعض الممارسات المَوْتورة والهوجاء لقلّة قليلة مِن المُسلمين، إذْ في ذلك خلْطٌ للأوراق وصيدٌ في الماء العكر ومَزْجٌ للدُرّ مع الصَّدَف، فالمَذهبُ السليمُ لا يَعيبه سُوءُ استخدامه مِن قِبَل أتباعه، والفارِق بين النظريّة في سلامتها والتطبيق في اعوجاجه لا يشين النظريّة بحال

مِن الأحوال، كما أنّ الهوّة بين الفكرة في سموّها والتنفيذ في انحرافه وتَدنّيه لا يلغي الفكرة مِن أساسها، ولا يهيل التراب على قواعدها.

وتَبقى شروطُ الحرب العادلة مِن حيث الأسباب والممارسات والنتائج مَحلَّ اتِّفاق في العموم، خاصّة إذا خلصَتْ النيّات وصدَقَتْ الأقوالُ واتَّزنَتْ الأفعال، بينما يظلّ حلمُ إلغاء الحروب واستلقاء الحَمَل في جوار الأسد، أملًا يُداعب خيال القِلّة وحديثَ خرافة لدى الكثْرة التي تؤمن بأنّ الحربَ ظاهرةٌ دائمةٌ ولازِمةٌ[1] للتاريخ البشري، وهو ما ترجمَتْه تَمنِّياتُ ورجاءاتُ الشّاعِر الوادِع المُسالِم الذي قال:

«ألا ليْتَ السّلاحَ بدون حاءٍ

ونبدلها بأمرِ الله مِيما

وليتَ الحربَ تغدو دون راءٍ

(١) في هذا يقول العلامة محمد البشير الإبراهيمي: «من اللطائف الحُكمِية؛ أنَّ القتال لم يُشرع في القرآن بصيغة شرَع أو وجَب أو غيرهما من صيغ الأحكام، وإنما جاءت الآية الأولى فيه بصيغة الإذن المُشعِرة بأنه شيء معتاد في الاجتماع البشري».

ونحـــــذفها تمامًــــا أجْمعينـــــا

ونُلغِـــي نـــونَ قُـــنبلة المآســـي

لتصــــبح قِبــــلةً لِلْمُســـلِمينا»

«لم يَخلق الإنسانُ وحْشا كالحرْب»

إبراهيم نصر الله

[و]

فيتامين واو

الأحوالُ قُلَّب والأيّام دُول .. فبعد أن كان حرف الواو حرف عطف يُزوِّج المعطوفَ للمعطوف عليه بلا مهر مقدَّم ولا صداق مؤخَّر، وذلك على مذهب إمام النحو (سيبويه). وبعد أن عهدناه واوَ جماعة يُؤمن بأنّ يدَ الله مع الجماعة، ويَعْتاش على الجمْع لا التفريق وعلى التأليف لا التشتيت؛ إذْ به يكتسب سمعة سيئة وسط الحروف؛ وصار يُلقَّب لدى العامّة بفيتامين واو للدلالة على المحسوبيّة والإشارة إلى الواسِطة. تلك الواسطة التي خصّتها العامّة باسم مميّز وهو (الكُوسا)، نسبة إلى النبات المستطيل الشبيه بالخيار والذي ينتمي إلى الفصيلة القرْعية ويُؤكَل مطبوخا. وفي حين يُرجِع بعضُ المؤرِّخين تلك التسمية؛ إلى أنَّ بائعي الخضروات الآتِين من أعماق الريف، كانوا يصطفُّون في طابور طويل أمام بوابة سوق المدينة، ليدفعوا الرسومَ قبل أن يأخذوا أماكنَهم بالداخل، وكان يَجري استثناء بائعي (الكُوسا) مِن الانتظام

في الطابور، لأنّها تفسد سريعا بفعل ارتفاع درجة حرارة الطقس.. فإنّ آخَرين يقولون بأنَّ تلك التسمية يعود أصلها إلى عصر الفاطميين والمماليك، حين كانت القاهرةُ تُغلِق أبوابَها مع رحيل النهار وقدوم الليل، ثمّ يَنتظر مَن يأتي مِن بائعي الخضروات والفاكهة ليلا أمام البوابة حتى تَفتح لهم ذراعيها في الصباح، وكان لا يُستثنَى مِن ذلك إلّا تجار (الكُوسا) المعروفة برهافتها وتلفها السريع.

والمحسوبيّة تأتي مِن الحَسَب، وتضع القرابةَ العائليّة والسياسيّة والمذْهبية حجر الزاوية في تحقيق المصالِح وبلوغ المآرب، وفي حين يُمدَح الشخصُ الذي يَبني مجدَه بكدِّه وعرقِه وشرفِ نفسه ويُقال عنه عصامي، فإنَّ نقيضَه الذي يسُود بشرف حسَبه ونسَبه يُقال عنه عظامي نسبة إلى عظام الميت، وهو ما هجاه الشّاعِرُ فقال فيه:

«إذا ما الحيّ عاش بعظم ميت
فذاك العظم حيّ وهو ميت»

أمّا الواسطة فهي اشتقاق مِن الفعل وسَط، والوسَط مِن كلِّ شيء أعدله، ومنه كانت أمّة الإسلام هي الوسَط في الاعتقاد

والتشريع والمكانة بين الأمم: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا﴾[١]. وفيها -أي الواسطة- يُوظِّف صاحبُ الجاه والنفوذ مكانته وسطوته بُغية قضاء الحاجات لطالِبيها، وقد سمّاها القرآن شفاعة وصنّفها إلى حسَنة وسيّئة فقال سبحانه: ﴿مَن يشفع شفاعة حسَنة يكن له نصيب منها ومَن يشفع شفاعة سيّئة يكن له كِفل منها﴾[٢].

ولأنّ الشرَّ لم يترك بابَ خيرٍ إلّا ولَجه ولم يدَعْ دربَ بِرٍّ إلّا ضيّقه؛ فقد ساد بين النّاس وشاع أنَّ الواسطة لا تكون إلّا مَعيبة ولا تأتي إلّا سافرة، مع أنَّ مجالَ الخير فيها رحْب فسيح؛ فخيْر الناس أنفعهم للناس، ومَن مشى في حاجة أخيه كان اللهُ في حاجته، وصدَقة الجاه تفوق صدقة المال، والسعي في طلب الخير للغير عوْن على البرّ وتأليف للقلوب وتأصيل للتكافل في رحاب المجتمع.. فعلى سبيل المثال؛ التوسّط لرفع الظلم وإيصال الحقّ لأصحابه واسطة خير، والتوسّط للعفو عمّا رغّب فيه الإسلام واسطة خير، والتوسّط

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) النساء: ٨٥.

للإصلاح بين المتخاصِمِين واسطة خير، والتوسّط للتخفيف على مُعسر ومَدِين واسطة خير، والتوسّط لتفريج الكُرب وحلّ عقدة الفقر وفكّ أسْر العاني واسطة خير، على أن تكون تلك الواسطة ابتغاء مرضاة الله لا غيْر، وألّا تكون على حساب الآخَرين، وأن تُعطَى لمستحقِّيها، ولا تُميِّز بين قريب وبعيد أو بين غنيّ وفقير أو بين رفيع ووضيع، وألّا يَتبعها مَنٌّ وأذى.

ولعلَّ أوضح مثال على تلك الشفاعة الحسنة؛ ما روتْه كتبُ السنّة من صدِّ (بَريرة) لزوجها الوَلِه المُحِبِّ (مغيث)؛ حتى إنّه كان يسير خلفها يَستعطفها ودموعُه تُبلّل لحيتَه، فلما استشْفع (مغيث) بالنبيّ واستغاث به، رقَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لحالِه، وشفَع له عندها، فردَّت (بريرة) الشفاعةَ بأدبٍ جمّ، وقالت: لا حاجة لي فيه. وفي هذا أُثِر عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قوله: «**اشْفعوا تُؤجروا**»، ورُوي عن إمام البلاغة علي بن أبي طالب قوله: «الشفاعة جناح الطالب».

أمّا الواسطة المذمومة والشفاعة السيِّئة فهي التي يترتّب على بذلها تغييب لحدّ من حدود الله، أو ضرر للآخَر وظلم للغير وهضم

لحقّ إنسان، أيّا كان حجم هذا الضرر والظلم والهضم، وبصرف النظر عمّن وقع عليه؛ كافرا كان أو مسلما، فاسقا كان أو وليّا؛ فكيْل العدل لا يحيف وميزانه قسطاس لا يَجور، ولا ضرَر ولا ضِرار. وقد تفشّت هذه الآفةُ المسمومة في مجتمعاتنا؛ حتى أصبحت ثقافة عامة، وأضْحت مفردة من مفردات حياتنا، وباتت مطبوعة على جباهِنا ومدبوغة في جلودِنا. ومن دواعي الأسف أنها صارت مألوفةً حدّ العادة، وواضحةً حدّ القبول والترحيب، ووصلت إلى مجالات الحياة المختلفة مِن تعليم وسياسة وإدارة واقتصاد، حتى أصبح اليتيمُ مَن لا واسطة له، والمسكينُ مَن خلا جيبُه مَن بطاقة تزكية ورسالة توصية، والضعيفُ مَن لا يرتكِن إلى وزير أو أمير، والأحمق مَن يُعرض عن ركوب مصعد يكبس فيه ذرّ الواسطة فينقله مِن السفح إلى القمّة ومن القاع إلى الصدارة.

وترجع جذورُ هذه الظاهرة التي يسمّيها بعضهم (فيروس العصر)، إلى غفلة الضمير الإيماني لدى بعض القائمين على أمور النّاس ومصالحهم؛ فيَغيب الإتقانُ وتَختلّ الموازينُ وتَضيع الحقوقُ وتُنتهَك الكرامةُ ويَنتشر الظلمُ والجوْر، وعندها يَصعُب

على الناسِ كلّ يسير ويتعقّد في وجوههم كلّ بسيط، فيبحثون عمّن ينقذهم مِن هذه المتاهة ويَحلّ لهم تلك المعضلة، وعندها لا يجدون قُبالتهم إلّا الواسطة؛ التي غالبا ما تَفتح البابَ المغلَق، وتختصر المُطوَّل مِن الإجراءات، وتقفز بك فوق حواجز الروتين والبيروقراطية، وتُحوِّل (كلّا) إلى (نعم) و(لا) النافية إلى (لام) الأمر، وتمنحك الشهادةَ والخبرةَ التي تَفُوق بها أصحابَ الكفاءات وتَسبق القويَّ الأمين. أضِف إلى ذلك ضعف الأنظمة والقوانين التي تحكم حركة المجتمع، ممّا يجعلها جدارا مثقوبا يسهل النفاذ منه، وصيدا ثمينا لا يَستعصي على أنصاف المحترفين قنصه واصطياده، خاصة في وجود رقابة رخوة لديها الاستعداد الكامل للمحاباة والمجاملة ولو حساب قيم العدل والمساواة وتكافؤ الفرص، وفي ظلّ التباطؤ في تفعيل الحكومات الالكترونية التي قد تسهم في الحدّ من هذه الاختراقات والتجاوزات.

وللواسطة آثارها السلبية على الفرد والمجتمع؛ إذ تَقتل الطموحَ وتُولِّد الإحباطَ وتُنبِت الأحقادَ لدى أصحاب الكفاءات، بينما تُشجّع على الكسلِ واللامبالاة بين الفئات التي تقتات على

«فيتامين واو» وتَتنفّس أوكسجين الواسطة، كما تُكرِّس للطبقيّة وتُؤصِّل للاحتكار وتُشَرْعِن للرِّشوة التي ليست إلّا واسطة بمقابل، فضلا عن كونها مسمارا يُقوّض بنيانَ الانتماء للوطن، وطعنة تَنزف منها دماءُ الأمان وتحتضر على أثرها روحُ الثقة بين أفراد المجتمع، بل إنّها ظلمٌ مقنَّعٌ يَنطوي على الغشّ والخيانة؛ إذْ تُوسِد الأمرَ إلى غيْرِ أهلِه وتضع غيْرَ المناسِب في المكان غير المناسِب وتُعطِي مَن لا يَستحقّ ما لا يَستحق. وفي ذلك يُمكن فهم أسباب الهرولة الجماعية للكفاءات صوْب الشمال الذي يَسود فيه القانون، ويَستوي أمامه الخفيرُ والوزير، ويُقتصّ فيه للبرغوث من الفيل. كما يمكن تفسير ضعف إنتاجنا، وتخلّف مجتمعاتنا، وغيابها عن سباق التقدّم في كلِّ مناحي الحياة.

وربّما يتضح هذا بجلاء مِن خلال ما طرحتْه منظمة الشفافية الدولية في تقريرها الصادر عام ٢٠١٦م؛ حيث جاءت ستّ دول عربية (سورية–اليمن–العراق–الصومال–ليبيا–السودان) ضمن قائمة ضمّت الدول العشْر الأكثر فسادا على مستوى العالم، وفي حين تصدّرت كندا التصنيف وكانت أكثر الدول نظافة بمجموع

نقاط ٩٠ من ١٠٠، فقد تذيّلت الصومالُ القائمة وكانت أكثر الدول فسادا بمجموع نقاط ١٠ من ١٠٠! كما تشير إلى ذلك دراسة حديثة أجرتْها الهيئة الوطنية السعودية لمكافحة الفساد (نزاهة) في عام ٢٠١٧م، وتَبيَّن فيها أنّ الواسطة هي أكثر أشكال الفساد في القطاع الحكومي الخدمي بنسبة مئوية بلغت حوالي ٦٣٪! فضلا عمّا ذكرته منظمة الشفافية الدولية قبل عدة سنوات، مِن أنّ ٧٠٪ من الوظائف في أكبر الدول العربية لا يمكن الحصول عليها بدون الواسطة!

وعلى سبيل العبرة والعظة، حفظت لنا السيرةُ النبويّة المطهَّرة قصّة المرأة المخزومية وشفاعة سيدنا أسامة بن زيد فيها؛ فقد كان بنو مخزوم أسرة فارهة مِن أسر قريش المشهورة، ولمّا سرقت امرأةٌ فيهم ورُفِع أمرُها إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وثبت في حقِّها جُرم سرقة الحُليّ، أمر بقطْع يدها كما نصّ الشرعُ الحنيف، وعندها قامت قيامة بني مخزوم وقالوا: تُوسمنا العربُ بأنّ امرأة منا سَرقت! لا والله لا يكون هذا، ثم استقرّ أمرُهم على أن يشفع لها حِبّ رسول الله وابن حِبّه، وكان شابّا بعد، ولكنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- غضب

واستنكر ذلك مِن أسامة قائلا: أتشفع في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟! والله لو سرقَت فاطمةُ بنت محمّد لقطع محمّدٌ يدها.

«الحمار المُحمّل بالذهب يصعد الجبلَ بخفّة»

سرفانتس

[ي]

نور اليقين

هل هاتفْتَ شخصًا ثمّ شافهْتَه فصُدِمْت؟

وهل كاتَبَك شخصٌ ثمّ التقيْتَه فدُهِشْت؟

وهل طالعتَ صورةً ثمّ عايَنْتَ صاحبَها فعَجبْت؟

حدث ذلك لي كثيرا، وعندها خاب الظنُّ وخسر التوقُّع؛ فكانت الصورةُ أجملَ وأوْسَمَ مِن الأصل، وكانت المُهاتفةُ أكثرَ تهذيبا ومِثاليّةً مِن المشافَهة، كما كان المكتوبُ أغزر ثقافةً وأقْوى منطِقا ومُتوافِقًا مع استنباط الكاتب الإيطالي أمبرتو إيكو حين قال: «النَصُّ يَفوق كاتبَه ذكاء».

كما حدَث ذلك أيضا للطبيب الفيلسوف خالص جلبي، حين هام شابٌّ مغربيّ بكتاباته وأفكاره حدّ الولَه، فلما الْتقاه وأَلْفاه يأكل الطعامَ ويَمشي في الأسواق ويَرتاد الحمَّام، تَبخّر الهيامُ وفرّ الولَه، في تطبيق عمليّ للمثل الإنجليزي الذي يقول بأنَّ الاحترام أفْضلُ مِن

بعيد[١].

وتكرّر ذلك مع عدد مِن الطلبة الإغريق، الذين جَدّوا في البحث عن الفيلسوف هرقليطس، ليَنهلوا مِن عِلمه ويَتشرّبوا بفلسفته، فلمَّا وجدوه يَكسب قوت عيْشه في مخبز، وآثار الوحل في قدميه وبقايا العجين عالقة في ملابسه وشعره ورموش عينيه، صُدِموا وهَربوا.

وقريبٌ مِن هذا أيضا، صادفه الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مروان، حين دخل عليه أميرُ العشَّاق ووزيرُ الحُبّ العُذْريّ، فلمّا وجدَه قصير القامة نحيل البِنْية، وبعدما استوْثق مِن كوْنه (كُثَيْر عَزّة) الذي طبَّقَتْ شهرتُه الآفاق، قال: «أن تَسمعَ بالمُعيْدِيّ خيرٌ مِن أن تراه»، وهو في ذلك على طرف النقيض مما قاله الإمام ابن العربي عن شيخه الغزالي: ولمّا رأيته تحققت أن الذي نقل إلينا أن الخبر عن الغائب فوق المشاهدة ليس على عمومه، فإنه -أي الغزالي- كان رجلا إذا عاينته رأيت جمالا ظاهرا، وإذا عالمته وجدت بحرا زاخرا. وهو المعنى الذي ساقه حكيم الشِّعر (أبو الطيّب المتنبّي)

---

(١) «respect is greater from a distance».

في قوله:

«وأَستكبِر الأخبارَ قبل لقائِه
فلمَّا التقينا صغَّر الخبَرَ الخُبْرُ»

لماذا هذا التباين إذنْ، مع أنَّ الصورةَ ظلالٌ ضوئيةٌ للأصل والمهاتفة صورة صوتية للمتحدِّث والمكتوب صورة ذهنية لكاتبِه؟

ولماذا هذه المفارَقة التي لا تصل إلى حدّ التعميم فترتقِي إلى مصافّ القوانين، ولا هي بالنادرة التي لا تسترعِي حرثها والتفكير فيها؟

هي وحدها المسافة بين اليقين والظنّ[1] التي تفسِّر ذلك، فتجعل الخبَرَ ليس كالمعايَنة وتجعل الصورةَ ليست طِبْقا للأصل. فكلَّما خطَى الظنُّ خطوة نحو اليقين تَلاشى التبايُن وولَّتْ المفارَقة، وكلّما تراجع خطوتيْن نحو الشكّ والوهْم اتّسعَتْ الهوّةُ وزادتْ

(١) تعارَف أهلُ العلم على أنَّ مستويات المعرفة أربع؛ فأدناها مستوى الوهم إذْ تبلغ فيه نسبة الصحّة مابين ٢٠-٣٠٪، ثمّ مستوى الشك حيث تبلغ فيه نسبة الصحة ٥٠٪، ثم مستوى الظنّ وتصل فيه نسبة الصحة ٧٠٪، أما أعلى المستويات فهو اليقين الذي يلامس قلب الحقيقة وتبلغ فيه نسبة صحة المعلومة ١٠٠٪.

الفجْوة؛ إذْ الظنّ رُجحانٌ وتخمينٌ وحدْس، بينما اليقين قطْعٌ وجزْمٌ وحقّ. وفي الظنّ بعضُ شكٍّ وتردُّد وثَمَّة وهْمٍ واضطراب، بينما في اليقين قُرّة عيْن وسكينة نفْس وثبات جنان. علاوة على أنَّ الظنّ لا يَخلُو مِن غبارٍ وسَديم، بينما اليقين هو شمسُ الأصيل الذي يبدِّد الضباب والهواءُ العليل الذي يجعل الغبارَ هَباء منثورا. وفي الوقت الذي تستطيع قوّة اليقين اقتلاع الشكوك[1] واجتثاث الأوهام ومحو الظُّنون، فإنَّ اليقين كالشّمّ الرواسي؛ ولا يَقُدّه ويَقوَى عليه إلّا يَقينٌ مثلُه. وكأني به يقول: جبل أنا لا تهزّني الرياح.

ويُعرَف الظنُّ بأنه تجويز أمريْن أحدهما أظْهر مِن الآخر، وهو وإنْ علا الشكَّ وجاوَزه، إلّا أنّه دون اليقين الذي يُلامِس الأصل، ويُغرِق في التفاصيل، ويَغوص في الجُزئِيّات، ويَطّلِع على صورة ثلاثيّة الأبعاد بلا أقنعة ولا هالات؛ فيُطابِقُ الإدراكُ الواقعَ على وجه الجزْم، ويَتكشّف عنده زيفُ ألوان الصورة، وتدليس نبرة الصوْت، وتنميق حرْف المكتوب.

---

(١) في هذا يقول الشاعر سابق البربري:

«فسائِلْ إنْ مُنِيتَ بأمْر شَكٍّ فإنَّ الشكَّ يَقتلهُ اليقينُ»

أمّا اليقين -كما ورد في المعجم الوسيط- فهو العِلم الذي لا شكّ فيه، ويُعرِّفه الفلاسفةُ بأنّه اطمئنان النفس إلى حُكم مع الاعتقاد بصحته، وقد جاء في التنزيل بمعنى الموت ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[(١)].

وبهذا نتبيّن أنّ بين الظنّ واليقين فجوة عميقة لا يَملؤها إلّا الحقيقة التي قال عنها (جوتة) بأنها مكمن الحكمة، ويتّضح أنّ بين الشبُهات والمُحْكَمات حُجُبا وجدرانا لا يخترقها إلّا الدّليلُ والبرهان. وكما أنّ الصراحة راحة، فالحقيقة أرض صلبة تهَب صاحبَها ثبات الجبال وقوّة الفولاذ واتّزان الأفلاك، فتحرِّره مِن العثرات والسقوط، وتمنحه مفتاح التعامل الراشد مع الواقع ومستجدّاته...وفي سبيل الوصول إلى تلك الحقيقة والعثور على ذلك البرهان والدليل، تتعدّد المشارب؛ فقد يَصلنا اليقينُ على جناحِ خبرٍ متَواترٍ لا يَعتريه شكٌّ ولا يُناقِضه عقل فنسمِّيه عِلْم اليقين، وقد يكون ثمرةَ مُعايَنةٍ فيرتقي إلى مرتبة عيْن اليقين، وقد يكون وليد مُعايَشةٍ فيُصبح حقّ يقين ... فالدّخانُ عِلْمُ يقينٍ للنّار،

(١) الحجر: ٩٩.

واللهبُ عيْنُ يقينٍ لها، أمّا احتراق اليد بأوارها فهو حقُّ يقينٍ على وجودها. وفي هذا يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: «العلم ما قام عليه الدليل، واليقين أخصّ من العِلم بأمريْن: أحدهما انه العلم الراسخ القوي الذي ليس عرضة للريب والشك والموانع، والأمر الثاني أنّ اليقين يَحمل صاحبه على الطمأنينة والصبر والقوّة».

ومع أنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث وبعضَه إثمٌ وبغْيٌ، والزَّعْمَ مَطيّةٌ بائسةٌ وأرضٌ زلِقة؛ فإنّنا كثيرا ما نبنِي على شفا جرُفٍ هار ولا نُقدِّر للرِّجْل قبل الخطْو موضعها[1]؛ فنُصدِر أحكامًا على ظنونٍ مرجوحةٍ في خبرِها، ونُصنِّف أُناسا على مزاعم واهيةٍ في سنَدها ومجروحةٍ في بَيِّنتها، دون إجهاد النفس في تحصيل برهانٍ ساطع ودليلٍ صادق، ودون تغيير قدَمٍ في سبيل التبيُّنِ[2] بالسنَد والتَثَبُّتِ بالحجّة، على أمل الولوج في دائرة اليقين التي يَنتفي عندها الشك ويَزول اللبْس،

---

(١) في هذا المعنى يقول الشاعر:

«قدِّر لرِجْلك قبل الخطْوِ موضعها   فمَن علا زلِقا عنْ غِرَّةٍ زلَجا»

(٢) ﴿فتَبيَّنوا أنْ تُصيبوا قوما بجَهالة فتُصبحوا على ما فعَلتم نادمين﴾ وفي قراءة (فتَثبَّتوا) [الحجرات: ٦].

فيُصبح الزّعم حقيقة[١] والقولُ فصْلا والحُكْمُ شجرةً ثابتةً أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء ... ولِمَ لا والدِّين سُور واليقين نُور.

ولعلّ أفْضل خدمة يُسديها الشخصُ إلى نفسه وأنْفس هديّة يُتحِف بها مجتمعَه، هي أن لا يكون رجلًا ظَنونًا في فكره أو مُتَّهَما في خبَره، وأنْ يجتهد ليكون رجُلَ ثقة مُؤتَمَن في نقلِه وعقلِه، ويُبادر فيُجهِز على جذور الظنّ ويَجزّها بفأس اليقين، ويضع نصْب عينيْه وملء فؤاده قول الشاعر الربيع بن أبي الحقيق:

«إذا أنْتَ لَمْ تَبرحْ تَظنُّ وتَقْتضِي
على الظنِّ أَرْدَتْك الظّنونُ الكَواذِبُ»

وما مِن سبيلٍ لذلك إلا اتِّباع طرائق الاستقراء والمشاهدة والتجريب التي انتهجَها أهلُ العِلم في كلّ فرعٍ وصقع، والتَّحلِّي بصفات العدالة والضّبط التي نشَدَها أهلُ الجرح والتعديل في رُواة الحديث الشريف، واتّباع نصيحة (رديارد كبلينج) الذي قال: «إنّ

(١) عن الحقيقة يقول الشاعر جون كيتس: «الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال».

لي ستّة مِن الخَدَم المخلِصين؛ منهم تعلّمتُ كلّ ما أعلم علم اليقين ... أسماؤهم هي: ماذا ولماذا ومتى وكيف وأين ومَن»، والعمل بمقولة الشيخ الرئيس (ابن سينا): «كلُّ ما طرَق سمعَك ذرْه في بقعة الإمكان، حتى يَزودَك عنه واضحُ البرهان»، مع الامتثال التام لقولِ الحقِّ جلّ وعلا في الآية السابعة والثلاثين من سورة الإسراء: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لكَ به عِلْمٌ﴾ والتي فسّرها (اسماعيل بن عمر) صاحب البداية والنهاية والمعروف بابن كثير بقوله: «إنّ الله نهى عن القوْل بلا عِلم، بل بالظنّ الذي هو التوهُّم والخيال».

وفي هذا أَوْردَ محمد بن المرزبان في كتابه (فضل الكلاب على كثير ممّن لبس الثياب)؛ قصة صديقه الذي ماتت امرأتُه وخلَّفت صبيّا، وكان له كلب قد ربّاه، فترك يوما ولدَه في الدار مع الكلب وخرج لبعض الحوائج، وعاد بعد ساعة فرأى الكلبَ في الدهليز ووجهَه وبوزَه ملوَّث بالدم، فظنَّ الرجلُ أنه قد قتل ابنَه وأكله، فعمد إلى الكلب وقتله قبل أن يدخل الدار، ثم دخل الدارَ فوجد الصبي نائما في مهده، وإلى جانبه بقيّةُ أفعى قد قتله الكلبُ وأكل بعضَه؛ فندم الرجل على قتله أشدّ ندامة، ودفن الكلب!

أمّا شيخُ مؤرِّخي السيرة النبوية (أبو بكر محمد بن إسحاق)؛فقد ذكر أنّه لمَّا جاء المُبشِّرُ يوم بدر بخبر مقتْل أبي جهل، استحْلفه رسولُ الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثلاثةَ أيمان بالله الذي لا إله إلا هو أنّه قد رآه قتيلا -تَحرِّيا لليقين ومفارقة للظنّ-، فحلف له، فخرَّ رسول الله -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ساجدا.

بقِيتْ تذكِرة بأن آخر آية في سورة الفتْح هي الآية الوحيدة التي تَضمنَتْ كلَّ حروف اللغة بيْن جنبيْها، ووجب التنويه بأنَّ حرف الياء، هو آخر حروف الهجاء ترتيبًا في منزلته الثامنة والعشرين، ومَخرجه مِن بين أوّل اللسان ووسط الحنك الأعلى، وهو أقلّ الحروف تكرارا في قرآننا العظيم(١)، إذْ تكرَّر مَرّتيْن وخَمسمائة مرّة(٥٠٢)، تاليا في ذلك حرف الهاء الذي سبَقه فتكرَّر سَبعمائة مرة(٧٠٠)، على أنّ الأخير في الترتيب لا يعني الذّليل في التصنيف،

(١) ورَد إحصاء تكرار الحروف كاملا، في كتاب (التكرير بين المثير والتأثير)، لمؤلِّفه عز الدين السيد ص٩، وجاء فيه نقلا عن الإتقان للسيوطي، أن عدد حروف القرآن بلغت (٧٢٣٣٣٢) حرفا وأنّ كلماته بلغتْ (٧٦٤٤٠) كلمة.

ولا القلّة في العدد تعني الدُّونِيّة في القِيمة، وهو ما صاغه (السّموْألُ) شِعرا فقال:

«تُعيِّرنا أنَّا قليلٌ عدِيدنا
فقلتُ لها إنَّ الكِرامَ قليلُ»

نحتاج مِن خَشبِ اليقينِ سفينةً
نَضعُ الشّراعَ ونَعبُر الطوفانَ

فيصل الفارسي

الخاتمة

بعد اكتمال التجوال في ثنايا الحروف، والغوص في دروب المعاني؛ يَدقّ جرسُ الرحيل ويلوح طائرُ الوداع، وعلى إثرهما ترتفع حرارة الكلمات؛ لتنصهر، وتتكثّف في بوْتقة شاكِرٍ أو وصيّة ناصِح أو دُعاء مُحِبّ؛ فيذهب الشُّكرُ إلى مسقط رأس (الخليل بن أحمد الفراهيدي) و(المُهلَّب بن أبي صفرة) و(ابن دريْد) و(أحمد بن ماجد)؛ حيث سلطنة عمان التي وهبَتْني مِن صفائها وهدوئها وفطرتها، ما كان مطِيّة ذلولَة لجمْع شمْل الذّهن وجوادا مُسرجا للَمّ شتات الفكْر. أمَّا الوصيّة فأسوق لنفسي وقارئي قول الحقّ جل وعلا في الآية الثانية عشرة بعد المائة مِن سورة هُود: «فاسْتَقِمْ كما أُمِرْت». ويَبقى مقام الدعاء الذي لم أجدْ له خيرا ممّا دعا به سلطان العلماء (عزّ الدين بن عبد السلام) حين قال:

«اللهمّ هَيِّء لهذه الأُمّة أمرا رشَدا؛ يُعَزّ فيه أهلُ طاعتك، ويُذَلّ فيه أهلُ معصيتك، ويُؤمَر فيه بالمعروف، ويُنهَى فيه عن المنكر، ويُعمَل فيه بدين محمّد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-».

أمَّا الإعذار مِن السّهو الذي لا يُحترَز له في كلِّ مكتوب، ومِن الخَطأ الذي لا مَفرّ منه عند كلِّ كاتب؛ فقد ناب عنّي (الأخطل) بقوله:

«اليوم أُجهِد نفسي ما وَسِعَت لكم
وهل تُكلَّف نفسٌ فوق ما تسَع»

ثمّ كفاني الإمامُ (الشافعي) -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- حال قوله: «لقد ألَّفتُ هذه الكتُب ولم آلُ فيها، ولا بدَّ أن يُوجد فيها الخطأ، لأنّ الله تعالى قال: «ولَوْ كانَ مِن عِندِ غيْرِ اللهِ لوَجَدوا فيهِ اخْتلافا كثِيرا» [النّساء: ٨٢]».

المؤلِّف

المؤلِّف في سطور

د. منير لطفي محمّد علي

- مواليد ريف الدقهلية١٩٦٥م.

- تَخرّج في كلية طب المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدا مع مرتبة الشرف).

-استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدا).

- خَرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز).

- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية

- نشر العديد من المقالات والمشاركات في الجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية.

- صدَر له:

١- السكّري .. الداء والدواء، دار البدر، ٢٠١٤م

٢- أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، ٢٠١٦م

٣- الغروب الدافئ، دار الأندلس الجديدة ٢٠١٧م

٤- طريقك إلى التميّز، دار عالم الثقافة، ٢٠١٧م

٥- رحلتي مع مرض السكري، دار اليقين، ٢٠١٨م

٦- مفاتيح القراءة، دار اليقين، ٢٠١٨م

٧- بستان العافية، دار اليقين، ٢٠١٨م

٨- حياتنا بعد الستِّين، دار مدارك، ٢٠١٩م

٩- عدا عن كتب أخرى قيد التهذيب والإعداد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

أُثِر عن الإمام الشافعي قوله: «أَبى الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه»، فرحِم الله قارئا فَطِنا؛ عايَن زلَلًا، أو لامَس عيبًا، أو وقع على خطأٍ...فأهداه إليّ.

للتواصل:

Dr36444@yahoo.com

الفهرس

الإهداء	٤
المقدمة	٥
أ- ألِف باء الإبداع	٩
ب- بخلاء لهم العجَب	٢٠
ت-توكُّلٌ لا تواكُل	٣٠
ث-ثقّف نفسَك	٤٢
ج-يدُ الله مع الجماعة	٥٣
ح-فقه الحُبّ	٦٥
خ-خطِّط واستعِدّ	٧٥
د-الدِّين والحياة	٨٢
ذ-ذئاب البشَر	٩٢
ر-رياضة الروح	١٠١
ز-الزينة الزائفة	١١٢
س-أحذِّركم سوف	١٢٥
ش-رحيق الشكْر وحريق الشكْوى	١٣٧
ص-سِحر الصحراء	١٤٧

ض- لغة الضاد ١٥٧

ط-مع الطبّ والأطباء ١٦٨

ظ- الظُلم المُركّب ١٨٠

ع- إيمان العجائز ١٨٨

غ- أنّات الغرباء ١٩٦

ف- متلازِمة الفكر والفقر ٢٠٥

ق- وقفات مع سورة ق ٢١٩

ك- ميزان الكَمّ والكَيْف ٢٣٠

ل- لغات يجهلها اللسان ٢٣٩

م- موْت الفَوات ٢٥١

ن- بين نارٍ ونار ٢٥٩

هـ- الحرب (الهيجاء)النبيلة ٢٦٧

و- فيتامين و ٢٧٧

ي- نور اليقين ٢٨٦

الخاتمة ٢٩٦

المؤلف في سطور ٢٩٨

الفهرس ٣٠١

تمّ بحمد اللّه

د. منير لطفي

معًا نرتقي

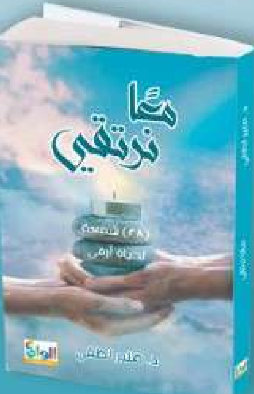

هذا الكتـاب..

يدلّنا على جوهر الثقافة وأدوات الإبداع، ويشير إلى مخـاطر التسويـف والتّواكُل، ويحذّر من منهجيّة الشكـوى على حساب الشكـر والكمّ على حسـاب الكيْف، ويُجرّم البخل والظلم والمحسوبيّة، ويُعلي مِن رياضة الروح والعمل الجمـاعي وعاطفة الحبّ، وذلك ضمن ثمان وعشرين شمعة تأخذ بيدنا إلى نور اليقين ونحقّق بها التوازن المرجوّ بين الدنيـا والدّيـن.

منير لطفي

9 789776 576681